



الحصان

التاريخ الطبيعي والثقافي

إلين ووكر

ترجمة : رامي البيروتي

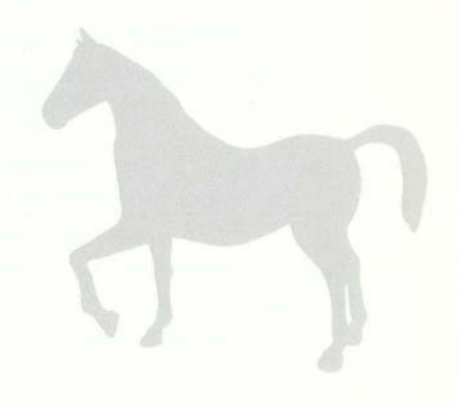
سلسلة الحيوانات

الحصان

إلين ووكر



ترجمة: رامي البيروتي



الحصان

إلين ووكر

ترجمة: رامي البيروتي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

QB983 .W3521 2010
Walker, Elain
الحصان / ايلين ووكر : ترجمة رامي البيروتي .- أبوظبي: المجمع الثقافي، كلمة، 2010.
ص. ؛ سم.
ترجمة كتاب: Horse
تدمك: 978-9948-01-498-0
1 - الحيوانات والحضارة. 2 - الحيوانات - صور. أ- بيروتي، رامي.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Elaine Walker
Horse

Was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2008



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+
فاكس: 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+
فاكس: 059 6336 2 971+

سلسلة حيوانات

الحصان

التاريخ الطبيعي والثقافي

مراجعة : أسامه المنزلجي

المحتويات

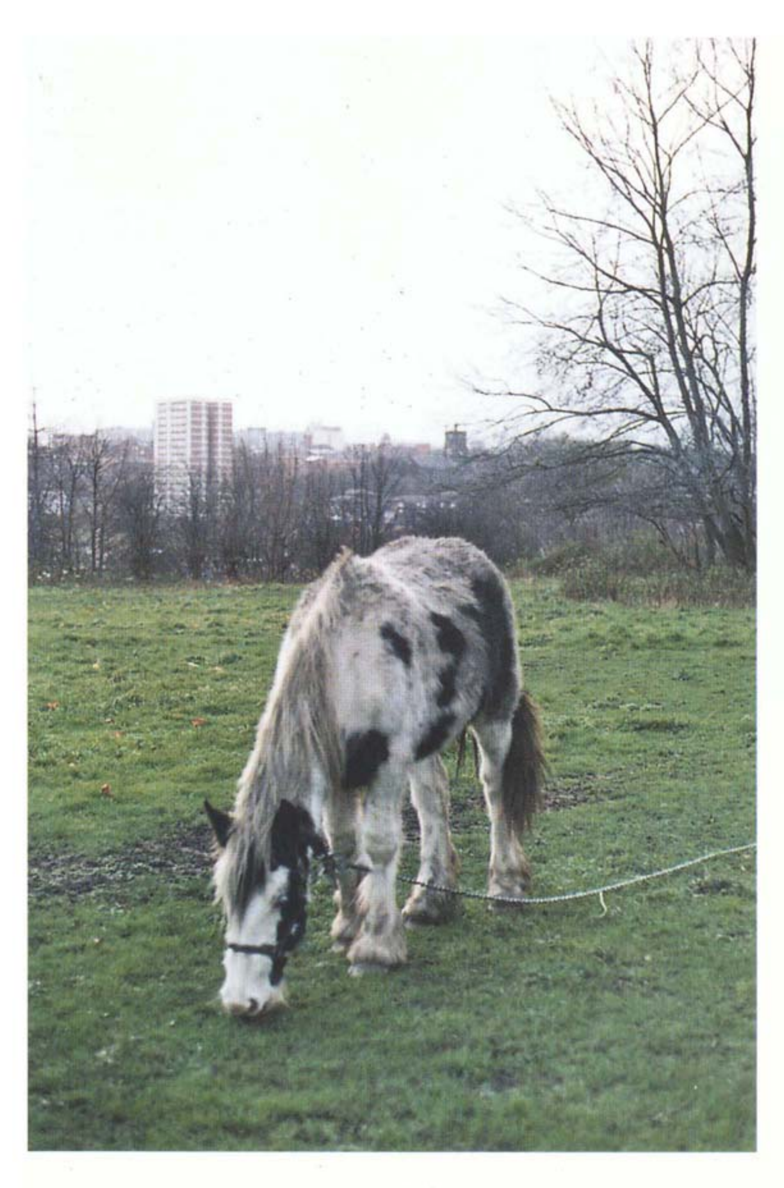


مقدمة

«عندما أمتطي صهوة الحصان فإنني لا أرغب في الترجُّل عنه أبداً، لأنني سواء أكنتُ مريضاً أم معافى، أشعر بأنني أحسن حالاً في تلك الوضعية.»
ميشيل دو مونتيني، مقالات

الحصان حيوان أليف، ونحن لا نفكر فيه بصفته نادراً أو دخيلاً. إذ حتى في الحواضر ترعى الأحصنة في أمكنة تخصها على أطراف مدن عديدة، وتضبط الحشود في الأحداث العامة، وتجر عربات السياح. تظهر الأحصنة في الأفلام والدعايات والشعارات، وهي من الحيوانات الكبيرة القليلة التي تتجاوب مع طفل صغير تجاوباً لطيفاً، ولذلك فإن لدى معظمنا ذكريات عن حفنة من عشب نقدمها إلى حيوان ينحني فوقنا، وتُخفف من وطأة حجمه المخيف دغدغة شاربيه لنا ورغبته في البقاء ساكناً بينما نحن نربّت على رقبته. إننا نسلّمُ بحضور الأحصنة في حياتنا اليومية، بصرف النظر عن اعتيادنا عليها أو معرفتنا بها على نحو يتجاوز المصادفة العرضية.

ينسى أولئك الذين يعايشون الأحصنة، كحيوانات أليفة أو رفاق عمل، أن ليس في وسع الجميع أن يفهموها. فالمالكون الجدد الباحثون عن شخص يثبّت قطع المعدن إلى ذلك «الخشب» الموجود على أقدام أحصنتهم، أو يهملون علفاً يكفي لأسبوع متوقعين من الحصان أن يأخذ حصته اليومية بنفسه، هؤلاء يقلقون أيَّ شخص ترعرعٍ محاطاً بالأحصنة. أما الذين لا تتعدى معرفتهم بالأحصنة كونها منظراً جذاباً في الحقل أو على الشاشة، فقد يفاجأون بتعقيدات طبيعتها. وعندما سألني صديق لي لا يكترث بالأحصنة عن رأيي بالعناصر الخيالية في فيلم «الهامس للحصان– The Horse Whisperer»، المستند إلى كتاب نيكولاس إيفانز، لم أفهم ما يقصد. فقد راجت تقنيات العمل مع غرائز الحصان الطبيعية رواجاً كبيراً خلال السنوات الخمسين الماضية إلى درجة ان الحيرة أصابتني عندما



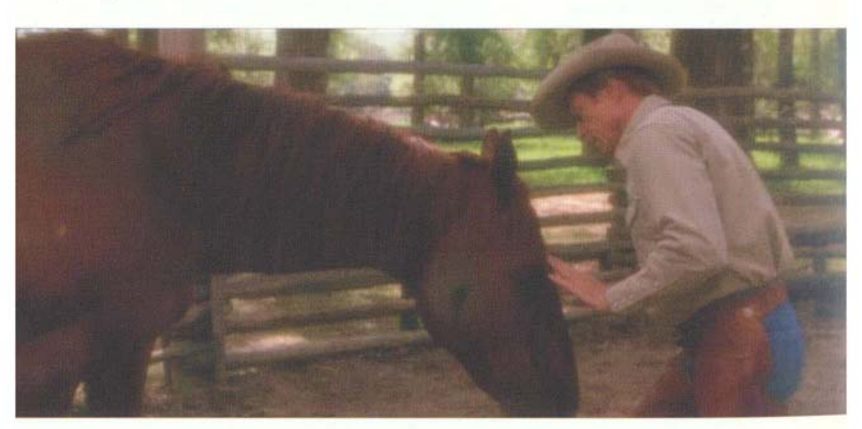
حصان حضري ويظهر
من بعيد مركز مدينة
ليدز.

اكتشفتُ أنه كان في استطاعته أنْ يراها وهمية تماماً. ولكن حيرته كانت مماثلة عندما أجبتُ بأن الفيلم يخلو من أية عناصر خيالية.

وعلى غرار أطفال كثيرين، شرعتُ بالضغط تدريجياً على والديّ كي أحظى بحصاني الخاص في عمر مبكر. يذكر أبي كيف أني طالبتُ بأن أعرف، وأنا في الثالثة من عمري، لِمَ ليس في مقدوري الحصول على حصان فوراً. وعندما توقف عن حلاقة ذَقَنه كي يشرح لي أنه لا يستطيع شراءه، تفحصتُ الحمّام بحثاً عن أشياء لا لزوم لها، وأجبتُ بأن لا عجب في ذلك، ما دام يهدر مالاً كثيراً على شراء الصابون ومعجون الأسنان. وقلما تتغير أولويات عاشق الأحصنة، إذ بعد ثلاثين عاماً حالفني الحظ بالتعرف إلى مديرة مصرف كانت تربّي جيادَ الاستعراض. وعندما اقترحتُ عليها بحذر قرضاً أشتري به حصان أبالوزا المرقط البديع الذي كنت أصبو إليه، ابتسمتْ في تفهم تام وقالت: «فلنقل إن القرض من أجل مُستَنبَت زجاجي».

إن الصفات المتشابهة التي تجمع هذه النوادر تربط أيضا بين ذوي الآراء المتشابهة عبر القرون. ففي عام ١٦٥٠، كان ماركيز نيو كاسل وليام كيفنديش، المنفيُّ إلى «أَنتْويرب» بعد هزيمة الملكيين في معركة مارستون مور، يعيش على شفا الفقر واضطرت زوجته إلى رهن حليّها كي يجدوا كفاف

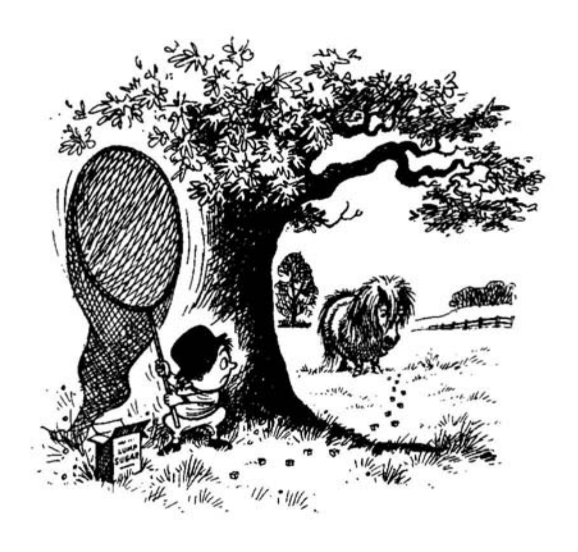
توم بوكير (روبرت ريدفورد) يواجه بيلغريم في فيلم الهامس للحصان (١٩٩٨)



يومهم. غير أنه يذكر بسعادة، «على الرغم من فقري في تلك الأيام، فقد تدبرتُ أمري، في مرات عديدة، بشراء أربعة أحصنة بربرية، وخمسة أحصنة إسبانية وأحصنة هولندية كثيرة؛ وجميعها من أجود الأحصنة»(١). كما كان ميالاً إلى تقديم الأحصنة كهدايا بسخاء، ولابد أنَّ ذلك أوصل زوجته إلى حالة من اليأس، وخصوصاً عندما تعين عليه تركها تكفل ديونه كي يتمكن هو من العودة إلى إنجلترا.

كيف تحصل على مهر

عالم الولع بالمهور مجسد بكل دقة في رسوم كرتونية مشهورة لنورمان ثيلويل (١٩٢٣-٢٠٠٤)



الحصول على مهر ليس بالسهولة التي يبدو عليها...

بعد قرابة أربعمائة سنة، عندما صادف وليام هولت حصاناً عربياً نحيلاً يدعى الزناد يجرُّ عربة خردوات ، فـ «لبثُ لبرهة وقد مسّه شعورٌ غريب؛ توقٌ مفعم بالود أثارَ لديه أفكاراً خياليّة». وأمضى المساء وهو يُراقبُ الحصان يرعى على الجانب المنحدر لرصيف سكة حديدية والقطارات السريعة تهدر وهي تعبر من أمامه، ثم، «في اليوم التالي اشتريتُه، هوُ والعربة ذات العجلتين والحديد القديم وكل شيء». لم يكن لديه أيُّ سبب ليشتري حصاناً أو – في البداية على الأقل– أيةُ نية في ركوبه. فاعتقد في البداية بأنه تبنّى الحصان «كما يتبنّى المرء كلباً مشرداً للاستمتاع بإسعاده»، ولم يلبث أن أدركَ «إنه هو من أنقذني»(٢). وقبل فوات الأوان، انطلق هولت، وهو في عمر السابعة والستين، مع صديقه الجديد ليقطعا معاً تسعة آلاف ميل في أرجاء أوروبا الغربية.

مهر العائلة بين
عامي ١٩٦٥-
٢٠٠٧

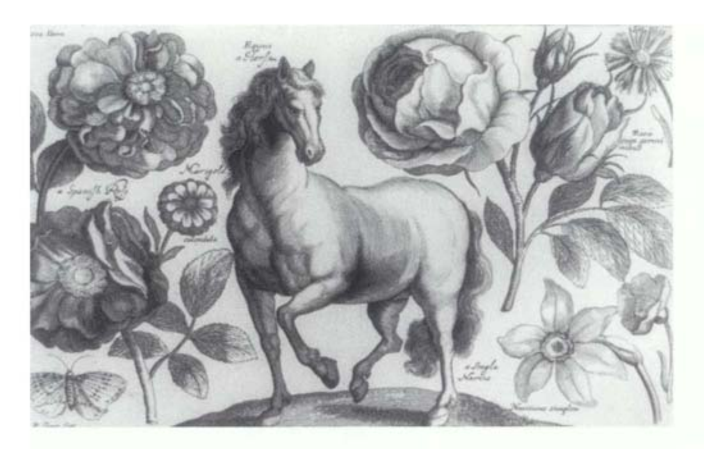




لا تزال قصص الإساءة إلى الأحصنة تشغلُ ساعات من برامج إغاثة الحيوان على شاشة التلفزيون، ويبدو الإهمال -بدءاً من الّجهل ووصولاً إلى القسوة المتعمَّدة- أمراً معروفاً كفكرة الحصان الأثير المنتمي إلى العائلة.

يبدو أن تفاعلنا مع الأحصنة قد يُظهِر أسوأ ما فينا أو أحسنَه. بيد أن الحصان، أياً كانت درجة تعلقنا به، ذو صلة وثيقة بتطور الإنسان. فمن دونه كان تاريخنا سيغدو مختلفاً تماماً.

كان الحصانُ، قبل عصر السيارة، واسطة سفر حيوية، وكان عنصراً أساسياً في الزراعة قبل الجرار. كانت الأحصنة تجر المراكب وتدير النواعير وتحمل البشر مسافات شاسعة في أوقات الحرب والسلم، عبر قاراتٍ وأراضٍ لم تولد في كنفها. وكانوا يتخلّون عنها عندما تنتهي الحروب، أو تنضبُ المواردّ، كي تنجو بجلدها ما استطاعت، وغالباً ما كانت تفعل ذلك على أفضل وجه، وتتكيَّف باستمرار مع محيطها. كما نفقَتْ بجروح السيوف والسهام والمتفجرات، وبسبب الجوع أو التعرض للشمس أو الإنهاك. ومع ذلك، فإن الأمل المعقود على الحصان يتجاوز القوة أو السرعة، وتتجلى قيمته الحقيقية في رغبته في التفاعل الأنيس مع البشر



نقش من مجموعة نباتات وحيوانات، وينكيسلاوس هولار، ١٦٦٣.

الذين يخشاهم في البدء بحكم غريزته ثم ينقاد إليهم ويتبعهم.

إن ما يقرب بيننا وبين الحصان هي مكامن التشابه والاختلاف في طبائعنا؛ ويجعل هذه الرفقة ممكنة. فالحصانُ حيوانٌ معرض للافتراس، يعوّل في أمانه على قائد القطيع إضافةً إلى مقدرته على الفرار من الخطر. في البراري، يحرس القطيعَ فحلٌ[(١)] وتقوده فرسٌ هي الأم المهيمنة. أما الحصان الأليف فلا زال يتقبل ويتطلب وجود قيادة يثق بها كما أنه بحاجة لمعرفة موقعه في القطيع. جيرمي جيمس، الخيّال والرحّالة المخضرم، اشترى خلال مسيرته حصانين من أجل رحلته من جنوب بلغاريا إلى رومانيا. ثم امتطى هذين الغريبين عليه وعلى بعضهما ومضوا عبر الجبال والأنهار، وتحت النيران في مدى رماية مدفعية الجيش، وفي إحدى المرات عبر «منطقة المشاة المستحيلة هذه... بينما القطارات تهدر في عبورها». ولكنه يقول ودلائل نجاحه واضحة، «فلتعلموا بأن العبور في مكان مثل محطة مترو بادينغتون، ساعةَ الذروة، بصحبة حصانين ليس بمزحة قط. لا تقوموا بذلك أبداً. لا أعرف لمَ لم يُقتلْ أحد، ولا أعرف لماذا قمنا بذلك». في منتصف الطريق خلال رحلتهم، وقد جنحوا في عاصفة مطرية على سفح جبلي شديد الانحدار، ضائعين وجياع في منعزلٍ لم يسلكهُ أحد في إحدى غابات

(١) حصان غير مخصي.

ترانسلفانيا، قطع لحصانيه كارو وبوشا وعداً بأنهما «لن يخافا أبداً مرة أخرى»: «وعدتُهما بأني سآخذهما إلى بيتي. وعدتُهما بأنهما لن يسيرا بعد اليوم، وبأنني سأخلع حدواتهما ليلعبا ويرعيا في الحقول الخضر التي تطل على ألوان بريكون المتغيرة، حيث الجداول تتّجه جنوباً، تحت عين الشمس»(٣).

قد لا تفهم الأحصنة ما نقول لها لكنها تفهم كيفية قولنا لها، ومتى يسعها أن تثق بنا. وعلى ذلك الأساس، فإنها تتبع الإنسان عبر النار أو في محطة مترو. على أية حال، إن قائداً متردداً أو جباناً أو شرساً لن يستثيرَ إلا حصاناً صعب المراس وربما مستاء، ويعقب ذلك تدهور مُفاجئ وبائس قِوامه انعدام الثقة والخطر ينزل بكليهما.

إننا، كبشر، نفهم هذه الغرائز المتطلعة إلى قادة نعوّل عليهم وعلاقات نثقُ بها، وفي حين إن مجتمعنا في غالبيته مبني على مفاهيم السلطة الهرمية فإن العائلة لدى البشر لا تبنى بشكل طبيعي على الهيمنة، كما صور لنا، بل تُبنى في الأساس على الثقة بحكمة الوالد وكفاءته. الأب الراعي والأم المرشدة ليسا بنموذجين بعيدين عن أطفال البشر، وإن كانت قيمنا الاجتماعية تتغير وتتبدل بمرور الزمن. إننا، في هذه النقطة، نشبه الحصان، إذ نتطلع إلى من يقودنا ويحمينا ريثما يحين وقتٌ نستطيعُ فيه أن نقود أبناءنا ونحميهم. ونقيم بين أقراننا علاقات مبنية على درجات من الثقة والألفة. وعندما نضطر إلى الخضوع من خلالَ التخويف، فإننا نغدو على الأرجح مفزوعين أو متمردين. والأحصنة مثلنا. ففي حين نجد في الفحل المهيمن صورةً تقليدية، فإن فهمنا لدور الفرس القيادي ومفهوم القائد السلبي يخلق تبدلاً ينسجم أكثر مع الفهم الحقيقي لعلاقتنا مع الحصان.

إنَّ القائد السلبي هو النموذج المرجعي المطلق ، الذي يقود على أساس الثقة والقدوة وليس بالهيمنة ، وبينما من الممكن أن يخضع الضعيف أو الخائف للقائد المهيمن إلا أن القائد السلبي ، القائد الحقيقي بكل معنى الكلمة ، فهو الذي يدفع للولاء. هذا ينطبق على كل من الإنسان والحصان.

إنها لمعجزة صغيرة أن نعثر على إمكّانية إقامة علاقة مع الحصان، مختلفة عن



«أتبع قائدي»
هو أسلوب حياة
الأحصنة البرية.

ولع الكلب الممتن أو الاستقلالية الهادئة للقطة، التي أساسها العثور على المكان الأنسب للتفاعل المتبادل لضمان السلامة المشتركة لثنائية الحصان-الإنسان في أي ظرف.

هذه العلاقة كانت ذات يوم عنصراً أساسيا للبقاء في كثير من الحضارات عبر العالم. ثم جاء الوقت الذي تلاشت فيه هذه العناصر المرهفة أمام الحرب والتجارة اللتين أصبحتا تفتقران إلى الوقت الكافي للعمل على التفاصيل الدقيقة لهذا التفاعل. فشكيمة معدنية قاسية وطوق جلدي، وإجبار بدلا من التعاون، توفر هيمنة سريعة، وبما أنّ الحصان حيوان معرض للافتراس والإنسان هو المفترس فقد تم قبول ذلك على مستويات مختلفة. إن جوانب الطبيعة البشرية الباحثة عن الهيمنة يمكن أن تجد ما يشبعها في حصان مطوق ومشكوم بقسوة وخاصرة منتفخة وأطراف نازفة. والمفارقة الغريبة هي أنه، في الوقت الذي أصبح فيه الحصان أقل حيوية لتوسعات الإنسان العصري ، عاد التعامل اللطيف معه

رسم لرأس حصان
لأنتونيو بيسانيلو حوالي
١٤٣٠-١٤٤٠



مرة أخرى وأجري في الوقت الحاضر كم هائل من البحوث من أجل فهم أعمق لحيوان يكمن جوهر طبيعته في الوداعة والهدوء الحذر، ولكنه مستعد للأنطلاق في أيةً لحظة.

إن أهمية الحصان في تاريخنا محفوظة بلغتنا عن طريق أقوال مأثورة ذات ماض عريق، لا تزال تحكي إلى يومنا هذا بلا تفكير عميق. فبينما مقولة

التحكم بالحصان كرمز لقوة الإنسان بتمثال في فوغير، بريتاني.

«shutting the door after the horse has bolted» أغلق الباب بعد فرار الحصان ذو معنى بديهي فإن مقولة «cavalier attitude» موقف فارس مشتقة من كلمة cavalier والتي تعني فارساً أو مقولة «looking a gift horse in the mouth» انظر في فم حصان أهدي إليه والتي تشير إلى عملية التحقق من عمر الحصان بتفحص أسنانه كان لها وقع مختلف فيما مضى عندما كانت هذه النشاطات جزءاً من الحياة اليومية. فالمقولة الأخيرة هي مثل لاتيني يعود لأوائل القرن الرابع أو الخامس ويظهر كيف أن صياغة الأقوال الطويلة المتّصلة بالحصان هي أمر قديم استمر عبر التاريخ وتناقلته الثقافات المختلفة. الكثير من هذه الأقوال المأثورة في يومنا هذا مجرد معان مجازية نفهمها لشهرتها وليس لكونها انعكاساً لتجربتنا. فعندما يقال لنا «عد إلى الصهوة» لا يعني ذلك مجرد التغلب على المصاعب والمحاولة من جديد وإنما تعني حرفيا امتطاء صهوة الحصان الذي أوقعك أرضاً مجدّدا قبل أن يصيبك الكلل والنفور. وهي عادة معروفة لا تزال متبعة عند تعليم المبتدئين ركوب الخيل. ففي كل مرة نستخدم فيها بمحض الصدفة مثل هذه الأقوال المأثورة نكون قد عدنا لاشعوريا إلى الزمن الذي كان فيه الحصان جزءاً أساسياً من الحياة اليومية.

تبدلت علاقتنا بالحصان بشكل كلي منذ الثورة الصناعية. فمنذ نشأة

الحضارة لعب الحصان أدواراً مختلفة، بداية كمصدر للغذاء، ثم كوسيلة لصيد أفضل. ولما أصبحت إمكانية ركوب الخيل معروفة شرعت أبواب السفر والتجارة أمام البشر بطرقٍ تجاوزنا بها حاليا، في عصر التكنولوجيا، قدرات الحصان. وعلى الرغم من ذلك لا نزال نقيس الاستطاعة الميكانيكية «بالقدرة الحصانية» وهو مصطلح استحدث في أواخر القرن الثامن عشر على يد جيمس واط صاحب الاختراعات التي أزاحت، بصورة مثير للسخرية، الحصان من المعادلة. لقد خدم الحصان كوسيلة للنقل في مناطق عدة وإلى يومنا هذا، في بلدان كأيسلندا، والقدرات الموثوقة للأحصنة المحلية بوسعها أن تجعل من ركوبها الوسيلة الآمنة والأكثر كفاءة للتنقل عبر الأراضي الوعرة.

علاوة على ذلك علاقتنا بالحصان هي لأسباب أكثر من مجرد البحث عن الراحة. فالحصان هو حيوان يمكن للإنسان أن يقيم معه علاقة تؤثر على قدرتنا على فهمه والتعامل معه. مع أنه لا يشبه في استجابته الكلب لكنه قادر على خلق علاقة وثيقة مشابهة مع سائسه المعتاد. فشعوره بالقلق وهو وحده والذي يدفعه إلى العودة إلى صحبة البشر يظهر امتلاكه روح المبادرة والقدرة على التعلم. لقد تبدلت سبل تدريب الأحصنة عبر السنوات الماضية لتعكس في أغلب الأحيان تبدلا في فهم البشر لأنفسهم أكثر منه للأحصنة.

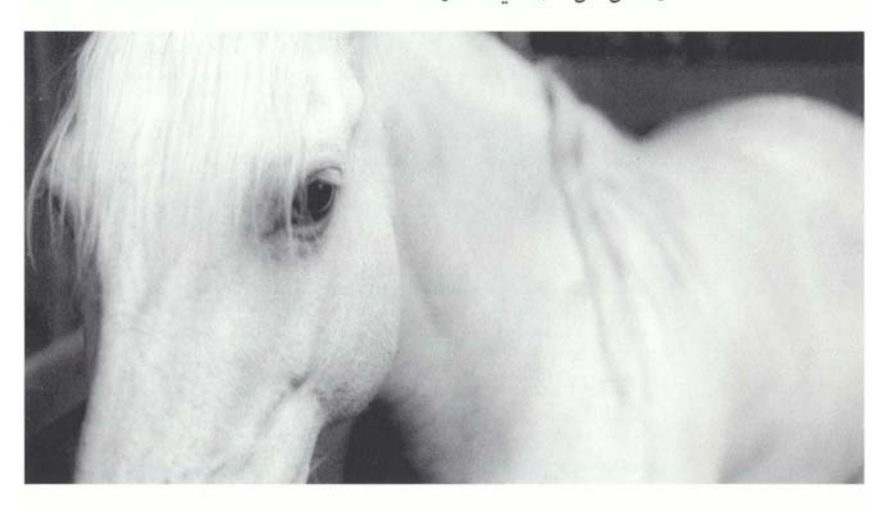
هنالك حكمة بوذية تقول «إن عقلك هو الذي يخلق هذا العالم»، وميل الإنسان إلى تغليب رؤيته الحالية على فهمه للعالم يجعل من هذا الخلق أحد التغيرات المستمرة. وما قد يبدو لأحد ساسة الخيل حصاناً متمرداً يستحق الضرب إلى أن يخضع قد يبدو لآخر حيواناً متوتراً مُعرضاً للافتراس وبحاجة إلى الطمأنينة.

تحدثت لوسي ريز عن فرسٍ توالتْ على امتطائها مجموعة من مروضي الأحصنة البرية الذين يئسوا من ترويضها واعتبروها غير قابلة للسيطرة، حيث قالت: «لقد فوجئتُ قليلاً لدى سماعي هذه القصة لأنني امتطيتها وسرت بها إلى حقل جديد وهي مزوَّدة برسن». بعد عدة أشهر من العمل على إعادة السكينة للفرس لكي لا يكون امتطاؤها بالضرورة سببا لخوفها، أعادت لوسي الفرس إلى

أصحابها ونصحتهم بضرورة أن تُمتطى بهدوء ولطف ويفضل أن تمتطيها امرأة. «فجعلوا راعي بقر يمتطيها للتأكد» وبعد ذلك «لم يمتطِها أحد مجددا»(٤).

قد يكون السائس أحيانا هو الشخص نفسه الذي تبدلت رؤيته ولكن الحصان يبقى كما هو مدفوعا بغريزته وطبعه. ومن المفارقات المتعلقة بالحصان أنه مهما اختلف المعيار التي سنستخدمه تبقى قوته أكبر بكثير من أن نتحكم فيها. فحصان مذعور يمكنه بسهولة أن يقتل إنسانا بالغا عن غير قصد وذلك بحركة مفاجئة في غير محلها لرأسه الثقيل ومع ذلك القصص التي تحكي عن حصان لم يحرك ساكنا إلى أن يلحظ أحدهم طفلا صغيراً يتعلق بقائم الحصان الخلفي، عديدة .

من خلال هذا الكتاب سأتعقب بعضا من الدروب التي لا تحصى والتي سلكها كل من الإنسان والحصان معا عبر التغيرات الثقافية والتكنولوجية وبغرض الاكتشاف والحرب والمتعة. ستكون تجربتي الطويلة مع الأحصنة هي نقطة البداية بالإضافة إلى تجارب الآخرين عبر القرون والمتمثلة بالفن والكتابة والإعلام العصري وذلك لاستكشاف السبل التي شكل بها الحصان والإنسان وتفاعل كل منهما في الأخر.



ينجذب البشر إلى الحيوانات ذات الأعين الكبيرة مثل انجذابهم إلى الأطفال. رسم لحصان لدانيل دي ميدا

١- من الحصان البدائي إلى الحصان الحديث

تنهد الحصان البري عند أقدام المرأة قائلا: «يا سيدتي ويا زوجة سيدي، سأكون خادمك لأجل هذا العشب الرائع».

روديارد كبلينغ، مجرد قصص»[١].

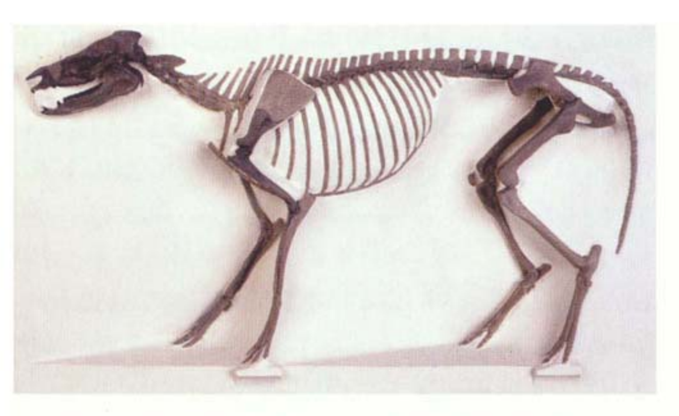
عميقا في الغابات الاستوائية الغنية لما قبل التاريخ، يشق بحوافره ذات الأظافر الطويلة الطريق بكل حذر حيوان صغير يشبه الغزال يقتات على الشجيرات الصغيرة ونبات السمار الذي ينمو على حواف برك المستنقعات. هذا المخلوق الصغير ليس سلف الحصان فحسب وإنما هو أشبه بدليل مزيف. فعندما اكتشفت بقاياه في سبعينيات القرن التاسع عشر من قبل عالم المستحاثات الأمريكي أوثنيل سي. مارش توصل إلى نتيجة مفادها أنه الحلقة المفقودة لفهم تطور الحصان الحديث.

قبل بضع سنوات وفي أربعينيات القرن التاسع عشر تم العثور على بقايا أحفورية من الجنس نفسه في لندن من قبل السير ريتشارد أوين، والذي أطلق عليها اسم الهيراكوثيريوم Hyracotherium وهو الاسم الذي يعتبر اليوم الأكثر دقة والأقل تضليلا. ولكن مع اكتشاف مستحاثات للحصان في أمريكا، والتي كانت تعتبر لفترة طويلة خالية من أي سلالة أحصنة محلية، تمت إعادة تسمية هذا الكائن مرة أخرى حيث أطلق عليه اسم الإيوهيبوس Eohippus أو(حصان الفجر)، مع أن رومانسية كهذه قد تتسبب بسوء فهم.

أولاً في أن الإيوهيبوس حصان قديم، بينما في الحقيقة هو أيضا سلف للعديد من الحيوانات الأخرى كالتابير والكركدنيات، وثانياً في أنه ليس قديماً فحسب بل ونموذج بدائي وغير مكتمل للحصان كما نعرفه اليوم، وكأنه

---

(١) مجموعة قصصية للأطفال صدرت بالعربية تحت اسم «دموع التماسيح».

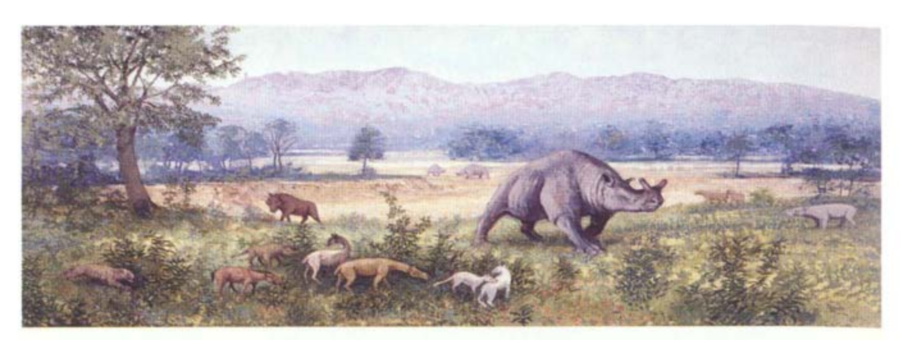


هيكل عظمي للهيراكوثيريوم.

إحدى مراحل عمل لم يكتمل بعد. الحصان الذي نعرفه اليوم ما كان لينجو وسط المستنقعات الاستوائية خلال الزمن الإيوسيني، أما الهيراكوثيريوم فقد كان مناسبا تماما لعصره، ولم تطرأ عليه سوى تغيرات طفيفة خلال ال ٢٠ مليون سنة.

لقد كانت له قوائم قابلة للثني والدوران مما يسمح بمجال واسع من الحركة، وقد تطورت لتلائم بيئة ذات تربة غضة، ولها أربعة أصابع في كل حافر أمامي، وثلاثة أصابع في كل قائم خلفي. كما أنها لا تسير على حوافر، وإنما على أظافر قوية وكعب على شكل وسادة قاسية. ويعتقد بأن البقايا اللا وظيفية لهذه الوسادة موجودة لدى الحصان الحالي على شكل نتوء قاس صغير في أعلى الكاحل، ومن مواد مماثلة لطبيعة الحافر. وله دماغ صغير وعينان في مقدمة الرأس وليس على الجانب كما في الحصان مما يظهر بأنه كان يحتاج لرؤية أمامية أكثر منها محيطية، بما يتناسب مع بيئته الكثيفة والمحمية، كما أن اكتساءه بنقش من البقع ذات اللون المختلف يوفر نوعا من التمويه وسط ظلال الأوراق النباتية المنتشرة في موطنها.

عثر على الهيكل العظمي للهيراكوثيريوم في كل من أمريكا وأوروبا، ويعتقد بأن حجمه يتراوح من ٢٥ سم ليصل إلى حوالي ضعفي ذلك عند الكتفين ، كما أن له وبشكل مشابه تنوعا واسعا في الشكل والحجم عبر



صورة تخيلية لفنان تصور العالم الذي كان يعيش فيه الميزوهيبوس.

مناطق انتشاره. ويبدو أنه انتشر على الأغلب من خلال الجسور الأرضية التي كانت تربط قارات أمريكا وآسيا وأوروبا، وبقي على هذا المستوى من التطور بضعة ملايين من السنين. عند مقارنتنا للحيوانات من فترة ما قبل التاريخ مع تلك المعروفة في يومنا هذا، من السهل أن ننسى بأن نظرية التطور لا تفترض الحركة بخط مستقيم لأي تشكل عضوي نحو نهاية مثالية. وفي حين أنه يمكن اعتبار التغييرات التي تحدث عبر آلاف السنين تطوراً، إلا أن هذا لا يعني بأن الشكل الأصلي لم يكن مثاليا، وإنما يقدم دليلا على القدرة على التكيف التي ضمنت نجاة فروع معينة من الفصيلة وهلاك أخرى.

في منتصف الرحلة الطويلة بين الهيراكوثيريوم والإيكوس[١] ذي الحافر خلال الزمن الأوليغوسيني ظهر الميزوهيبوس[٢] نتيجة لعشرين مليون سنة من تطور كل من الأوروهيبوس[٣] والإيبيهيبوس[٤]. كان الميزوهيبوس ، الذي لا يزال حجمه صغيرا ٤٥ سم ولكن بدأت تظهر لديه أسنان يمكنها التعامل مع تشكيلة أكبر بكثير من الأوراق النباتية، وقوائم يمكنها التعامل مع تضاريس أكثر مشقة وتنوعا، هو الرد الطبيعي على المناخ الآخذ بالبرودة.

(١) Equus جنس الحصان ضمن فصيلة الخيليات.

(٢) Mesohippus من اليونانية وتعني الحصان الأوسط.

(٣) Orohippus من اليونانية وتعني حصان الجبل.

(٤) Epihippus من اليونانية وتعني ما قبل الحصان.

ومع انتشار المروج الكثيفة على سطح الأرض المتغيرة، واحتلالها مكان الغابات المتقهقرة، أضحت أسنان هذا الحيوان أكبر وأمتن. أيضاً، كانت القوائم الأطول توحي بأن السرعة الأعلى أصبحت مهمة، كذلك مع الأسنان الأطول ظهرت جمجمة أكبر برؤية أكثر جانبية تكيفت مع الوسط الأكثر انفتاحا الذي يعيش فيه. وتدريجيا تحول الميزوهيبوس من مخلوق موطنه الغابة ويعتمد على التمويه في سلامته، إلى حيوانٍ منطلِق، سرعته ورشاقته هما أفضل وسائله الدفاعية.

ومع التحول التدريجي لمناخ الأرض نحو الاعتدال خلال ملايين السنين القادمة، ازداد المخلوق الصغير طولاً، وتراجعت أصابعه بحيث أصبح يركز وزنه على الإصبع الأوسط مما وسع من تباعد خطواته، كما أصبحت أسنانه تشبه بشكل أكبر تلك التي عند حيوانات الرعي. وتداخل وجود الميوهيبوس[1] مع الميزوهيبوس لحوالي ٤ ملايين عام وبينت الدلائل الأحفورية بأن الأنواع المختلفة وتلك المنشقة عن الميزوهيبوس قد تعايشت معاً. وهذه الفصائل من الحيوانات المتقاربة يطلق عليها علماء المستحاثات اسم «مجموعة وحيدة الأصل»، تبين تنوع الأنواع من أجل الاستفادة من التغيرات المتعددة في محيطها. هذا يعني أنه وبينما تقوم على الأغلب بإتباع الاتجاه العام، كما هو في مثال الميزوهيبوس وفصيلته التي تحلت بدماغ أكبر من معظم الحيوانات العاشبة، فإنها تطور كذلك صفات ذات استخدام خاص يتناسب مع مناطق تواجدها والمناخ السائد فيها. لكن من سلبيات ذلك الوضع، أنه لدى حدوث تبدل في تلك الشروط الخاصة، فإن فرعا كاملا من الفصيلة قد يفنى بشكل مفاجئ تماماً. أما الذين ينجون فلأنهم بكل بساطة وُجِدوا في المكان والزمان المناسبين على الأغلب وليس لأنهم يمتلكون صفات راجحة.

على الرغم من أن النظرة البسيطة قد توحي بأن الحصان قد تطور من حيوان صغير إلى آخر كبير، إلا أن علماء المستحاثات قد وجدوا بأن الأنواع

(١) Miohippus من اليونانية وتعني الحصان الصغير.



رسوم جدارية في كهف تبين صيادين من الهنود الحمر، كريك، يوتاه.

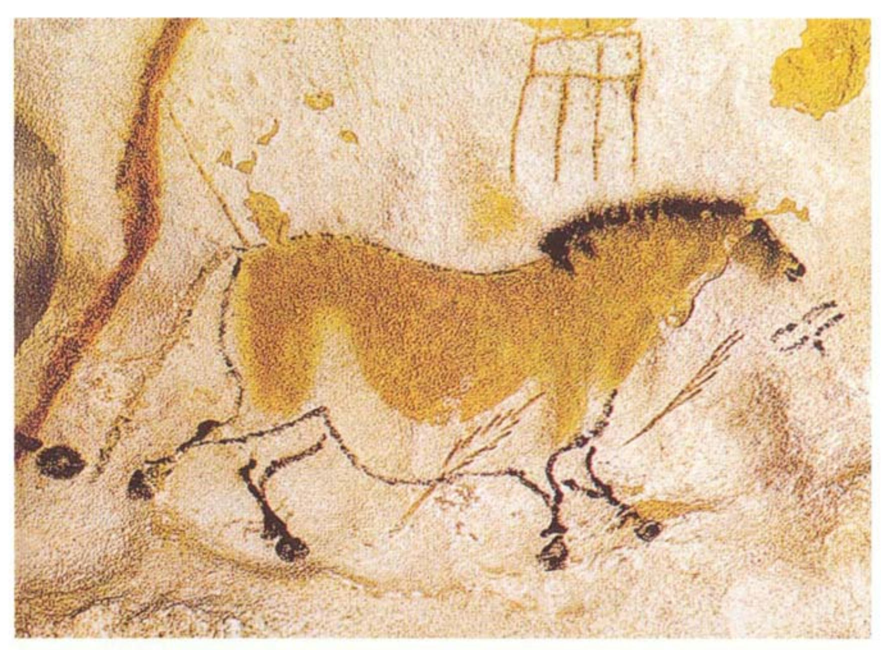
المختلفة تنمو بأحجام متنوعة أكبر أو أصغر من أسلافها مدفوعة مجدداً بقدرتها على البقاء والتكيف. في كتابه «سر التطور العظيم» توصل غوردون راتراي تايلور إلى:

«إن السلالة الممتدة من الإيوهيبوس وحتى الإيكوس غير منتظمة إلى حد بعيد. فقد زُعِم بأنها تظهر التعاظم المستمر في الحجم، لكن الحقيقة هي أن بعض الأنواع المشتقة لم تكن أكبر من الإيوهيبوس بل أصغر. يمكننا أن نأتي بأمثلة من مصادر مختلفة ونجمعها في سلسلة تبدو مقنعة شكليا ولكن لا يوجد في الواقع أية دليل على أنها انتظمت بهذا الترتيب الزمني».(٥)

لذلك وعلى الرغم من اعتقاد أوثنيل مارش بأن «مسار السلالة التي انحدر منها الحصان مباشر على ما يبدو»(٦) قد قُدم كحقيقة لحوالي قرن من الزمان، إلا أنه أصبح من المسلم به اليوم أن المشهد التطوري أكثر تعقيداً بكثير.

قبل حوالي ٦ ملايين عاماً مضت ونتيجة لتغيرات في الأسنان وحجم الجسم وطول القوائم وبنية الوجه ظهرتْ في الحقبة الميوسينية[1]؛ نتجتْ حيوانات شبيهة بالبغل أصبح ، ليس فقط الأصل الوحيد للحصان

(١) في الواقع الميوسينية (٢٣ – ٥,٣ مليون سنة قبل الحاضر) هي زمن (Epoch) ضمن الحقبة الكينوزوية.



رسم من العصر الحجري القديم في لاسكو، فرنسا.

الحالي، وإنما أصل كل من الحمار والحمار الوحشي بكل تنوعاتهما أيضاً. وبعد نجاح امتدّ بضعة ملايين من السنين بالنسبة إلى العديد من الأنواع ثلاثية الأصابع الراعية في السهول، طورت السلالة التي تنتهي إلى الحصان الحالي بنية من الأربطة الجانبية الداعمة للإصبع الأوسط، والتي حلت في النهاية محل الإصبعين الآخرين. هذا التغيير نحو إصبع واحد قاس مع وتر الذي يسمح بتجميع وتحرير الطاقة خلال الحركة السريعة، يعني بأن البليوهيبوس[١] بالإضافة لكل من الأستروهيبوس[٢] والدينوهيبوس[٣] ذا الاسمين الرائعين كانا أول أقرباء حقيقيين للإيكوس الجنس الذي يضم

(١) Pliohippus من اليونانية وتعني الأكثر شبها بالحصان.

(٢) Astrohippus من اليونانية وتعني الحصان النجمي.

(٣) Dinohippus من اليونانية وتعني الحصان الرهيب.

جميع الأنواع الحديثة.

يعتقد بأن أول إيكوس كابالوس Equus caballus، سلف الحصان الحالي، قد انحدر من البليوهيبوس قبل حوالي مليون عام أي منذ وقت قريب نسبيا.[١] ويعتبر ذلك تطورا سريعا بالمقارنة مع معدل حدوث التغييرات خلال الخمسين مليون سنة السابقة. انتهت آخر فترة امتداد جليدي قبل حوالي ١٠ آلاف سنة، ومع تراجع العصر الجليدي الأخير أخذت أنواع من الإيكوس أكثر تميزا بتوطيد نفسها: الأحصنة في أوروبا وغرب آسيا، الحمير والحمير الوحشية في شمال وجنوب إفريقيا والأخدر في الشرق الأوسط. مع أنه من المقبول عموما الحديث عن أن الأحصنة قد أحضرت إلى أمريكا في القرن السادس عشر من قبل الغزاة الإسبان، إلا أن أسلافها جابت القارة طولا وعرضا إلى أن انقرضت تماماً قبل حوالي ٨ آلاف عام لأسباب غير مفهومة تماما. ومن الاحتمالات التي عرضت: تغيرات مناخية، أو تراجعاً حاداً في الغذاء، أو حيوانات مفترسة. إلا أن هنالك رأياً آخر لو صح، لكان ربما أشبه بنذير شؤم على الحصان. تشير الكشوف الأثرية لمواقع طبخ من عصر ما قبل التاريخ عن كون الحصان جزءاً مهماً من

البنية الممتلئة لهذا الحصان تدل على المسيرة المهنية الناجحة لفارسه، موظف يرتدي معطفا أحمر في رسم بالحبر الملون لزهاو مينغفو حوالي ١٢٩٦.



النظام الغذائي للإنسان. مما عزز الرأي القائل بوقع الافتراس البشري على تعداد الأحصنة الأولى. وتشير الأدلة الأثرية إلى اختفاء الأحصنة وغيرها من الحيوانات التي تتجمع ضمن قطعان ومن ضمنها الجمال خلال الألفي سنة الأولى من قدوم الإنسان إلى أمريكا الشمالية. عالم الآثار والبيئة بول مارتين توصل إلى أن « هذا الانقراض تم زمنيا بعد العصر الجليدي، وقد طال بشكل أساسي الحيوانات الأكبر حجماً. فالعامل الرئيسي المعزول كمسبب هو ظهور الإنسان»(٧).

إن الانتشار الواسع للأحصنة الأولى، والأسلوب الذي مكنها دائما من البقاء والاستمرار عن طريق التكيف مع بيئتها، يتحملان جزئيا الأثر الذي طبعته تلك الأحصنة على تطور الإنسان. يمكن مشاهدة ذلك بأبسط مستوياته من خلال مراقبة أي حصان حديث. هنالك نزعة اليوم لتقديم دثار ومأوى شتوي للأحصنة، مما يجعلها أكثر راحة، ولكنه يثبط من قدرتها الطبيعية على التكيف.

وإذا تركت الأحصنة على سجيتها سينمو لها كساء شتوي في مناطق معينة، ويسقط عن مناطق أخرى، وسيهلك العديد منها حتما في البرد القارس أو في أوقات شح الغذاء. ولذلك مع تطور الحصان أصبح بقاؤه معتمدا على قوته ومقاومته.

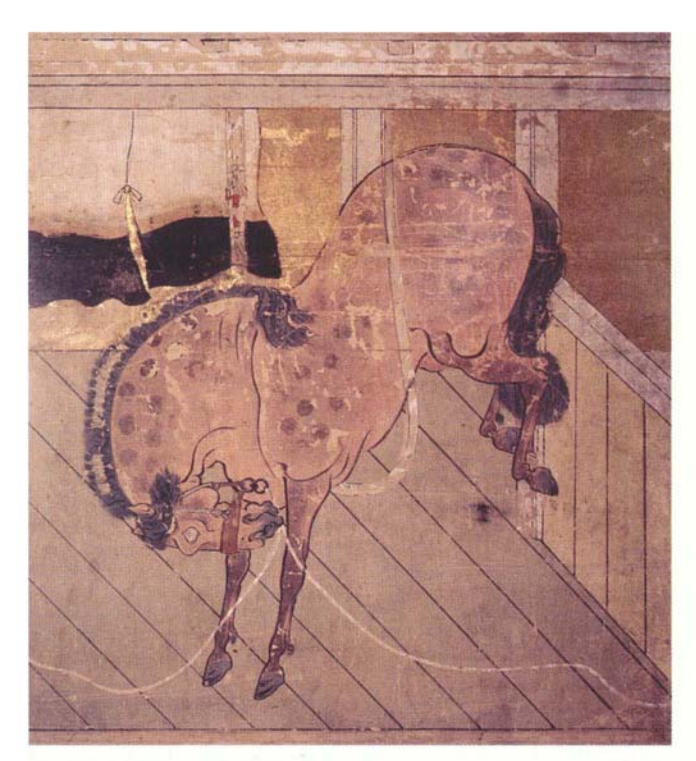
غالبا ما تشق الحيوانات التي تستطيع التكيف والتغلب على الصعاب طريقها بسهولة عبر السنين مطورةً صفات جوهرية تحدد مستقبلها. وقد تطورت أنواع مختلفة من الأحصنة لتلائم المناخ السائد في موطنها. لذلك فإن الأحصنة في المناطق الحارة والجافة طورت أطرافا نحيلة وجلدا رقيقا تكثر على سطحه الأوردة لتساعد في عملية التبريد. أما في المناطق الباردة فقد تطورت الأحصنة لتكون صغيرة وصلبة القوام مكتسية بوبر يصبح كثيفا بسهولة في الشتاء، وبقوائم طورت شعرا طويلا يعرف «بالريش» وخاصة حول النتوء الذي يعلو الكاحل، وحول العقب ليعزل عنها الماء.

تظهر أحيانا أحصنة مرقطة ضمن الأنواع العديدة، فعلى سبيل المثال

أحصنة مرقطة وطريدة في سجادة على النمط الفارسي من القرن السابع عشر ، الهند.



يمكن مشاهدتها في صور لها قدم الرسومات الجدارية في كهف بيتش- ميرل في جنوب فرنسا، والتي تعود لحوالي عام ٢٠٠٠٠ ق.م. وكذلك في قبور إيتروسكان في إيطاليا ومواقع الدفن في هالشتات في النمسا، والتي تعود لحوالي عام ٨٠٠ ق.م. كما يمكن رؤيتها في النقوش التي تزين أسلحة شعب السلت في شمال أوروبا، والفرسان الرحل في سهول جنوب غرب روسيا. كما ظهرت أيضا في الأساطير كتلك التي تتحدث عن البطل الفارسي رستم والذي غالبا ما يصور حصانه رخش على أنه مرقط ببقع حمراء، وهو شائع بشكل كبير في الفنين الفارسي والمغولي القديمين. ومنذ القرن الخامس عشر أصبحت التربية الاصطفائية للأحصنة المرقطة سائدة في العديد من الثقافات المختلفة، ومن أشهرها كنابستروب الدنماركي والأبالوسا في قبيلة نيز بيرسيه في شمال شرق أمريكا، وكلاهما انحدر من سلالات إسبانية



حصان ياباني مرقط من القرن السادس عشر يحاول شق طريقه إلى خارج الإسطبل. لاحظ حزام السرج المتدلي من سقف الإسطبل ليمنحه بعضا من الراحة في الحركة.

قديمة. فبينما تطورت هذه إلى سلالات محددة بوضوح، نجد أن جينات الترقيط تظهر هنا وهناك عبر الزمان والمكان لتذكر بأن الأحصنة كالناس لديها أجداد مشتركين، وقد فصلت بالأصل بواسطة الزمن والمسافة أكثر منه بواسطة الدم.

إن ميل الإنسان إلى النظام والوثوقية قاد نحو التربية الاصطفائية، لكن المواد الخام التي كان على البشر أن يتعاملوا معها، كانت في الأساس مرسخة ضمن أنواع محددة تتلاءم مع البيئة التي تعيش فيها. إن معظم أجداد سلالة الحصان الحديث قد استمرت في التكون نتيجة تدخل الإنسان، ولكنها رسخت بفضل إحدى الصفات الرئيسة التي تجعل من الحصان حيوانا



مهر الجبال الويلزي الذي لديه ماض طويل وشعبية حديثة.

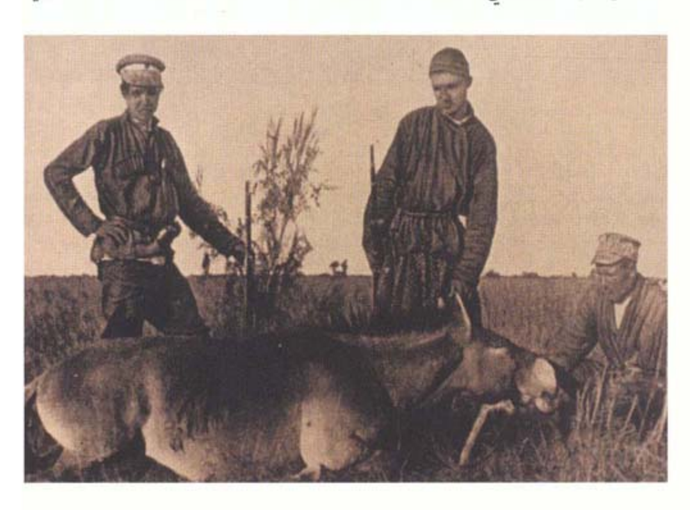
مرغوبا به للاستعمال الأليف في المقام الأول: إنها قدرته على التكيف مع الشروط المتغيرة لضمان بقائه. وبينما نجد العديد من الأمثلة الواضحة عن هذه النزعة للتكيف في يومنا هذا، يعتبر العديد من الأحصنة من الحيوانات المحلية في منطقة معينة على الرغم من كونها نتاج نظام تربية منظم قد يعود أحيانا إلى عدة قرون. مع أن ذلك مبني على تعزيز وتطوير الصفات الطبيعية الخاصة، والمطورة أصلا للتغلب على مناخ أو منطقة محددين. يمكننا أن نرى مثالا مفيدا في مهر الجبال الويلزي، والذي يعتقد بأنه جاب أراضي ويلز الوعرة قبل قدوم الرومان. إنه صغير وذكي وذو قدرة على التحمل، وقد تطور ليتمكن من البقاء على الغذاء البسيط، وعلى المناطق الجبلية الخطرة والوعرة، وفي الطقس شديد البرودة. تبدو مسحة ظاهرة على دمائه العربية تتبدى في بهاء وجمال رأسه وشكل أذنيه التي تعود إلى أيام الاحتلال الروماني عندما جلبت الخيول العربية إلى ويلز من معسكرات الرومان في أفريقيا. وقد أثبت تاريخ طويل من استخداماته المتعددة، من حمال للأمتعة

الأخوان غروم-غرزيمايلو مع أحد آخر أحصنة برزيفالسكي البرية.

إلى العمل في مناجم الفحم وصولا إلى مهر لركوب الأطفال في يومنا هذا، أن جميع هذه الاستخدامات اشتقت من صفاته الأساسية المصقولة منذ زمن بعيد ضمن البيئة التي يعيش فيها.

إنَّ العديد من الأحصنة التي توصف اليوم على أنها برية هي في الواقع أحصنة غير مروضة تنحدر من قطعان أليفة فارة أو متروكة مثل الموستانغ الأمريكي والبرومبي الأسترالي. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الأحصنة تُظهر القدرة نفسها على التكييف التي مكنتها من البقاء من دون الحماية التي يمنحها الاستئناس مطورة القدرة على الازدهار في ظروف رديئة لتنمو مكتسبة القوة والقدرة على المقاومة. إن ظهور العديد من الأمراض المرتبطة بالاستئناس كالتهاب الصفيحة في قوائم الحصان، وهو مرض استقلابي شبيه بداء المفاصل عند الإنسان، يوحي بأن نمط الحياة المدلل للعديد من الأحصنة الحديثة المتوفر على المراعي والغذاء الغني بالطاقة، قد يكون موضع نزاع مع طبيعتها كناجية وقادرة على البقاء.

لم ينجُ غير نوع واحد فقط من الأحصنة البرية الأصيلة، وهو الإيكوس فيروس برزيفالسكي Equus ferus prezewalskii الحصان البري



الآسيوي أو المنغولي الذي أعيد اكتشافه في أواخر القرن التاسع عشر. والمعروف عموما بحصان برزيفالسكي نسبة لمساح الأراضي وعالم الطبيعية في الجيش الروسي العقيد نيكولاي برزيفالسكي، الذي اكتشف موقع آخر قطعان الأحصنة البرية في عام ١٨٧٩ . جابت هذه القطعان والمعروفة محليا باسم تاكي منطقة تاتشين شاه، جبال الحصان الأصفر، على تخوم صحراء غوبي. وعلى الرغم من أن هذه الأحصنة البرية كانت معروفة في المنطقة من قبل، لكن الاعتقاد كان ساريا بأنها قد هلكت أو تم اصطيادها للطعام والجلد من قبل الشعب القرغيزي إلى أن انقرضت. وقد ُاكتشفت حيوانات أخرى من قبل شراكة صيد بين أخوين هما الأخوان غروم-غرزيمايلو، ومع توافر الإدراك بأن هذه القطعان الصغيرة قد استطاعت النجاة،ُقدمت مساع لإنقاذ هذه الحلقة الأخيرة الناجية التي تربط الحصان المستأنس بماضيه البري.

وبينما كان الاحتفاظ بحيوانات نادرة دارج لدى نخبة أوروبا، أبدى متحف الحيوان التابع لأكاديمية العلوم في سانت بطرسبرغ اهتماما خاصا بأنواع الحصان التي يمكن تحديدها على أنها برية أصيلة. كما اهتم أيضا بالحافظين[1]—الجامعين، وأبرزهم فريدريخ فون فالتس-فاين بارون أسكانيا-نوفا في جنوب روسيا، وهيربراند دوق بيدفورد في وبورن أبي في إنكلترا، واللذان كانا يمتلكان محميات طبيعية في عزبتهم الخاصة.

بين العامين ١٨٩٧ و ١٩٠٢ انطلقت العديد من البعثات الاستكشافية لأسر أفراد من القطعان الباقية بغرض التربية. وخلال أنجح تلك الحملات التي كانت بمبادرة من فالتس- فاين في عام ١٩٠١، تم أسر ٥٢ مهراً بواسطة «الأراك»، وهي عصا طويلة في نهايتها أنشوطة، حيث كانت تتم مطاردتها بواسطة أحصنة أسرع، وعزلها عن أمهاتها وعن الفحل القائد، ومن المفارقات أنه كان يطلق عليه النار لتسهيل عملية الأسر. لم يكن مسموحاً للبعثة

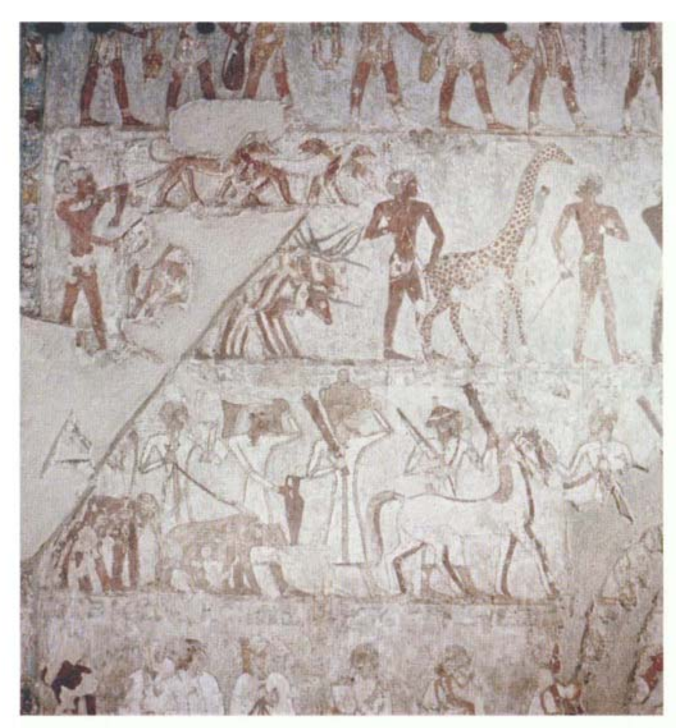
(١) Conservationist وهو المنتمي إلى حركة المحافظة conservation movement وهي حركة سياسية واجتماعية ظهرت، في القرن التاسع عشر، تحاول حماية الموارد الطبيعية من نباتات وحيوانات بالإضافة إلى بيئتها الطبيعية للمستقبل.

بكل هذا الصيد الكبير، كما أنهم لم يستطيعوا إطعامها جميعا، لذلك لم يصل لأوروبا على قيد الحياة سوى ٢٦ منها، قاطعة سيرا على الأقدام مسافة ٥٠ يوماً ليسافروا بعدها بالقطار وليشحنوا مع أفراس مستأنسة لتكون بمثابة أمهات لهم بالإرضاع.

وكان قد نشأ خلاف عندما فوض كارل هاغينبيك، تاجر حيوانات معروف من هامبورغ، ببيع الأمهار لدوق بيدفورد أمام ناظري البارون فون فالتس- فاين على الرغم من وجود تفسيرات متضاربة عن كيفية حصول ذلك. بعد هذه البداية الصعبة قامت بعثتين أخريين في عامي ١٩٠٢ و١٩٠٣ بأسر أحصنة أخرى عديدة، وخلال السنوات العشر التالية بيعت الحيوانات الناجية لحدائق الحيوان، والحدائق الخاصة في أوروبا وأمريكا. كانت الرحلة من موطنها الأصلي إلى موطنها الجديد شاقة، وقد تم رفض استلام زوج منها من قبل حديقة الحيوانات في نيويورك نظراً لحالتها المزرية. كما واجه هاغينبيك صعوبة جمة في العثور على مشترٍ لأحد الأحصنة، وعندما تدبر أمر ذلك كان الحصان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره. وتمت بعدها بضع عمليات أسر ليصبح بعدها حصان برزيفالسكي متأصلاً في الأسرِ أكثر منه في البرية، لذلك برزت في عام ١٩٦٩ مخاوف من أن تهلك جميعها في موطنها الأصلي. كما أثرت مشاكل كزواج الأقارب، وأخرى متعلقة بالحياة في الأسر على الجماعات الموجودة في الأسر، لذلك أنشئت في عام ١٩٧٧ مؤسسة وقاية وحماية حصان برزيفالسكي، وأطلقت كتابا للأنساب لكي تتابع عمليات التربية، وللعمل على إعادة دمج الأحصنة في الحياة البرية. وحتى عام ١٩٩٨ بلغ عدد أحصنة برزيفالسكي التي عادت للعيش في سهولها الأصلية، ٦٠ حصانا موجودة ضمن محمية طبيعية أنشئت لحمايتها.

يملك حصان برزيفالسكي ٦٦ صبغيا، وهي أكثر من الـ ٦٤ صبغيا الموجودة لدى الحصان المستأنس، ولم يؤثر اتصاله بالبشر على مقاومته على الرغم من وجوده في الأسر. فهو مثل الحمار الوحشي لديه ميول عدوانية غير

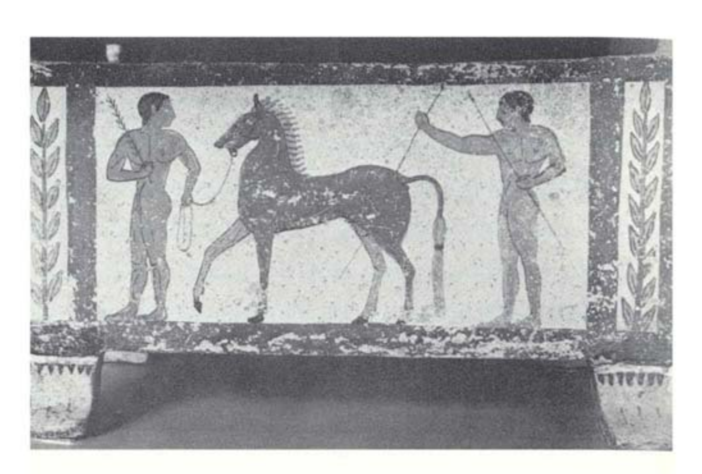




كنز الأم: أحصنة، وزرافات، وكلاب وغيرها من الحيوانات قدمت كدليل ولاء لإمبراطور مصر ريخميرع من قبل سفيري النوبة وسوريا حوالي ١٤٢٥ ق.م.

مألوفة لدى الإيكوس كابالوس من دون استفزاز بالغ. لذلك فمن المرجح أنه ليس الأصل المباشر للسلالات الحديثة، بل هو نوع منفصل ذو قرابة. فمن حيث الشكل هي شبيهة جدا بصور الأحصنة المأسورة التي تظهر في أولى الرسوم الجدارية في الكهوف.

لا تختلف الأحصنة البرية وغير المروضة والمستأنسة فقط في مسألة انتمائها أو عدم انتمائها للبشر. فعندما يصبح الحيوان البري مستأنسا مرة، فإنه يتغير عبر الأجيال كما يتغير مالكوه من البشر نظراً للعلاقة المشتركة بينهما. والعامل الأساسي الذي يحدد مدى ملاءمة حيوان ما للاستئناس هو رغبته في التكاثر في الأسر وقدرته على التفاعل بسهولة مع البشر، وعادة



ما يكون ذلك من خلال الروتين وقبول الإنسان كقائد. إن الرغبة في قبول كل محاسن الاستئناس، ورفض الانصياع لأي قيادة غير قيادتها، هو ما جعل من تدريب القطة أمراً أصعب بكثير من تدريب الكلب أو الحصان وكلاهما من الحيوانات الاعتمادية. فغرائز الحصان هي غرائز حيوان معرض للافتراس، وردود فعله السريعة نحو أي خطر هي الأقوى، ولا عجب في أن يعتبرها البشر الأكثر مدعاة للقلق في حالة الاستئناس. لا يبدي الحصان بشكل طبيعي ردود فعل جيدة تجاه تطويقه بإحكام، والاقتراب منه بأجسام مجهولة كبيرة وذات ضوضاء مزعجة أو دفعه إلى حمل شيء على ظهره أو تقييد قوائمه. إذ توحي له جميع هذه الحالات بأنه في حضرة وحش مفترس، ومع ذلك فقد رُوِّضَ وتعلَّم أن يبقى ساكناً، وأن يتواجد ضمن حركة السير، وأن يُمتَطى وأن يسمح بالتعامل مع قوائمه عند فحصها الدوري. لم يقبل هذا السلوك الضاري فحسب بل قَبِلَ بالقيام بذلك من دون أية مخاوف على الإطلاق اعتمادا على خبرته السابقة وشخصيته الفردية.

إنَّ قدرته على التكيف من ناحية، ومن ناحية أخرى بنيته الاجتماعية الطبيعية هما اللتان جعلتا الحصان مناسبا للاستئناس.

لم يستأنس إلا عدد قليل نسبيا من الحيوانات، وبينما كانت التجارب

لامتطاء الحمار الوحشي والأحصنة الهجينة غالبا ما تسفر عن سقف معين من النجاح، إلا أن عنصر المفاجأة بقي حاضراً على الدوام. إنَّ الحصان الأليف يُستأنس منذ زمن بعيد، ويحدث ذلك فرقا كبيرا على أدنى مستوى. ويمكننا تخمين كيفية حدوث ذلك في المقام الأول من خلال الفهم العام للحصان في يومنا هذا.

يميل الحصان كحيوان يتجمع في قطعان، إلى البحث عن الأمان عبر التجمع بأعداد كبيرة وإتباع قائد واثق. ومع أن غرائزها تدفعها للنظر إلى الإنسان على أنه مفترس، إلا أنه من الممكن بعد مدة من الزمن في حال لم تطارد، أن تبدأ بالبحث عن الأمان في مراكز الاستيطان البشري التي تُبعد عنها باقي الحيوانات المفترسة. وعلى الأرجح فقد لعب كلٌ من الفصول

حصان منمق من لوحة صينية حوالي ٥٣٥-٥٥٦.



الطبيعي وحب الاختلاط الاجتماعي لدى كلا الطرفين دورا في الحث على إحداث تغيير في العلاقة بين الحصان والإنسان. وما أن رُوِّضَت الخيول وامتُطِيَت وسِيقَت حتى تغير مستقبل الطرفين بشكل لا رجعة عنه. فمع أحصنة الركوب والتحميل أصبح السفر أقل وطأة، وقد وفرت أحصنة الجر قوة كبيرة للقطر أو التحميل، كذلك البحث عن مناطق وموارد جديدة والقدرة على الهروب من المخاطر، إضافة إلى كونه مصدرا جاهزا للجلد واللحم والحليب والروث الذي يستعمل كمادة بناء ويحرق كوقود؛ كل ذلك بات متوفرا على الفور حالما أصبح الحصان حيواناً مستأنساً.

توحي المخازن الضخمة للعظام في مواقع كسولتور ولاسكو في فرنسا إلى أن الحصان كان في بادئ الأمر مجرد مصدر للحم ومواد إضافية مفيدة، كالعظام والجلد. إلا أن خصالاً كالسرعة والقوة أتاحت في النهاية المزيد من الاستعمالات للإنسان مما كان لها أثر في الاحتفاظ والتربية والتعامل مع الحصان. الرسومات الأولى كالموجودة في سانتاندير في إسبانيا والتي تعود إلى عام ١٣٠٠٠ ق.م، تظهر صيد الحصان. والصيد الناجح يحتاج إلى فهم لطبيعة الحيوان. وقد جاءت أولى محاولات استئناس الحصان عند محاولة فهم طبيعته عبر الصيد.

على الرغم من ذلك لم يكن الحصان من بين أوائل الحيوانات المستأنسة، وإنما هي الخراف والأبقار الزراعية، التي كانت قد ترسخت علاقتها مع الكلب بشكل جيد بحلول عام ٤٠٠٠ ق.م. وهو الوقت الذي عرف فيه استئناس الحصان. وكان حيوان الرنة يستعمل لسحب الزلاجات في شمال أوروبا، ومن المحتمل أنها امتطيت أيضا وذلك بحلول عام ٥٠٠٠ ق.م. واستخدمت الأبقار كحيوانات سحب قبل الأحصنة. على الرغم من ذلك فإنه حالما تم إدراك القدرة الكامنة في الحصان، انتشرت عملية استئناسه غربا من السهول العشبية لآسيا الوسطى إلى وسط وغرب أوروبا والقوقاز، ومن ثم إلى شبه الجزيرة العربية والصين. وخلافاً للرنة يعتبر الحصان حيواناً غير مهاجر؛ لذا يمكنه أن ينتقل إلى أي مكان يختاره مالكه الرحال. وخلافاً

للبقر فإن سرعته كبيرة. وخلافا للجمل هو محب للاختلاط الاجتماعي.

وبينما كان استئناس العديد من الحيوانات ناجحا، كان الحصان هو الذي قدَّمَ خلال الـ ٤٠٠٠ سنة التالية، السرعة والقوة والذكاء الكافية لكي يبنى عليها انتشار الحضارة الإنسانية. وعلى الرغم من ذلك، فإن مثل هذه الخواص بحاجة إلى أسلوب تعامل مختلف عما هو مناسب للأبقار أو الخراف، فالحصان لا يقدر نمط علاقة القطيع التي يتجاوب معها الكلب.

من أجل هذا العشب الرائع وعدته ثلاث مرات في اليوم، حصان كيبلينغ البري «حنى رأسه البري وسارعت المرأة لإلباسه الرسن الجلدي المجدول وجعلته ينساب عليه»(٨). من غير المرجح أن يكون الحصان الأول المستأنس قد التزم بما اتفق عليه بمنتهى الهدوء وعن طيب خاطر، ولكنه سيعرف فيما بعد محاسن ذلك، والتي بكل تأكيد تعلو على مساوئه. وبالعودة للاستئناس نجد أن الحصان قد فقد حريته، ولكنه فقد أيضا القلق الدائم الذي يصاحب الحيوان المعرض للافتراس، والتنقل الشاق من مرعى إلى آخر، ورؤية صغاره يتضورون جوعا حتى الموت خلال الشتاء القاسي، أو أن يترك خلف القطيع لكي يفتَرَس وهو حي بسبب إصابته.

تقدِّر الأحصنة الأمان، وفي حال استطاع الإنسان أن يوفر لها ذلك مع الغذاء الوفير، فإن احتمال حدوث شراكة طوعية سيتعاظم.

تشير الأدلة الأثرية إلى أن استئناس الحصان قد حدث في أماكن عديدة وفي أوقات مختلفة وليس في مكان واحد أثر على الباقين فيما بعد. في عام ١٩٩٣ ومن خلال تعاون مشترك بين متحف كارنيغيه للتاريخ الطبيعي وجامعة شمال كازاخستان ومتحف تاريخ شمال كازاخستان، بدأ التنقيب عن مستوطنة تقع على نهر إيمان-بورلوك وتعود للفترة بين عامي ٣٦٠٠-٢٣٠٠ ق.م. والمعروفة باسم بوتاي، حيث كشفت المستوطنة عن ثقافة تحتل فيها الأحصنة مكانة مركزية كمصدر للغذاء ولكن من المحتمل أن يكونوا قد استؤنسوا أيضا. وتتضمن اللُقى الأثرية أجزاءً للجام، وبقايا هياكل عظمية للأحصنة تظهر آثار تآكل على أسنانها، مما يدعم هذه النظرية بالإضافة إلى

أدلة لوجود بقايا الأحصنة خارج نطاق تواجدها الطبيعي وخصائص تتعلق بالحجم والأبعاد توحي بتربية متحكَّم فيها. على الرغم من ذلك فإن تفسير هذه الاكتشافات متنوع، وكذلك تحديد الفترة التي تم فيها أول استئناس للحصان بشكل حاسم تبدو بعيدة المنال نتيجة الطبيعة المتهالكة لمعظم الأدوات المستخدمة في الترويض كالحبل والجلد. إن أي ثقافة تتلذذ بأكل الأحصنة ستدرك قريبا أن الاحتفاظ بها كقطيع الأبقار يجعل لحمها وحليبها وجلدها متوفرا على الفور مقارنة مع عملية صيدها في البراري. إن الطبيعة الاجتماعية للحصان تجعل من ترويض المهر أو حتى أحصنة أكبر سنا مسألة ممكنة عند التحلي بالصبر. وما أن ظهرت قدرتها على الحمل والسحب حتى بات ركوبها أمراً حتمياً.

تشير الأدلة التصويرية والأثرية من بازيريك في جبال ألتاي الواقعة في غرب سيبيريا بأن لدى السكيثيانيين تاريخاً في ترويض الأحصنة يعود على الأقل إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الحصان قد استجلب من اسكندنافيا إلى بريطانيا خلال العصر البرونزي، وقد امتُطي وسيقَ على نطاقٍ واسع من قبل الفايكينغ وشعوب البلطيق منذ القرن الخامس وحتى القرنَ الحادي عشر بعد الميلاد، كما أن إتيمولوجيا اللغة الليتوانية، وهي لغة تتميز ببنيتها التي لم تتغير، تحتوي على مفردات مشتقة من إشارات محددة لعملية استئناس الفرس. إن التماثيل المنحوتة والمميزة للبيكت، وهو شعب سلتي من شمال بريطانيا، والتي تعود للفترة الممتدة بين القرنين الخامس والتاسع بعد الميلاد ، تصور الاحتفاظ بأنواع عِدّة من الأحصنة لاستعمالات متنوعة بدئاً بالركوب وانتهاءً بالزراعة. إضافة للأدلة حول إنتاج الحبوب والتدريب، يبدو واضحاً ، وبغض النظر عن الصعوبات التي تعتري تحديد زمن بعض الأدلة الأثرية بشكل دقيق، أنَّ ترويض الأحصنة والتحكم بها كان قد ترسخ ونُظِمَ بشكل جيد عبر مساحة واسعة خلال تلك الفترة.

منذ الأيام الأَولى للتفاعل بين البشر والأحصنة كان لكلٍ منهما أثرٌ عميق على حياة الآخر وشكلا عاملاً أساسياً في تطور حياة كُل منهما.

خلال قيامها برحلتها من الإيوهيبوس إلى الإيكوس غدت الأحصنة كائنات ملهمة للبشر ليس فقط بفوائدها العملية، بل بمستوى العلاقة التي يمكن أن تصل إليها، وبالوقع الجمالي على الإنسان وتقييمه الحسي لجمالها وسرعتها. واليوم الذي سيُختَزَل فيه دوره كمصدر للغذاء والمواد سيتحوّل إلى خادم أو رفيق، وسوف تحدث تغيرات ستشكّل مستقبل كلٍ من الحصان والإنسان لآلاف السنين القادمة.

هوامش

١ - وليام كيفينديش William Cavendish.A New Method, and Extraordinary Invention, to Dress Horses (لندن، ١٦٦٧)، sig. (c)2 .

٢ - وليام هولت William Holt. Ride a White Horse: A 9000 Mile Equestrian Odyssey (لندن، ٢٠٠١)، الصفحات ٧-١٠.

٣ - جيرمي جيمس Jeremy James. Vagabond (لندن، ١٩٩١)، الصفحات ١٨٢،١٤٥.

٤- لوسي ريز Lucy Rees. The Horse's Mind (لندن، ١٩٩١)، الصفحات ١٩٨-١٩٩.

٥ - غوردون راتراي تايلور Gordon Rattray Taylor. The Great Evolution Mystery (لندن، ١٩٨٣)، صفحة ١٥٦.

٦ - دافيد راينز واليس David Rains Wallace. Beasts of Eden (نيوهيفن، كونيتيكت، ٢٠٠٥)، صفحة ٥٠.

٧- مقتبسة في هوب رايدن Hope Ryden . America's Last Wild Horses (غويلدفورد، كونيتيكت، ٢٠٠٥)، صفحة ٢١.

٨ - روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling. The Just So Stories (لندن، ١٩٨٩)، صفحة ٨٠.

2- بيغاسوس وإيبونا ومهر ديميتر

عميقا، عميقا في ظلمات الروح يتراقص الحصان.

دي. إتش. لورنس، أبوكاليبس

ارتسم الحصان صورةً دائمة في العديد من الثقافات، وغالبا ما اجتاز صداه الرمزي القارات واللغات والعصور. وحبكَت الأساطير والخرافات الحصان ضمن النسيج القصصي بأشكاله وأنواعه كافة، أما المواضيع التي تناولت الانتقال بين المملكة والحصان باعتباره ناصحاً للإنسان فقد ظهرت عبر الزمن ومجددا من مصادر متباعدة. كانت الروابط القوية بين الحصان والإنسان سابقة لعملية استئناسه، وأظهرت المدى البعيد الذي قطعته رحلة التأثير المتبادل، الرحلة التي لازالت قائمة عبر بقاع الأرض.

تشكل صورة الحصان المجنح بيغاسوس واحدة من أكثر الصور المعروفة والمتكررة. فحسب الميثولوجيا[١] الإغريقية أوجِدَ بيغاسوس من قبل إله البحر بوسيدون[٢] على شكل حصان بعد مقتَل ميدوزا الغورغون[٣] ذات الشعر الثعباني. ووفق بعض الروايات فإن الثعابين التي مثلت شعر ميدوزا كانت العقاب الذي أنزلته أثينا[٤] عليها لاستيائها من الإغواء الذي مُورس في معبدها.[٥] اشتهرت ميدوزا بمحاولتها التغلب على بيرسيوس عبر تحويله إلى حجر بنظرة من عينيها. إلا أن بيرسيوس تغلب عليها وقطع رأسها لينبثق بيغاسوس من جسمها.

---

(١) Mythology علم الأساطير.

(٢) إله البحر والزلازل ومن الأولمبيين الاثني عشر، شقيق كبير الآلهة زيوس.

(٣) ابنة فوركيس (من آلهة البحر) وزوجته وأخته كيتوس (من وحوش البحر) تشكل مع أختيها سثينو وإيوريالية ما يعرف بالوحوش الغورغون.

(٤) إلهة الحكمة والنصر ومن الأولمبيين الإثني عشر، ابنة كبير الآلهة زيوس.

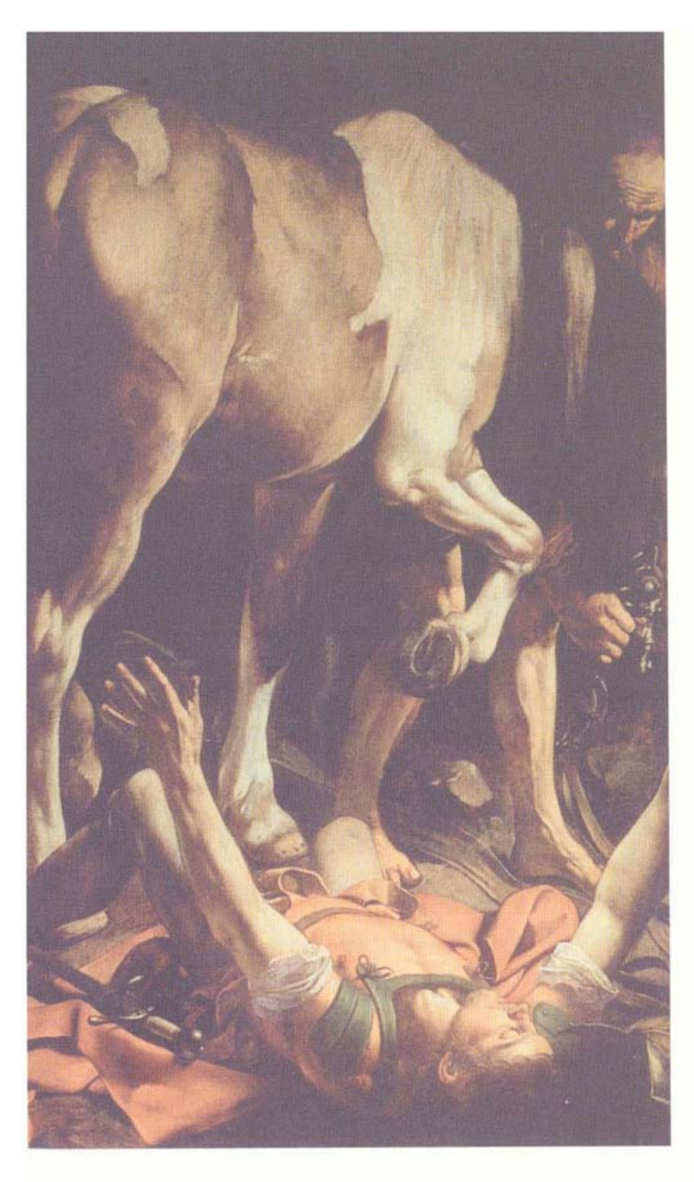
(٥) تقول الأسطورة إن ميدوزا كانت فتاة رائعة الجمال ذات شعر أخاذ تثير إعجاب الرجال، ولكن عندما اغتصبها بوسيدون في معبد أثينا عاقبتها الأخيرة بتحويل شعرها إلى ثعابين وجعلت وجهها مربعا بحيث تكفي نظرة واحدة إليه ليتحول الرجل إلى حجر.

القديس جرجس والتنين ظهرا في أشكال متعددة، ولكن تحديدا في أيقونة للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية. هذه الصورة تعود للقرن السادس عشر.



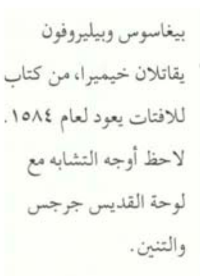
هنالك العديد من الأساطير التي تحكي عن الهدف من وجود بيغاسوس، ويقال إن هدير عَدْوه أو رفسة واحدة من حافره كانت كفيلة بانبثاق نافورة هيبوكرين إلى السطح على منحدرات جبل هيليكون، كما اقترن ذكره منذ زمن بعيد بفكرة كونه ملهماً للشعراء.

مُنح بيغاسوس إلى بيليروفون كي يقتل خيميرا، وقام البطل بترويضه بمساعدة لجام ذهبي سحري، ولكنه حاول بعد ذلك أن يطير بحصانه إلى



في لوحة كارافاجيو هداية القديس بولس في طريقه إلى دمشق، حوالي ١٦٠١، البقعة البيضاء على كتف الحصان الأبلق تركز الضوء المبهر للرب على الجسم المستلقي لشاوول.





بيغاسوس وبيليروفون يقاتلان خيميرا، من كتاب للافتات يعود لعام ١٥٨٤. لاحظ أوجه التشابه مع لوحة القديس جرجس والتنين.

السماء. فعاقبه زيوس على تكبُّره فأرسل ذبابة لتلسع بيغاسوس مما جعله يطرح فارسه أرضاً. وتابع بيغاسوس طريقه إلى جبل الأوليمب لوحده، إذ كان يحمل البرق إلى زيوس، ثم تحول إلى مجموعة نجوم (تكون أوضح ما يمكن في شهر تشرين الأول /أكتوبر)، تدون الأسطورة في سماء الليل.

إن ربط بيغاسوس بكل من الإلهام والطموح بقي ثابتا، واستعمل ليرمز إلى كل ما يمكن أن يمثل مشروع مغامرة من المسارح إلى شركات البرمجيات. وكان بيغاسوس شارة الكتف لأفراد القوى الجوية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، وعند بداية غزو النورماندي في حزيران/يونيو ١٩٤٤، كما تمت إعادة تسمية الجسر فوق قناة كين بالقرب من بلدة أويسترهام بجسر بيغاسوس وذلك بعد مهمة ناجحة للمظليين استطاعوا خلالها السيطرة على الجسر لصالح الحلفاء.

على سطح فندق ماغنوليا في مدينة دالاس بولاية تكساس، توجد صورة مزدوجة كبيرة ومغطاة ببورسلين أحمر للبيغاسوس بقياس ١٠,٥ × ١٥ مترا، وأصبحت مرتبطةً بالمدينة كرمز للتحفيز. وقد نصبت هذه الصورة بداية في عام ١٩٣٢ للاحتفال بإقامة الملتقى الأول لجمعية البترول الأمريكية في ذلك المبنى بدالاس ثم أصبح المركز الرئيسي لماغنوليا أويل. كان يمكن رؤية الشعار من مسافة ٨٠ كم لدى إضاءته ودورانه. لكنه تهالك تدريجيا وأهملت صيانته حتى أزيل أخيرا في عام ١٩٩٧، ليصار إلى تجديده بشكل



بيغاسوس يحلق أعلى فندق ماغنوليا في دالاس، تكساس.

كامل قبل احتفالات الألفية الجديدة حيث تمت إضاءته من جديد عند منتصف الليل للترحيب بالعام ٢٠٠٠.

بيغاسوس هو واحد من الأحصنة الخرافية العديدة التي عبرت الحواجز الثقافية فأتاحت للزمن كي يعيد نفسه من جديد في سياق مرتبط حصراً بوجود الحصان نفسه. حيث يظهر الحصان السحري الطائر الذي يطيع التعليمات المعطاة بإدارة أذنيه في ألف ليلة وليلة، وحكايات كانتربيري[1] وحكايات شعبية يهودية تقليدية يعتقد أن منشأها في أفغانستان. صنع هذا الحصان من مواد مختلفة كالخشب والذهب واللحم، ولكن تشبيه بيغاسوس يتمثل في كونه لا يجسد شخصية بحد ذاته بقدر ما هو رمز لبراعة الإنسان، لذلك ينسى بكل يسر وسهولة عندما لا يعود ذا فائدة للحكاية:

«أخذ فضول كبير الأمير لمعرفة المزيد عنه، لذا امتطى حصانه السحري الذي أدار أذنه اليسرى وطار مباشرة نحو البرج، وحطً على سطحه. ترك حصانه هناك وأخذ يهبط من على السطح ليجد نفسه خارج نافذة، وعندما نظر من خلالها وجد بداخل الغرفة ذات الإضاءة البراقة فتاة جميلة يبدو أنها نائمة»(١).

إن حصانا بإمكانك أن تتركه بلا عناية على السطح خلال موعد رومانسي، من الواضح أنه بلا قيمة، لكنَّ العلاقات السحرية مع الحصان غالباً ما تُقدِّم مزاياه من دون متطلباته. إنَّ الوعي بالقيمة الأعمق للحيوان لا ينجم فقط عن كون الحصان مصدراً للإلهام ، كما هو شائع في العديد من الثقافات ، بل أيضا عن الصلة بين الأرض والسماء المتجسدة في الحصان الطائر والمنعكسة في الروابط بين الحصان وعالم الأرواح.

هذه الروابط ربما أتت من الطيران والترفع عن الأرض، أو عبر المواقع الحدية كالكهوف والمساكن المائية حيث أضحى الحصان حارسا للممر المفضي إلى عالم الأرواح السفلي.

---

(١) The Canterbury Tales مجموعة قصصية من القرن الرابع عشر للكاتب الإنكليزي جوفري شوسر يسردها على لسان عدد من الحجاج إلى ضريح القديس توماس في كاتدرائية كانتربري.



سليبنير حصان أودين ثماني الأرجل، في حجر جنائزي يعود للقرن الثامن، السويد.

في حين يمكن تقصّي منشأ هذه الأفكار أحياناً، كما هي حالة بيغاسوس، إلا أن العديد من خرافات وأساطير الأحصنة، التي يبدو أنها تحدث من دون أي ترابط عبر مجال متنوع من القرائن، قد تكون أكثر تشويقا.

ظهر الحصان كمفتاح مقدس لجوانب الحياة التي تتجاوز الإدراك العادي، الذي يلجأ إليه البشر بحثا عن المصارحة والمواساة، في جميع أرجاء العالم. يمكن العثور على صور لأحصنة ضمن كتابات تصويرية على عظام عراف تعود للفترة التي حكمت فيها سلالة شانغ الصين بين عامي ١٧٦٦-١٠٤٥ ق.م. ويعتقد بأنها تمثل كلا من الأحصنة الفعلية والارتباطات الرمزية بالحصان، كالطاقة الذكورية، فأصبحت جزءاً من اللغة المكتوبة التي تطورت من هذه السجلات البدائية لرسائل قراءة الطالع.

من خلال التجارة على طول طريق الحرير ، جلب تلاقح الحضارات المتبادل صورا جديدة للحصان، وأخذ تلك المألوفة في الشرق إلى ما هو أبعد من حدودها المحلية. إن «أغنية الحصان لإله الحرب»، للهندي الأحمر تال كيا أهاني من قبيلة نافاهو، وترجمها لومس واتشمان للمستمعين الناطقين بالإنكليزية، هي مثال عن كيفية تواصُل الثقافات فيما بينها عن طريق

الإلهام المشترك:

أنا ابن المرأة الفيروزية.

على قمة جبل بيلتيد

حصان جميل - نحيل كابن عرس!

لحصاني حافر كالعقيق المخطط؛

شعر كاحله كريشة نسر بديعة؛

قوائمه بسرعة البرق.

جسم حصاني كسهم بريشة نسر؛

لحصاني ذنب كغيوم سوداء متعاقبة(٢).

إنَّ ترنيمة الشكر هذه للحصان بوصفه أكثر من مجرد لحم، تعكس أساطير أيسلندا القديمة، الإيدا، حيث في إمكان سليبنير الحصان ثماني الأرجل للإله أودين، اجتياز اليابسة والبحر ممثلا اتجاهات الريح. وفي الأسطورة الاسكندينافية سكينافيكس، والتي تعني «اللبدة الساطعة» هو حصان النهار، بينما هريمافيكس، «اللبدة المتجمدة»، حصان الليل. تسافر



هذه اللوحة من المحتمل أنها تمثل الآلهة إيبونا، والتي ظلت تحمي وادي الحصان الأبيض في جنوب بريطانيا لأكثر من ٢٠٠٠ عام.

القنطور خيرون
كمعلم حكيم،
أندريا ألكياتو،
إمبليماتا (١٥٨٤).

هذه الميزات المتفوّقة منذ عصر الخرافات حتى زمن الأدب الحديث متمثلا في حصان جيه. آر. آر. تولكين البطل، شادوفاكس، الذي اختير ليحمل الساحر غاندالف في سيد الخواتم. كان تولكين شديد الإعجاب بالإيدا وتأثيرها واضح في اسم الحصان العظيم وميزاته. فهو سريع وساطع و«أصبح نَفَسَ الريح الغربية كي يجعل الجسم مرئيا، وبذلك يظهر»(٣).

ترتبط الإلهة إيبونا في ثقافة قدماء السلت بصِلة حميمة مع الحصان، وخاصة من خلال شكل هائل، بطول ١٢٢ مترا تقريبا، لحصان أبيض منحوت ضمن منحدر تلة طباشيرية في أفينغتون في بيركشاير داونز (حاليا جزء من أكسفوردشاير). ويعتقد بأن هذه الصورة تعود لحوالي القرن الأول قبل الميلاد، وترتبط بكل من طقوس عبادتها أو بتمثيل إيبونا نفسها على هيئة حيوانية. تأثير إيبونا امتد ليشمل جيش الاحتلال الروماني، الذي تبناها لتحمي أحصنته ومن ثم حملوا طقوس عبادتها عبر أوروبا، وغالبا ما صوروها بشكل أكثر أنثوية وهي تمتطي صهوة الحصان بشكل جانبي. ويعود منشؤها إلى عصور ما قبل التاريخ وقد ارتبطت عبر التقاليد السلتية بطقوس الخصوبة وبالآلهة، متضمنة ريانون الويلزية، ماكا الالستر والميدب أو مايفي الكوناخت الارلنديتين. وأشكال الإلهة-الحصان تربط فهم الحصان كمصدر للطاقة الروحية مع الأشكال الأنثوية للأرض-الأم، ويبرز في



نقش خشبي لأغنيس ميلير باركير في أساطير إيسوبيه، ١٩٣١: بسبب انتهاك الأيل لمنطقته، سمح الحصان للصياد بامتطائه. لكن الرجل رفض تحريره لتضيع حرية الحصان.

التقاليد المسيحية السلتية الاعتقاد بأن الطريق الروحية ستأخذ على عاتقها توحيد جميع المخلوقات بتناغم وانسجام.

جانب آخر مهم من إيبونا هو أنها لا تظهر فقط على شكل حصان وامرأة تمتطي الحصان، بل أيضا مثل ذلك الحيوان الغريب، هجين الحصان والإنسان. لهذا الكائن أشكال عديدة، ومع أن منبتها عادة التقاليد التي تبحث عن التوازن بين ما هو مادي وروحي، كما في البوذية التيبتية، إلا أنها تبدو متضاربة بشكل القنطور في الميثولوجيا الإغريقية. أنجبت القناطير من قبل الوحش سينتاوروس[١] وأفراس بيليون[٢]، وارتبطت بالجموح والصخب

(١) Centaurus ابن إكسيون ونيفليه، ولد مشوها وعاش فترة مراهقته بين أفراس ثيساليا.

(٢) Pelion جبل في الجزء الجنوب شرقي من ثيساليا.

الذين عرف بهما ديونيسوس[١]، وظهرت كالساطير[٢] في الصور القديمة، ولكن مع قوائم الحصان الخلفية بدلا من الماعز. وأكثر صورها شهرة هي التي تظهر فيها بجذع إنسان وجسم حصان، وتعود إحدى الأفكار التي تتحدث عن منبتها إلى السمعة التي اشتهر بها رعاة البقر الأوائل في ثيساليا(٣)، الذين كانوا على الأرجح يتمتعون بمهارات عالية جعلتهم يبدون مع أحصنتهم وكأنهم كيان واحد، وكذلك اشتهروا بخشونتهم الفظة وهي صفة شائعة لدى القناطير. وعلى الرغم من ذلك يمكن رؤية الجانب الآخر من طبيعتها في شخصية فولوس، الذي كان يسلي هيركليس، وخيرون، الأكثر شهرة، والذي تعلم على يدي أرتميس وأبولو كما أنه أخذ دور المعلم للعديد من الأبطال ومن بينهم آخيل الشاب.

إن الحكمة التي يتمتع بها هذان الكائنان تشكل تضاربا صارخا مع ما اشتُهِرَ عنهم من وحشية اتّصفَ بها أبناء جنسهم، مما يعكس الأفكار الأولى حول التضارب في طبيعة البشر والحيوانات، على الرغم من صورة الحصان الشائعة في الميثولوجيا الكلاسيكية في كونه كائناً راقياً وذكياً. وفي هذا الشكل الهجين من المغري الذهاب إلى الاعتقاد بإمكانية إقصاء طبيعة الإنسان المتأتية من توازن العواطف الحيوانية للحصان، وردها إلى الجوانب المنحطة من البشرية التي تهذبت جرّاء هكذا اتحاد. ديميتر آلهة المرأة والزواج والزراعة تصور أحيانا برأس حصان لتعيد للأذهان تنكرها كحصان في محاولة لتجنب تحرش الإله بوسيدون بها. بوسيدون، كما ذكر سابقا، هو والد بيغاسوس، وخلال مطاردته لديميتر اتخذ لنفسه شكل حصان لينجب من ديميتر الحصان أريون. كما كان يعرف الكهنة المسؤولون عن معبد الآلهة بهيئتها التي تحتوي على رأس حصان، باسم «مهار ديميتر» حيث وضعتهم تحت حمايتها الأمومية، وربما ضمتهم لعائلتها غير الفعالة ولو بشكل مشبوه.

---

(١) Dionysus إله الخمر عند اليونان ومن الأولمبيين الإثني عشر.

(٢) Satyr نصفه إنسان ونصفه ماعز من مرافقي الإله ديونيسوس.

(٣) Thessalyأحد أقاليم اليونان.



ماري لواد العائدة لنادي للانتريسانت للتقاليد الشعبية في جنوب ويلز، الذي أعاد إحياء هذا التقليد خلال ثمانينيات القرن العشرين. وهي مصنوعة من جمجمة حصان حقيقية.

إن الهموم والعلاقات الغرامية للآله والآلهات التي أدت لظهور هجن الحصان-الإنسان انعكست بمفهوم أكثر دنيوية بواسطة تقاليد كتقليد ماري لواد الويلزي. وخاصة في قرى غلامورغان بجنوب ويلز، حيث تظهر ماري لواد خلال احتفالات عيد الميلاد ورأس السنة كدمية مرعبة بعض الشيء تمثل جمجمة حصان، غالبا ما تزين بأشرطة وتحمل على سارية من قبل شخص يتخفى تحت غطاء ليمثل جسم الحصان. يصنع الرأس أحيانا من الخشب، ولكنه كان في الأصل جمجمة حقيقية. هنالك نقاش كبير حول معنى ماري لواد حيث يمكن ترجمتها إلى «الفرس الرمادي» أو «مريم المقدسة»، ويتم حمل الدمية، التي اختصر اسمها وحور في الويلزية ليصبح أه فاري، من باب لآخر حول القرى. ويمكن أن تعلن عن وجودها بالنقر أو التلويح من خلال النافذة مصحوبين بمنشدي الأهازيج، وفي بعض الأحيان بأوجه مسودة وبأفضل ما لديهم من ملابس. وكما في العديد من التقاليد الشعبية، تُنشَد القصائد الشعائرية وتطور ذلك إلى ما يعرف بالبونكو، وهي

منازلة بالشعر المقفى بين أعضاء المجموعة ورب البيت ليؤذن لهم بالدخول إلى المنزل والحصول على عشاء من الكعك والأليه.[١] بعد إفطارهم، تقوم مجموعة ماري لواد بإنشاد أغانٍ وأدعية ثم يتابعوا طوافهم ليعيدوا العرض في منزل آخر، لذا ليس مفاجئًا أن يرتبط بهذا الطقس نوع من صخب المخمورين، مصحوبا ببعض الخدع والطرف العملية. وجموح هذا السلوك أدى إلى قمع هذا الطقس خلال صعود الميثودية[٢] في ويلز، مما جعله مهددا بالزوال. وهنالك أشكال مختلفة من طقس ماري لواد تتضمن الطلب من أه فاري أن ترقص الدجيغ،[٣] ومن الحوذي أن يقود الدمية على طول طريقها وأن يضربها حتى الموت في آخر الأمر. توحي هذه العناصر المزعجة جداً من الطقس بصلتها بالموت بالإضافة إلى الخصوبة والحظ الجيد اللذين يكتنفان التقاليد ، وأحيانا يُعتَقَد أنَّ لها صِلة بهروب مريم ويوسف إلى مصر مع يسوع الرضيع. وتحوم جذور ماري لواد على الأرجح حول جذور طقوس العبور الأخرى، وفي هذا المثال هي الرحلة من العام القديم إلى الجديد. ويتضمن الطقس جميع عناصر الطعام والشراب والخداع المرتبطة بالعبور الرمزي من حالة لأخرى. تستعيد عملية عبور الحدود بهذا المنحى التأكيد والاعتراف بوجودها، أما حاجة أه فاري لأن تتم دعوتها إلى داخل المنزل للقيام بالعبور فتؤكد مقدرتها على توفيرها الأمان لأولئك الذين في الداخل.

إن استمرار أية عادة لفترة طويلة من الزمن سينتج عنه حتما تغيرات في المعنى والتفسير تبعا لإدخال أفكار وإقصاء أخرى. ومهما كانت المعاني الحالية أو الأصلية لهذا الشكل ذي رأس الحصان، فإنها تعود لتقليد غاية في القدم. تُظهر رسومات تعود إلى العصر الحجري القديم في كهف بين هول

---

(١) Ale نوع من الجعة القوية.

(٢) Methodism هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد، واعتمدت فيما يتعلق بمسألة الخلاص على اللاهوت الأرميني القائل بإمكانية خلاص كل إنسان.

(٣) Jig رقصة شعبية ظهرت في انكلترا خلال القرن السادس عشر.

في ديربيشاير[١]، رجلاً يرتدي قناعا على هيئة حصان، لذا يعتقد بأن عبادة الحيوانات كانت واحدة من أقدم الشعائر الدينية. يبدو الارتباط بإيبونا وغيرها من الأشكال القديمة المشابهة محتملا، خاصة مع ظهور هذا التقليد في أماكن أخرى. فلدى أه فاري أحيانا فكُ يعض، كما هو الحال في نظيرتها الكينتية، هودن هورس، وهي أصغر ومغطاة بدثار للحصان أسود اللون بحيث يظهر وكأنه يقف على قوائمه الأربعة، على عكس دمية ويلز الطويلة والبيضاء بالكامل. تشكل طقوس مثل ماري لواد جسراً بين حكايات التفوق البطولي بحثاً عن طريق الروح، وحياة الناس العاديين. ومن المفارقات أن يصبح الغامض أكثر انفتاحا للتجربة اليومية عندماُ يفسر بواسطة السحر، وتعاد جذوره إلى الأساس الدنيوي للحكايات الشعبية.

يمكن مشاهدة ذلك بشكل خاص في الحكايات الشعبية، حيث يصور عنصري التفوق واليومية معا، وتجسد الأحصنة ذلك بوقوعها ضمن تصنيفين: فهنالك أحصنة تملك أكثر من مجرد جمال فان، وعادة ما يمتطيها أبطال من الجن أو شخصيات محلية خارقة للطبيعة ذات ميزات مماثلة، وهنالك الأحصنة المألوفة الأقل تميزا والتي غالبا ما نلحظها بكساء بسيط أو أشعث، ولكن مع مزايا ذكاء خاصة.

في دراستها للأساطير الإيرلندية في عام ١٨٨٧، اعتبرت الليدي فرانتشيسكا سبيرانزا وايلد[٢]، والدة أوسكار وايلد[٣]، أحصنة دينيه شي[٤]، من أكثر أبطال الجن ارستقراطية، بأنها مبهرة كممتطيها:

«وسلالة الأحصنة التي يقومون على تربيتها لا يمكن لأحد في العالم

(١) Derbyshire مقاطعة في إنكلترا.

(٢) Jane Wilde (١٨٢١-١٨٩٦) شاعرة ايرلندية الفت قصائد تحت الاسم المستعار Speranza (تعني الأمل بالإيطالية) تدعم استقلال أيرلندة عن بريطانيا.

(٣) Oscar Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠) كاتب مسرحي وشاعر أيرلندي من أشهر أدباء العصر الفيكتوري.

(٤) Daoine Sidhe في الميثولوجيا الأيرلندية جنس خارق للطبيعة يشبه الجن.

أن يتفوق عليها، فهي سريعة كالريح، بعنقها المقوس وصدرها العريض وأنفها المختلج وعيونها الكبيرة التي تبدو كأنها مصنوعة من نار ولهب وليس من تراب ثقيل وممل»(٤).

ولما كان هؤلاء الأبطال من الجن بحجم الإنسان أو أكبر منه بقليل، ولهم روابط مع المثل العليا لرومانسية العصور الوسطى؛ فمن غير المفاجئ أن تكون أحصنتهم على شاكلتهم. ففي وصف الليدي وايلد تبدو أشبه بالأحصنة الإسبانية أو العربية، التي جُلبت أول مرة إلى الجزر البريطانية في العصور الوسطى ، منها إلى أحصنة البوني المحلية كثيفة الشعر والصغيرة. من الممكن رؤية التضاربات المنطقية في هذه الحكايات بين الطموح والواقعية. فأحصنة الجن لديها كل ذلك السمو والجمال الرفيع للسلالات الغريبة عن هواء بريطانيا البارد والرطب، أما السلالات المحلية، الشعثاء قصيرة القوائم، فإنها مناسبة أكثر لواقع الحياة. وعندما يظهر النوع الثاني في حكايات الجن التقليدية، غالبا ما يكون في إيهاب كائنات محتقرة في البداية، لتتضح فيما بعد قيمتها مع مرور الوقت والنمو العاطفي للبطل.

ففي الحكاية السلتية التقليدية «ملك إسياذ رويذ الشاب»، يفوز البطل بملكة فاتنة لتغدو زوجته عند تغلبه على غرويغاخ، المارد الأيرلندي المخادع، في لعبة الشطرنج. لم يستطع الملك الشاب بكبريائه التقليدي المماثل لشجاعته وجرأته، أن يقاوم فرصة تجريب حظه مع المارد مجدداً. ولكي تساعده زوجته، أخبرته بأنه على الرغم من أن الهدية التالية لن تبهره، وهي مهرة بكساء أشعث ولون بني رمادي، إلا أن عليه أن يَقبلَها ويقدرها. وأصبحت هذه المهرة الشعثاء منقذته ومعلمته عندما أصر على لعب الشطرنج من جديد، ومن خلال تدخل الحصان والمرأة وحيوانات أخرى مرافقة، تطور الملك الشاب، كحال سائر الأبطال، بعد أن هزم هزيمة نكراء وازداد حكمة.

تظهر الأحصنة الشعثاء في العديد من حكايات الجن وأساطير الشعوب التي تقطن المناطق ذات المناخ البارد، وغالبا ما تعكس هذه النماذج الحصان الحكيم، أكثر منه الجميل، الذي يلعب دور الناصح للمغامر/البطل. غالبا



شامان سيبيري من شعب الناناي (الغولدس سابقا)، حوالي ١٨٩٥.

ما يقتل الحيوان أو يطلب أن يُضحى به من أجل الرفقة البشرية، التي كرس حياته لأجلها. ونادرا ما يتكلم الحصان الناطق لمصلحته، أملس كان أم أشعث، ولكن في بعض الأحيان يمنح نعمة النطق ليتاح له أنْ يُحرِّر نفسه من المآسي الكثيرة التي تكبدها نتيجة وحشية الإنسان، أو ليُفهم بشكل كامل.

اتخذ إم. أولدفيلد هوي في دراسته المعمقة لأساطير وخرافات الحصان، المنشورة لأول مرة عام ١٩٢٣موقفا مثيرا للانتباه من حكايات الأحصنة الناطقة. حيث يقول: «تتحدث الخرافات الهندية بشكل عام عن الحصان ككائن ذي إدراك ذاتي كامل التطور وله قدرات (كالنطق مثلاً) يبدو جليا بأنها لا تمتلكها حاليا وإنما كانت موجودة في الماضي السحيق قبل أن يخلق الإنسان»(٥). ترك هوي الاحتمال مفتوحا أمام كون الأحصنة قد امتلكت ذات يوم القدرة على النطق وربما كان يمكن أن تبقى تملكها لو أنّه كان لدى البشر القدرة على سماع ما تقول.

تأثر شعب سيبيريا التركية [١] بشدة بتقاليد آسيوية غاية في القدم لأجداد من توفا وخاسيا حيث يشكل حصان البطل شخصية رئيسة في الحكايات الشعبية من ذلك المصدر. وقدرة البطل على سماع صوت الحصان تلعب دورا حاسما في تطوره ونجاته، فعلى البطل أن يروض الحصان وعلى الحصان بدوره أن يجعله يتمالك نفسه ليكرس نفسه لصالح البطل وبذا يلعب دور الناصح، ويكون بمثابة عامل الموازنة مع نزعة البطل نحو المجازفة والتهور. يجسد الحصان في هذا التقليد، كما في غيره، قوة الحياة، حيث يلعب دور الجسر الذي يصل بين العالمين الداخلي والخارجي، أو بين العالم الواقعي وعالم الأرواح.

يعتبر شامانات [٢] سيبيريا الطبل الذي يستخدمونه في طقوسهم بأنه حصان روحي يمتطونه ويجتازون به الحدود بين العوالم. تتضمن عباءة

(١) المقصود هنا أحد الشعوب التركية التي تقطن في سيبيريا.

(٢) Shaman كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث.

الشامان موادَ كالشعر والريش والعظم ليصبح جزء منه بمثابة حيوان وجزء آخر بمثابة طير وغالبا ما يكون لديه خصلة في الخلف ترمز لذنب الحصان. يمتلك رواة القصص السيبيريون آلة موسيقية تدعى الإغيل، تتضمَّن أوتاراً من شعر الحصان وتستعمل في نمطٍ مميز من الغناء المعروف بـ«اللحن الفوقي» أو «غناء الحنجرة»، حيث يصدرُ المغني نغمتين أو أكثر في وقت واحد. وأصل هذا النوع من الغناء والعزف يرتبط باستدعاء الأرواح. وفي إحدى القصص يعلِّم الحصان صديقه البشري كيفية صنع الآلة الموسيقية، ولكن على الإنسان أن يتعلم العزف، مما يصور مرة أخرى طبيعة العلاقة بين البطل وحصانه والتي تتركز على الاعتماد المتبادل.

لقد قلبَتْ الكائنات الخارقة للطبيعة المتنكرة كأحصنة، هذا النوع من الحكايات رأسا على عقب، عندما اكتشف الغول قابلية إحداث الأذى من خلال التوقعات البشرية والاعتماد على الحصان كرفيق ودابة حمل.

من الشائع في الحكايات الشعبية البريطانية، أن تظهر الأحصنة الخارقة للطبيعة في أساطير الرحالة، والخرافات المحيطة بالتضاريس الوعرة، كالأراضي البور، لتكون جزءاً من مصاعب الرحلة. تتخفى هذه الغيلان عديمة الشفقة، في إيهاب أحصنة تغري الرحالة بوعود الركوب والعودة إلى الوطن في ليلة باردة ومن ثم تختفي، أو أنها تنزله في خندق، ثم يُسمَع صهيلها وهي تفرّ مبتعدة يتخلله الضحك. إنَّ مخلوق براغ المقاطعات الشمالية لانكلترا، شاغ-فول أو تاتير-فول مستنقعات لينكولنشاير، بيكر-تري براغ وداني نورثمبريا هي جميعا غيلان متنكرة، لها سلوك مخادع مماثل، إذ تضحك على محنة فرسانها البائسين، الذين انتهى بهم الأمر في الأنهار والخنادق ليفقدوا بضائعهم أو ركابهم، وليتركوا في الظلام كي يعودوا أدراجهم إلى موطنهم.

يبدو أن هذه الحكايات الشعبية ألهمت كريستوفر مارلو لدى كتابة مسرحيته دكتور فاوستوس (حوالِي ١٥٩٠). فعندما باع فاوستوس روحه للشيطان لقاء قدرات سحرية حوَّل بها كومة تبن إلى حصان ليخدع تاجر الأحصنة، أنذر التاجر: «الآن ، يا سيدي، علي أن أخبرك أنه في إمكانك أنْ

تقفز به السياج والخندق ولا ترحمه أبدا؛ ولكن أتسمع؟ في كل الأحوال لا تخُض به الماء»(٦). وعلى الرغم من كون الماء الجاري مرتبطاً بكسر التعويذات، فإن جشع الإنسان يفوق أي شك كان يمكن أن يعتري التاجر، لذا قاد حصان التبن إلى الجدول مباشرة، يحدوه الأمل في اكتشاف أي قدرة سحرية تجعل ثمنه أعلى من ذلك الذي دفعه. وهكذا قفز إلى الماء بتهور ليتلاشى السحر ومعه الحصان. كان يمكن لهذه الفكاهة أنْ تترك أثرها على جمهور أواخر القرن السادس عشر، الذي كان مطلعاً على مخاطر السحر، الأمر الذي لم يعد موجودا لدينا في يومنا هذا. ومثلما قام فاوستوس بخداع الدجال عن قصد، فإن السؤال يثار حول ما إذا كان هذا هو جوهر هذه الأساطير ، ويُعادل حكاية الصياد عن «ذلك الذي رحل». وكما سيعترف بعض الفرسان، ولكن الغالبية تعرف جيدا، فإنَّ الاعتراف بخطأ «الوقوع عن الحصان» نادر. ولذلك فإن معظم قصص جماعة مسافرة مع حصان تحكي عن أنه «رُميَ» أو «طُرح أرضا»، بدل أنْ يعترفوا بكل بساطة بفقدان التوازن أو التركيز في لحظة غير مناسبة. وربما لأن المسافرين الذين كانوا يجوبون الطرق القديمة في بريطانيا ، ويخوضون السبخات والمستنقعات تحت ضوء القمر الخافت يكرهون الاعتراف بأنهم طأطأوا رؤوسهم من النعاس وسقطوا من على أحصنتهم التي اختفت مذعورة في الضباب. ولا شك في أنها ستكون حكاية أفضل عندما يصبح الحصان غولاً متخفياً يقوم بخداعهم.

كانت سيرة الأحصنة ترتبط أيضا بما يعرف بفئة «الأساطير الحضرية»، القائمة على طرقٍ في تحديد صفاتها وقيمتها. فالمعتقدات المبنية على عدد القوائم البيضاء التي على الحصان أن يمتلكها، ظهرت مطبوعة منذ القرن السادس عشر وحتى عام ١٩٥٨ حيث كان آخر ظهور لها إلى الآن، على الرغم من مناقضة بعضها البعض. في عام ١٥٦٠ ترجم السير توماس بلاندفيل بتصرف عمل أستاذ ركوب الخيل الإيطالي فيدريغو غريسوني، مخصصا خمس صفحات لمناقشة حجم البياض على قوائم الحصان الذي يمكن التغاضي عنه بأمان، فالكثير منه بالطبع هو «علامة سوء تنذر

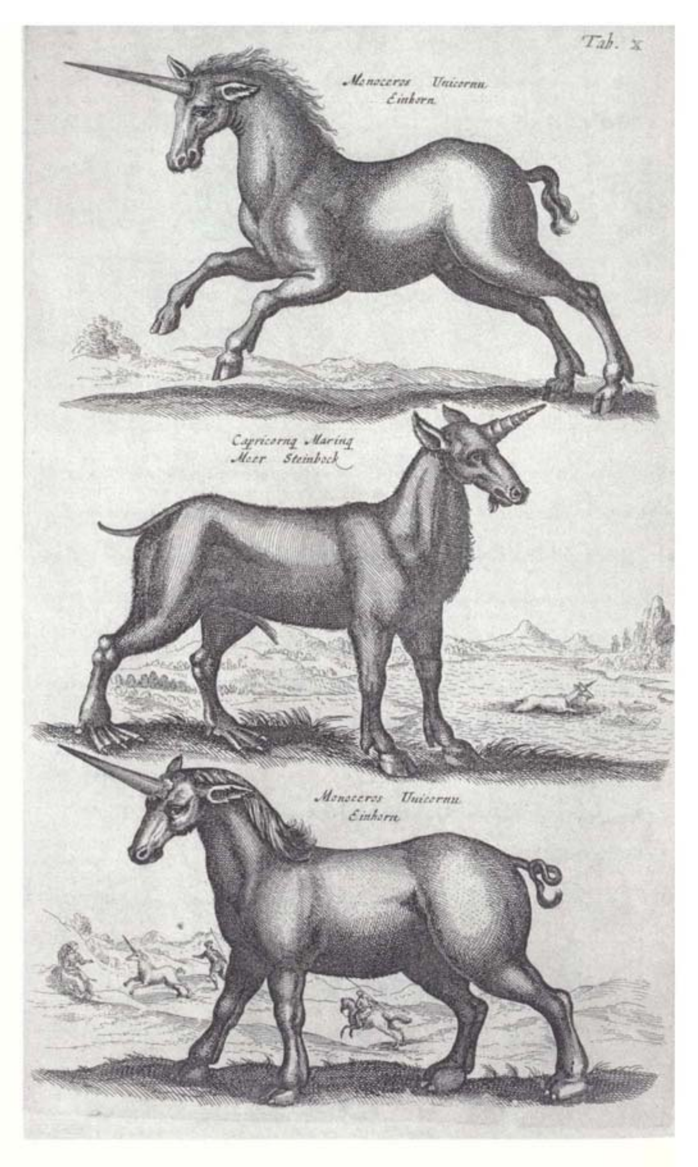


لهذا الحصان حافر أزرق- رمادي أرتبط لفترة طويلة بالصحة والقدرة على التحمل. تشير شرابة حنجرته (لطرد الذباب) والرباط لحماية شعر ذنبه الطويل إلى أنه كان ذا قيمة عالية.

بالضعف»(٧). في عام ١٩٥٨ كانت هنالك إحدى النصائح للباحثين عن حصان جيد في أمريكا تقول إن الحصان ذا الجورب الأبيض الواحد هو الأقوى دائما، وإن الساق البيضاء هي علامة على ضعف الحصان، وإنَّ على المرء أن يقتني دائما حصانا بثلاثة جوارب بيضاء. وحجم البياض كما يبدو يشكل فرقا كبيرا في الدلالة التي يعنيها، سواء أكان فوق الكاحل أو فوق الركبة أو كامل الساق. لكن الميزة الأكثر إثارة للانتباه لمثل هذه الأفكار، والتي ستظهر أي تجربة أنَّ لا أساس لها من الصحة، هي الطريقة التي تظهر بها في الثقافات المتباعدة.

حكاية شعبية تقليدية عربية تحكي عن رجل كان يتوقع أول مهر تضعه فرسه الجميلة، فاجتمع مع أصدقائه ليشهدوا الولادة والمزايدة على المهر وشرائه حالما يولَد. فأظهرت أول نظرة إلى رأس المهر نجمة مما أفرح المالك،

ظهرت كائنات خرافية في العديد من الكتب الأولى للتاريخ الطبيعي مثل وحيد القرن هذا في Beschrijving Van de Notuur der Viervoer-ige Dieren لجان جونستون، ١٦٦٠.





حصان البحر الرائع هذا في كائنات غريبة في علم الحيوان لجون أستون، ١٨٩٠.

لأنها علامة حظ كبير، ثم ظهرت الساق الأمامية بلون واحد ليبدأ المراقبون بالمزايدة بأسعار عالية، لكن بعد ذلك ظهرت الساق الأمامية الأخرى بجورب أبيض، فانخفضت المزايدات إلى النصف، ولكن ظهور ساق خلفية بيضاء أعادت البهجة للمالك وأعلن أن هذا المهر لم يعد للبيع بعد الآن! ولكن ظهور ساق خلفية بيضاء أخرى بعد ذلك جعلت المالك يندب حظه ويأمر بالقضاء على هذا المهر عديم القيمة في الحال.

إنها أشبه بالفاجعة بالنسبة للفرس ومهرها. تبيّن هذه القصة، مثل الأحصنة-الغول المختفية، الطُرُق التي يشرح بها البشر أخطاءهم وأهواءهم، لتصبح مع الزمن متمثلة بالمعتقدات. يقدم ويليام كافينديش بعض النصائح البديهية، معتقدا أن:

«السعي لاكتشاف البنية والمزاج الخاص للأحصنة عن طريق علاماتها وألوانها... يبدو لي كنوع من الشعوذة أو السحر. من المؤكد أن هذه العلامات تحدث من باب الصدفة، فالعلّة لا تنبثق من لون القدم بقدر ما هي من مقدار الحيوية في طبيعة الحصان».[٨]

و على الرغم من هذه الحكمة الجلية كلّها، فإنَّ حتى المالك في عصرنا هذا من المحتمل أن يسمع:

قدم بيضاء واحدة، اشتري الحصان؛
قدمين بيضاوين، جرِّب الحصان؛

ثلاثة أقدام بيضاء، تفحّصه جيدا؛

أربعة أقدام بيضاء، أنت في غِنى عنه.

مع أن هذه القافية من المستبعد أن تجذب إليها الانتباه اليوم، لكنها تشير إلى أن للخرافات أثراً أطول بكثير مما نعترف به عن طيب خاطر. فلا يزال من الشائع أن نسمع أن الأحصنة ذات العيون الزرقاء أو البيضاء لها طباع سيئة، وتلك ذات الحوافر البيضاء ضعيفة، بينما يعلم الجميع بأن الفرس كستنائية اللون، كالمرأة ذات الشعر الأحمر، يمكن أن تكون سريعة الغضب.

إن الطريقة التي تبحث فيها الخرافات الحديثة ، التي تدور حول الأحصنة وتربيتها ، عن جذور لها في بعض التقاليد القديمة تُظهر تأثير الحصان على التفكير البشري على المستوى الفطري. بتغطية هذه المساحة الواسعة من العالم من خلال الحكايات الشعبية والأديان والميثولوجيا، فإنه ليس من المفاجئ أن العديد من الحكايات تنتقل أو توجد بأشكال مختلفة من دون أي علامة اتصال مباشرة. فلصورة الحصان أصداء تجتاز الحدود الثقافية لتتحول إلى حديث مشترك. فكما قال هوارد شوارتز، «إن حدود التقاليد الشعبية لا يمكن تحديدها أكثر من تلك التي لأمواج البحر»،[٩] لذا عندما يكون في استطاعتنا السفر عبر العالم على ظهر حصان، فربما يكون من المتعذر أن لا تقطع حكايات الحصان مسافات مماثلة.

هوامش

١ هاورد شفارتس- Howard Schwartz. Miriam's Tambourine: Jewish folk-tales from Around the World (أكسفورد، ١٩٨٨)، صفحة ١٤٤.

٢ داين و ماري روبيرتس Dane and Mary Roberts. The Navajo Indians (بوسطون، ١٩٣٠)، صفحة ١.

٣ جاي. آر. آر. تولكين J.R.R. Tolkien. The Two Towers (لندن، ١٩٦٩)، صفحة ٥٤٧.

٤ مقتبسة في كاثرين بريغس Katherine Briggs. A Dictionary of Fairies (هارموندسورث، ١٩٧٩)، صفحة ١٤٨.

٥ إم. أولدفيلد هاوي M. Oldfield Howey. The Horse in Magic and Myth (نيويورك، ٢٠٠٢)، صفحة ٢١٣.

٦ كريستوفر مارلو Christopher Marlowe. Dr Faustus، تحرير جون بوتشير John Butcher (لندن، ٢٠٠١)، المشهد الرابع المقطع الخامس، الأسطر ١١-١٣.

٧ توماس بلاندفيل Thomas Blundeville. A Newe Booke cantaining the Arte of Ryding and breaking greate Horses (لندن، ١٥٦٠)، صفحة A.iiiv.

٨ وليام كافينديش William Cavendish. A General System of Horseman-ship: Volume 1 (لندن، ١٧٤٣)، صفحة ٢٠.

٩ شفارتس Schwartz. Miriam's Tambourine، صفحة ٣٦٧.

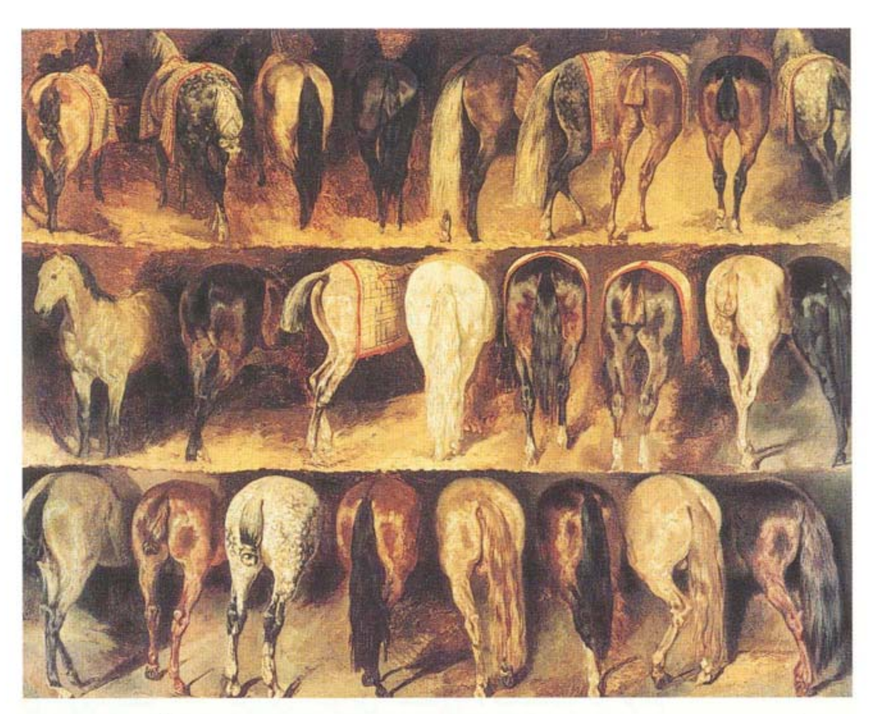
3- الحصان المصنوع من قبل الإنسان

إنَّ إحدى أكثر العلامات المميزة في الأجناس التي استأنسناها هي أننا نلحظ فيها القدرة على التكييف ليس بالضرورة لصالح الحيوان أو النبات بل لمنفعة الإنسان وأهوائه.

تشارلز داروين، أصل الأنواع

إن نزعة البشر إلى تشكيل العالم لمنفعتهم كان لها وقعٌ قويٌ على تطور الحصان. والسلالات المحلية، أو تلك التي ينظر إليها على أنها سلالات محلية قد شكَّلتها بيئتها وما يجعل الحصان غالبا مناسبا لنشاط أو عمل معين هي صفة محددة ناتجة عن ميزة طبيعية. وقد استطاع البشر بواسطة التزاوج المنظم منذ ٤٠٠٠ عام من أن ينتجوا أحصنة أكثر ملاءمة للجر أو السرعة ، أو أكثر رشاقة أو قوة ، أو أطول أو أقصر، أو على الأقل السعي للحصول على ألوان أو علامات محددة، على الرغم من ميل الطبيعة إلى خداع أكثر المخططات تعقيدا في هذا الخصوص.

إن حصان شيتلاند بوني، والذي سمي كذلك نسبة إلى موطنه النائي في جزيرة تبعد ١٦٠ كم عن الساحل الشمالي لاسكتلندا، ذو قوائم قصيرة، وكساء سميك، وقدرة عارمة على الازدهار في المناطق ذات المراعي الشحيحة. هذه هي الصفات الأساسية التي شكلت السلالة ومكنتها من البقاء والاستمرار على جزر موطنه الأصلي التي تعصف بها الرياح. يعتقد بأنه أحضر إلى جزر شيتلاند، على الأرجح من اسكندنافيا، منذ زمن يعود إلى العصر البرونزي بينما يعود «حجر الراهب»، في جزيرة بورا والذي يظهر راهبا ممتطيا حصان بوني صغيراً، إلى حوالي عام ٨٠٠م. والوحدة التقليدية لقياس الأحصنة هي «القبضة» بحجم ٤ بوصات والتي تعود تقريبا إلى عرض قبضة الرجل وبحيث يكون ارتفاع حصان البوني أقل من خمس عشرة قبضة. إلا أن حصان شيتلاند بوني يقاس على نحو تقليدي بالبوصة ليصل ارتفاعه وسطيا إلى ٤٠ بوصة عند الحارك، وهو أعلى موضع في الكتف. تشير



دراسة لأنماط كساء الأحصنة في الإسطبل الملكي في الفيرساي، لثيادور غيريكال بين عامي ١٨١٣ و ١٨١٤. الاختلافات في تطور العضلات تبين أن لكل حصان عملاً محدداً.

سجلات المحكمة في شيتلاند إلى دوره كحصان بوني للأعمال في بدايات القرن السابع عشر مع ذكر محدد لقوة احتماله في البيئة الخطرة يعود لعام ١٧٣٠.

كان سكان جزيرة شيتلاند يُقدّرون قيمة هذه الكائنات الصغيرة، عند الحرث وحمل الطحالب البحرية والخث[1]، وعموما عند القيام بأعمال شاقة لا تتناسب أبدا وحجمها الصغير، قبل أربعينيات القرن التاسع عشر بكثير، عندما أدى حظر عمل النساء والأطفال في مناجم الفحم إلى ظهور دور جديد لحصان شيتلاند بوني بالعمل ضمن المناجم وعرف باسم بيت-بوني. منذ ذلك الحين، راج حصان شيتلاند بوني كحصان للأطفال أو حصان عربات

(١) كومة من النباتات في طور التحلل الجزئي.

وذلك لجمعها بين الحجم الصغير والذكاء والطباع الحسنة. في هذه المهام كلها كانت الخصائص الطبيعية لحصان شيتلاند بوني هي السبب الرئيسي وراء استخدامه لهذه المهام. لكن حصان شيتلاند بوني كان أيضا من ضمن السلالات العادية التي طورت خصائصها الطبيعية لتتناسب مع احتياجات الإنسان. ومع خروجها من موطنها الأصلي تم تصديرها بشكل واسع، وما يعرف اليوم باسم الشيتلاند الأمريكي من الممكن بسهولة تميز قرابته مع أبناء عمومته الاسكتلنديين. لقد تمت مزاوجته مع سلالات وأنماط أخرى لتطوير حيوان أفضل، ذي خطوات أعلى وديناميكي مع الحفاظ على قوة الاحتمال الموجودة لدى أجداده. وهنالك أيضا حصان شيتلاند المصغر، بحجم أصغر من كلب غرايت داني أحيانا، ولكنه يشبه كثيرا أحصنة شيتلاند بوني العادية بمظهرها وطباعها. وقصة شيتلاند بوني بكل بساطة هي واحدة من العديد من القصص المشابهة، فالسلالات تعدَّل، وتهذَّب، و«تحسَّن»، وتلاحَق، وتربَّى، وحتى تُباد كليا، ويعتمد ذلك على تقييم الدور الذي تلعبه في علاقتها مع البشر.

ناقش إلوين هارتلي-إدواردز أحصنة البوني البريطانية الأصيلة بأسمائها



حصان شيتلاند المصغر - صغير الحجم كبير الشخصية.



سلالة مفقودة ــ الحصان الأسود الانكليزي القديم، لويليام نيكولسون، مبنية على أساس لوحة لوليام شايلس تعود للقرن التاسع عشر.

التي أصبحت الآن مجرد ذكرى رومانسية، مثل غونهيلي، وبوني مستنقعات لينكولنشاير، وهوبي الأيرلندي، حيث قال:

«أصبحت أحصنة البوني هذه منقرضة إما لانتفاء الحاجة إليها في المجتمع المتغير أو بذوبانها ضمن أعراق دارجة»(١). إنه تعليق معبر. ومع أن القول، بأن البشر اعتبروا الأحصنة كمصدر يمكن تشكيله أو تنظيمه حسب الحاجة، يعد صحيحاً؛ إلا أنه من الصحيح أيضا أن جهودا كبيرة قد بذلت لحماية ونشر وحفظ سلالات متنوعة من الأحصنة. إن مجال تربية الخيول اليوم مكْلِف للغاية ويشهد منافسة عالية، ولكنه أيضا في أحيانا عديدة عمل تطوعي.

إن لكل سلالة من الأحصنة قصتها الخاصة، ولكن يكفي اختيار بعضها من مناطق مختلفة حول العالم لنحصل على صورة أشمل. فالثوروبريد الإنكليزي والأبالوسا قد تأثرا بشكل كبير بالبشر، بينما الحصان الأيسلندي هو مثال مباشر على عدم تدخل البشر بشؤون الآخرين. أما الحصان

العربي فهو سلالة رئيسة ليس فقط لميزاتها الطبيعية ولكن لتأثيره أيضا على السلالات الأخرى بفضل قدرته على نقل صفاته الوراثية المتمثلة بالذكاء والقدرة على الاحتمال والجمال إلى أي سلالة يتزاوج معها.

إنَّ للحصان العربي تاريخاً طويلاً. فالرسومات والنقوش الصخرية في جنوب تركيا تعود للعام ٨٠٠٠ ق.م. تبيِّن حصانا بصفات مميزة معروفة لدى الحصان العربي: جبهة واسعة، رأس مشذب وقوة مرهفة وذيل عالي المنبت. ويمكن العثور على صور تظهر ثبات السلالة بالنسبة لهذه الصفات في أعمال فنية قديمة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية وكذلك في سجلات الرحالة الأولين. تحدث ماركو بولو عن تصدير الأحصنة من اليمن إلى الهند في القرن الثالث عشر، كما ذُكِرَتْ أحصنة من السهول الساحلية لعُمان في سجلات للتجار مطلع القرن السادس عشر. كذلك عُرِف عن الحصان

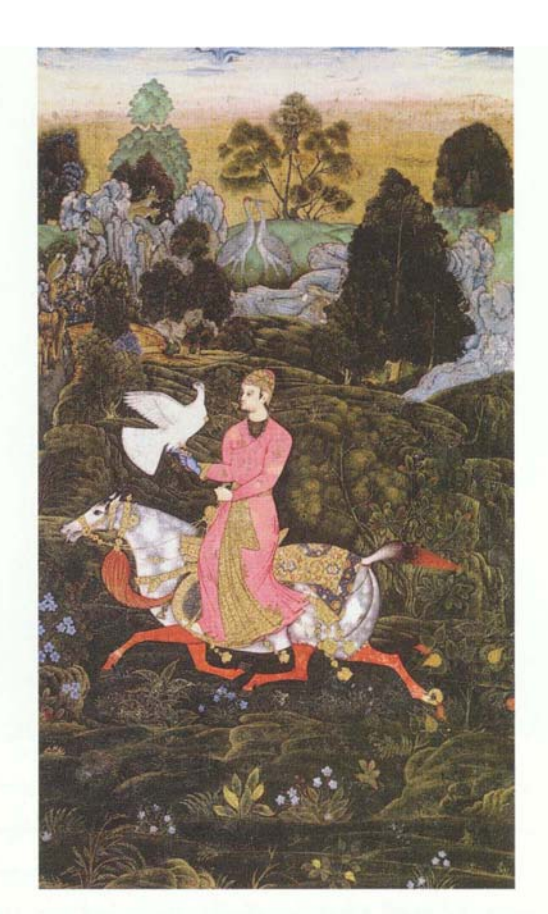
فارس عربي
لأدولف شراير
(١٨٢٨ - ١٨٩٩).



العربي أنه كان يُصدَّر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

يدور النقاش حول الموطن الأصلي للأحصنة العربية الأولى، ولكن من المقبول عموما أنه أتى من الحدود الشمالية للهلال الخصيب أو من الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية. وفي كل من هاتين المنطقتين كانت توجد ذات مرة مراع طبيعية تشكل بيئة داعمةً لتطور الأنماط الأولى. وعلى الرغم من ذلك فإن سلالة الحصان العربي عاشت بكل تأكيد إلى جوار البشر الذين أثروا فيها وعملوا على تشكيلها منذ أن تم استئناسها لأول مرة من قبل البدو الرحل في شبه الجزيرة العربية بعد فترة قصيرة من اعتمادهم على الجمال. إن قدرة الجمال على تحمل العطش وحمل كميات كبيرة من المياه كانت عاملاً حاسماً للحياة في الصحراء لكلٍ من البشر وأحصنتهم، نظراً لكون الحصان يشرب كمية اكبر بحوالي ثمانيِ مرات من ما يشربه الجمل. كما كان حليب النوق غذاءً تقليديا للأحصنة العربية منذ أقدم العصور وإلى الآن. فالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (١٩١٨-٢٠٠٤)، مؤسس ورئيس الإمارات العربية المتحدة، الذي عرف عنه دعمه الكبير للخيول العربية، كان يحتفظ بقطيع من النوق الحلابة لتسد حاجة أفراسه، وقد وصف الجمل على أنه «الرفيق والنصير للخيل العربي»(٢).

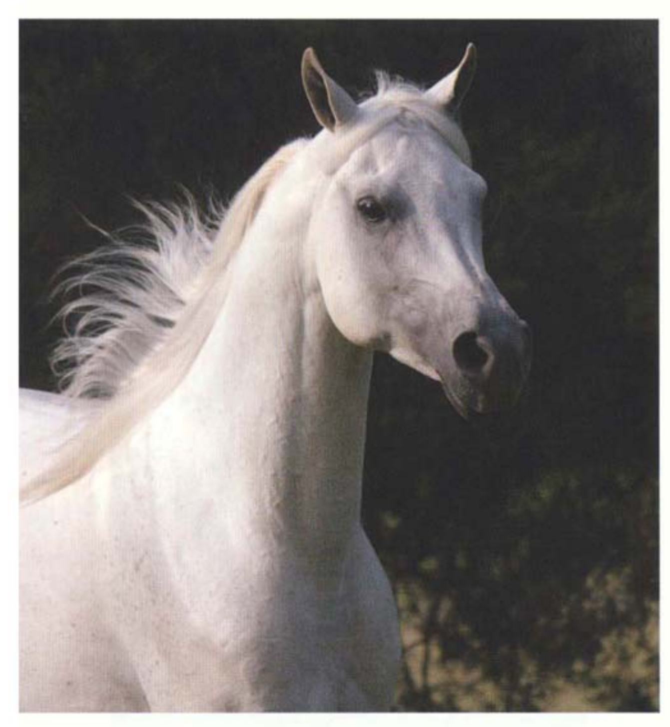
زرعت متطلبات الحياة في الصحراء الصبر والجلد في كل من الناس والأحصنة، ورَعَت علاقة غاية في القرب. كان على الأحصنة أن تترعرع على الغذاء الشحيح وحصص منخفضة من الماء في شروطٍ صعبةٍ من الجفاف اللاذع بينما تكون مستعدة للتسابق بسرعة في نزاعاتٍ ضارية ضمن صراع الصحراء بين القبائل المختلفة. حفظت أنساب الأحصنة من خلال التراث الشفهي لقرون عديدة، وقد بنيت عليها أيضا أشجار الأنساب الأولى مكتوبة من القرن الرابع عشر حيث كانت تحفظ بعناية كأشجار أنساب البشر، ويتتبع النسب دائماً من الأصول والفروع الأنثوية. الأحصنة الأصلية، تلك التي من أنساب صافية، لا تتم مزاوجتها بأحصنة غير أصيلة، أما الحيوانات الفاقدة للصفات الوراثية المرغوبة فلا يسمح لها بالتزاوج على الإطلاق وذلك لكي



السلطان إبراهيم عادل شاه الثاني يصطاد مستعينا بصقر، حوالي ١٥٩٠، تعزا إلى بيجابور.

يرسخ مع الزمن مخزون من الصفات المرغوبة الراجحة.

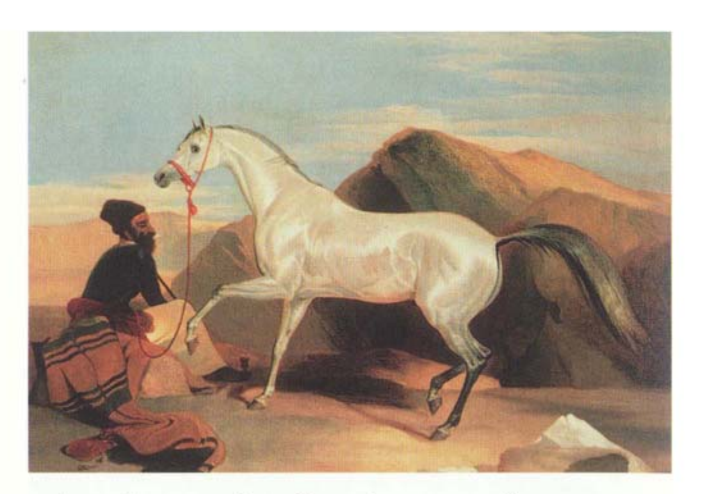
الحصان العربي هو بشكل رئيس حصان حرب، بينما كانت تستخدم الجمال كدابة تحميل، وعلى النقيض من التقاليد الغربية فقد كانت الأفراس هي التي تمتطى في المعارك. وفضلت على الفحول لكونها أكثر انصياعا وأقل ميلا نحو تحدي الأحصنة الأخرى. وقد قُدِّرت الأفراس أعظم تقدير وغالباً ما كانت تبيت ضمن خيمة العائلة وتترك مع الأطفال. لذا فحبها للمكافأة



الوجه ذو الجبهة العريضة صفة مميزة لسلالة الحصان العربي.

والتقدير وتواصلها مع البشر طور عندها الحساسية واللطف، أما التزاوج الاصطفائي فقد عزّز من جمالها الرائع. ومع الزمن قادت ممارسات التزاوج التقليدية هذه إلى حصان مصقول ذي صفات طبيعية بأفضل أشكالها، وبقدرةٍ على تحمل المشاق اكتسبها من موطنه الصحراوي وبصفاء وراثي يضمن قابلية طبيعية لنقل أفضل الصفات التي يتحلى بها إلى ذريته. وأصبح الحصان العربي أصلا لسلالات متعددة كالوالير الأسترالي، والأرلوف تروتير، وربما الأشهر على الإطلاق، الإنكليزي الأصيل.

قد يبدو غريبا ربما بعض الشيء وصفُ حصان وجد في مناطق صحراوية بالكامل بأنه «إنكليزي» أو «أصيل»، ولكن مع مرور السنين تطورت السلالة



فحل عربي لأدوين لاندسير عام ١٨٢٤.

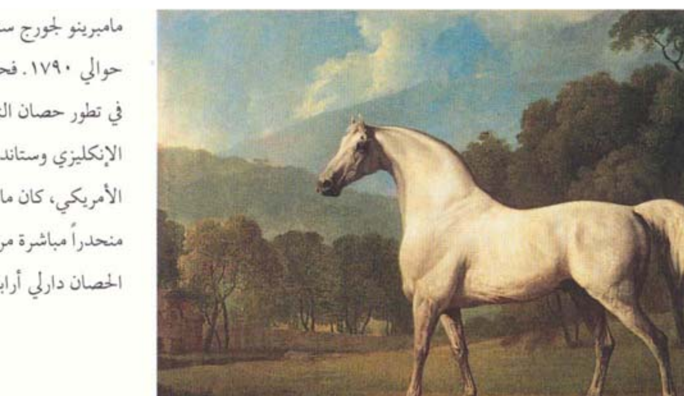
بحيث تمايزت عن أسلافها. تعرف أحصنة أصيلة في يومنا هذا بأنها وبشكل رئيس أحصنة سباق، ومع ذلك كانت سباقات الأحصنة في إنكلترا تقليداً عريقاً في ذلك الوقت وبلغت أوج شعبيتها خلال فترة حكم الملك تشارلز الثاني (١٦٦٠-١٦٨٥) لتكون سابقة على تأسيس السلالة. لم تُثبت وترسَّخ فحول التزاوج «لأحصنة العدو» بشكل جيد حتى القرن السابع عشر، لكن تمت مزاوجتها مع سلالات ذات أصل محلي ومستورد بدلا من مزاوجتها مع سلالة واحدة بحد ذاتها.

إن تاريخ وصول أول حصان عربي أصيل إلى بريطانيا لا يزال موضع نقاش إلا أن ذلك لم يكن قبل القرن العاشر. أشار السير توماس بلاندفيل في دليله للفروسية من العام ١٥٥٠ إلى «الأحصنة التركية»، ولكن في ذلك الوقت كانت سوريا ومعظم شبه الجزيرة العربية جزءاً من الإمبراطورية التركية[١]، لذا كان من الممكن أن تطلق هذه التسمية على أحصنة من مناطق شرقية مختلفة(٣). على الرغم من ذلك فإن السفير التركي لم يُرسل إلى بلاط الملكة إليزابيث الأولى لإطلاق مفاوضات تجارية، إلا بحلول العام

(١) الإمبراطورية العثمانية

١٥٨٠ لذا من المستبعد أن تصل أحصنة عربية ممتازة قبل ذلك الوقت.
في عام ١٦٦٧ ويليام كافينديش، آنذاك دوق نيوكاسل ومشهود له بمعرفته بالأحصنة، كتب عن الأحصنة العربية يقول: «لم أشاهد من هذه الأحصنة إلا حصاناً واحداً»، ويذكر بأنه قد بيع مقابل ٥٠٠ جنيه إسترليني من قبل السيد مارخام إلى الملك جيمس الأول، مشيرا إلى تاريخ بين عامي ١٦٠٣ و ١٦٢٥. لقد ذكر حصان باسم مارخام أرابيان في نسخة كتاب الأنساب لعام ١٨٩١ وقد ذكر فيه بأنه الحصان الأول من نوعه في إنكلترا مع أن المسؤولين عن السجلات قد شككوا في صحة هذه الرواية. يبدو أنَّه الحصان نفسه على الأغلب، ومن الواضح أنه سواء أكان الأول أم لم يكن، فإنه قد كان من الأحصنة القليلة التي نالت هذا الاهتمام المستحق كلّه من قبل كتّاب مختلفين. وتحدث نيوكاسل عن إشاعة مفادها بأن «الحصان العربي الحقيقي» يمكن أن يباع بسعر من ١٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ جنيه إسترليني، والذي اعتبره «ثمنا باهظاً وغير معقول»(٤). ولعلّه على حق بما أنه من الممكن الحصول اليوم على حصان فتي عربي بهذا السعر، لكنه سيدهش لمئات الألوف التي تدفع اليوم للحصول على أفضل النماذج من هذه السلالة.

ومع حلول عام ١٧٣٠ لم تعد الخيول ذات المنشأ الصحراوي بهذه الندرة وأصبحت الأحصنة الثلاثة التي جاء منها الحصان الإنكليزي الأصيل في أيد بريطانية. وكانت هذه الأحصنة هي دارلي أرابيان، وغودولفين أرابيان، وبيرلي تورك، وقد سميت هذه الأحصنة جميعها نسبة إلى مالكيها، كما كان شائعا في تلك الأيام. كان دارلي أرابيان هو الوحيد منها الذي يحمل شهادة تثبت بأنه حصان عربي أصيل، وعلى الرغم من ذلك بقيت الرواية القائلة بالأصل العربي لجميع الأحصنة سائدة، وكثيرا ما يتنازع عليها. ولكن حتى لو كان الاثنان الآخران تركيين إلا أن تأثير الحصان العربي قد صاغ ووجه عملية تطورهما. من هذه الفحول الثلاثة وثلاثين فرساً متعاقبة تطور «حصان العدو» من أواخر القرن السابع عشر إلى الحصان الأصيل الإنكليزي، الثوروبريد، وهي تسمية استعملت لأول مرة في عام ١٨٢١، لكنها معروفة



مامبرينو لجورج ستابس، حوالي ١٧٩٠. فحل مهم في تطور حصان الثوروبريد الإنكليزي وستانداردبريد الأمريكي، كان مامبرينو منحدراً مباشرة من الحصان دارلي أرابيان.

في أرجاء العالم كله اليوم.

إن حصان الثوروبريد هو مثال مباشر على الحصان المطور من قبل الإنسان لغرض واحد فقط، تحديدا العدو بسرعة فائقة. ولأجل هذه الغاية لم يكن المراد من السلالة العربية بشكل رئيس تقديم السرعة وإنما القدرة على البقاء مخلصة لصفاتها وهي عامل جوهري عند إنشاء سلالة جديدة. لم يربح أي من الفحول الأولى أي سباق، لكن ٨١ ٪ من مورثات الثوروبريد الحالي تنحدر من ٣١ سلفاً معروفاً، والذين بدورهم ينحدرون عبر الفرع الذكري من تلك الفحول الصحراوية الثلاثة.

في كتابه أصل الأنواع أشار تشارلز داروين مراراً إلى تطور أحصنة السباق كمثال على الأسلوب الذي يمكن أن يتبعه الإنسان في استخدام الاصطفاء الطبيعي لأهدافه الخاصة. ولدى دراسته عملية الاستئناس قال:

«قد تُعزى بعض التأثيرات إلى النشاط المباشر والمحدد لظروف الحياة الخارجية وبعضها إلى العادات؛ ولكنه سيكون رجلاً جريئا من سيشرح بمثل هذه الوسائل الاختلاف بين حصان السحب وحصان السباق... المفتاح

ناتويز، الفائز بسباق سانت ليدغير عام ١٨٤٣.



هو قدرة الإنسان على الاصطفاء التراكمي: تعطي الطبيعة تنوعات ناجحة؛ يضيفها الإنسان باتجاه معين مفيد له».

وقد أشار إلى أن هذه هي العملية التي أدت إلى كون حصان السباق الإنكليزي أطول وأسرع من سلفه من السلالة العربية، وتابع ليتطرق بشكل خاص إلى أولى أحصنة السباق العظيمة لكي يوضح فكرته:

«فعلى سبيل المثال، يجب أن يكون هنالك حدود لسرعة أي حيوان أرضي، حيث يتوقف ذلك على الاحتكاك الواجب التغلب عليه، وعلى وزن الجسم الذي يجب حمله، وعلى قوة التقلص في الأنسجة العضلية. ولكن ما يقلقلنا هو أنَّ الأنماط المستأنسة من الأنواع نفسها تختلف عن بعضها البعض في كل صفة تقريبا أكثر من الاختلاف بين الأنواع المختلفة من الجنس نفسه... بخصوص السرعة التي تعتمد على خصائص جسدية عِدّة، فإن إكليبس أسرع بكثير وهو كحصان جرّ أقوى بما لا يُقارَن من أي نوعين طبيعيين ينتميان إلى الجنس نفسه».(٥)

ولد إكليبس في عام ١٧٦٤، ولم يغلب في المضمار أبداً وربح ثمانية عشر سباقا بين العامين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ وبمجهود قليل واضح. هو الحفيد الأكبر

لدارلي أرابيان، وكان الوحيد من بين فحولٍ عدّة مذهلة تنحدر من السلالات الثلاث. من أشهرها فلاينغ تشيلدرس، المَولود في عام ١٧١٤، ابن دارلي أرابيان ويقال إنه أسرع حصان ولد قاطبة؛ وهيرود، حفيد بيرلي تورك، المولود في عام ١٧٥٨ والذي فازت ذريته بأكثر من ألف سباق؛ وكادي، المولود في عام ١٧٣٤، ابن غودولفين أرابيان، والذي أوجدت ذريته من الفرع الأنثوي سلالة سباق العربات الشهيرة، الستانداردبريد الأمريكي. هنالك فحول أخرى لم تعد معروفة كثيرا اليوم ولكن مع ذلك ساهمت بسلالتها العربية في حلبات السباق، كما تظهر أسماؤها، ومنها أرابيان المجهول، دي أركيس تشيستنوت أرابيان، ليدز أرابيان، ألكوكس أرابيان. ويعتبر ألكوكس أرابيان أحد حصانين مسؤولين عن إدخال اللون الرمادي إلى سلالة الثوروبريد الأصيل. ومنذ العام ١٧٧٠، ومع ثبات وترسخ سلالة الثوروبريد ، لم تعد تُدخل السلالة العربية عليها وحلت محلها سلالات محلية.

منذ ذلك الوقت أصبح الثوروبريد محطّ اهتمام رياضة عالمية مكلفة ومزدهرة. ولا زالت حلبة السباق في نيوماركيت، والتي شيدها تشارلز الثاني، إلى اليوم واحدة من أهم مراكز التسابق في العالم، ويعود ذلك بدرجة عالية إلى الطريقة التي شُكل بها الثوروبريد ليتلاءم مع مهامه. إنه حصان ذو أبعاد متناسقة، وأطراف نظيفة، وهو قوي في المسافات القصيرة وذو حارك منحدر يدعم مجموعة من الحركات المقتصدة خلال الحركة نحو الأمام، على عكس السلالات ذات الحركات المعقدة والخطوات العالية التي لا تتناسب مع حلبات السباق. ويعتبر الثوروبريد صورة مثالية عن الحصان المصنوع من قبل الإنسان، وفي حين أنَّ ذلك يجعل منه حيواناً يعامل بعناية فائقة في حال نجاحه، إلا أن النماذج غير الموفقة أو أحصنة السباق الكبيرة في العمر أو الفاشلة يمكن لحياتها أن تكون صعبة.

أما حكاية الأبالوسا فهي مختلفة تماما ولولا التفاني لما بقيت هذه السلالة إلى القرن العشرين. ولا ُيعرف اليوم لألوان كسائه المرقط الرائعة فحسب بل للدور الذي لعبه أيضا في تاريخ شعب نيز بيرسي من الزاوية



فيفا باتاكا، الفائز ببطولة هونكونغ وكأس تشاتر في عامي ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧.

الشمالية الشرقية لأوريغون. للمورثة المسؤولة عن الترقيط جذور قديمة، بناء على ما ناقشناه في الفصل الأول، ونماذج البقع الموجودة على الكساء أو اللطخات داكنة اللون قد تكون أثراً باقياً يدل على الحاجة للتنكر. ويعتقد أن الأحصنة الأمريكية المرقطة قد انحدرت من سلالة مرقطة ضمن الأحصنة الإسبانية التي أحضرها المحتلون في القرن السادس عشر، ولما أعجب شعب نيز بيرسي في وادي بالوس في أوريغون بهذه الأحصنة الغنية بالألوان، كانت تلك لحظة حاسمة في تاريخ كل من الأحصنة والبشر.

نيز بيرسي هو شعب تكيَّفَ بسهولة وخرج بأفكار جديدة من الغرباء وكان من أوائل السكان الأصليين لأمريكا الذين مارسوا التربية الاصطفائية. كانوا قبيلة مستقرة من الجامعين الذين يعتمدون في غذائهم على سمك السلمون خلال موسم هجرته بدلا من اصطياد جاموس بوفالو تائه . كانوا يستعملون أحصنتهم المرقطة بشكل أساسي للتسابق وخلال الطقوس. ومع الوقت أصبحت الأحصنة التي يربونها تعرف باسم «أبالوسا» أي «حصان بالوس» وله عدة ألوان بارزة؛ تشبه بقع النمر ألوان كسائه فاتحة وثمة علامات سوداء أو كستنائية اللون تنتشر على سائر أنحاء جسمه؛ والكساء المبقّع

جسمه ذو لون راسخ ومؤخرة بيضاء معلمة ببقع داكنة. أما «ندف الثلج» فله جسم داكن وبقع بيضاء. وهنالك العديد من التنوعات المختلفة لهذه النماذج ، وبينما تبقى بعض الأحصنة بألوانها التي ولدت بها طيلة حياتها فإن البعض الآخر يبدل ألوانه باستمرار على مر السنين. وهنالك صفة أخرى مميزة للأبالوسا وهي الصُلبة، ولها حلقة بيضاء حول العين، تمنحها مظهرا قلقا إلى حد ما، على الرغم من أنها تكون عادة في مزاج جيد، وذات طبيعة ودودة، وقادرة على التعلم بسهولة.

لقد أعجِبَ شعبُ نيز بيرسي بها لألوانها وقدرتها على التحمل وكونها عملية، لذا بحلول منتصف القرن الثامن عشر توطدت قطعانها بشكل جيد وذكرت في سجلات بعثة لويس وكلارك عام ١٨٠٦. وساعد شعب نيز بيرسي البعثة وكانوا في البداية فخورين بصداقتهم مع المستوطنين البيض، ولكن في عام ١٨٥٥، بدأ الحاكم إيفان ستيفنس بالضغط عليهم ليتخلوا عن أراضي قبلتهم التاريخية والبقاء في المناطق التي خصصت لهم من قبل القادمين الجدد. كانت فكرة أن الأرض يجب أن يكون لها حدود أو ملاك محددون غريبة على السكان الأصليين ؛ كذلك كان إيمانهم بأن الأرض لا يملكها إلا الخالق غريبة على الحاكم ستيفنس. بعض زعماء القبائل



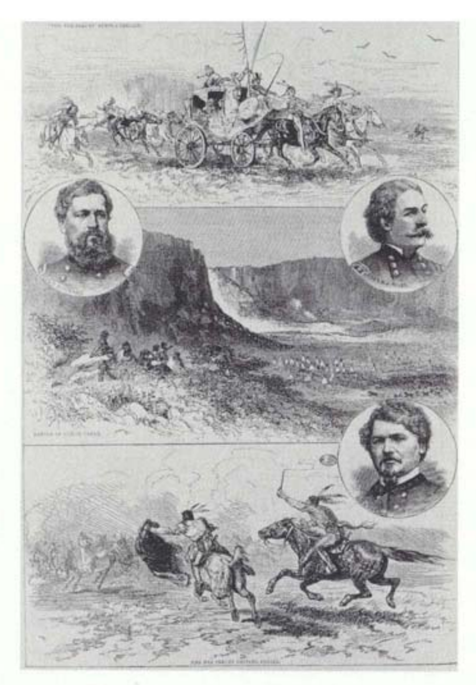
الخطم المرقط ونظرة العين ذات الصلبة البيضاء هما علامتان مميزتان لحصان الأبالوسا كما هي بقعه المميزة.

وافقوا على التخلي عن الأراضي لاعتقادهم بأن ما سمح لهم بالاحتفاظ به سيضمن الأمن لقومهم. ولكن معاهدة جديدة في عام ١٨٦٣ أخذت منهم أكثر من ثلاثة أرباع الأرض التي تركت لهم ومن ضمنها وادي والوا حيث كان يقيم من رفض التوقيع على أي اتفاق من شعب نيز بيرسي. حافظ سكان وادي والوا على سياسة المقاومة السلمية لأربعة عشر عاماً على الرغم من ترهيبهم المتزايد والضغط عليهم بالقوة لكي يرحلوا.

أخيرا، وبينما كانت القبيلة تحاول جاهدة قطع النهر الفائض نتيجة ذوبان الثلوج، قامت جماعة من الرجال البيض بسرقة بعض من قطعانهم، ومع إسراعهم لجعل باقي القطيع يعبر النهر قبل أن يسرق أيضا، غرق العديد منهم. وبينما حاول أحد اشهر قادتهم، هينموت تويالاكيت، والمعروف أكثر باسم الزعيم جوزيف، التخفيف من غضبهم وإبقاء العلاقات السلمية ممكنة قامت مجموعة صغيرة من المحاربين بغارة ليلية طلبا للثأر وقتلوا خلالها أحد عشر رجلا أبيض. قال الزعيم جوزيف بأنه كان مستعداً للتضحية بحياته بكل سرور لو كان ذلك يلغي ما اقترفوه، ولكنه وقف إلى جانب محاربيه، متفهما حنقهم. وبينما كان يحاول تجميع قومه والقطيع كي يغادروا من دون سفك إضافي للدماء، قام الجيش بمهاجمتهم. وعلى الرغم من ميله إلى الوسائل السلمية، فقد كان الزعيم جوزيف قائدا عسكريا بارعا، وعلى الرغم من كونهم أقل عددا بواقع اثنين إلى واحد، إلا أن شعب نيز بيرسي هزم مهاجميه وجعلهم يهربون. انطلق شعب نيز بيرسي بكامل قبيلته المؤلفة من ٧٠٠ فرد منهم ٢٥٠ محارباً يحملون فقط جميع متاعهم ويسوقون قطيعا مكونا من ٢٠٠٠ حصان، في رحلة شاقة عبر تضاريس وعرة. كانوا يعلمون بأنهم لا يستطيعون العودة إلى ديارهم أو حتى القبول بالعيش في محمية الآن من دون عقاب، لذلك عقدوا العزم على عبور الحدود الكندية التي كانت على بعد ١٣٠٠ ميل.

توقفوا معتقدين بأنهم وصلوا إلى هدفهم، منهكين وجائعين، لكنهم كانوا مخطئين، إذ لم تكن تفصلهم عن كندا إلا مسافة قصيرة من جبال بير

توثيق لهروب قبيلة نيز بيرسي في مجلة هاربيرس ويكلي (٢٧ تشرين الأول عام ١٨٧٧).



بو في مونتانا. وهنالك في شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٨٧٧، شن الجيش هجوما مفاجئا، حيث قتل ٨٠ فردا من شعب نيز بيرسي من بينهم حوالي ٦٠ طفلا وامرأة، قبل أن يجبروا على تسليم أنفسهم وأحصنتهم، التي صودرت جميعها وذبح العديد منها. فأصبحت الأحصنة المرقطة رمزاً عظيما للمقاومة، مما دفع الجيش لإصدار أوامره بالقضاء على أي حصان مرقط تتم مصادفته. وفي إحدى المرات، سيق ٤٠٠ رأس منها إلى الوادي حيث قتلت. ومع تقبل شعب نيز بيرسي لحياة الزراعة التي أجبروا عليها، سمح لهم بالاحتفاظ ببعض من أحصنتهم ولكن بشرط أن يزاوجوها مع سلالة من أحصنة الجر، مما جعل نسلها غير صالح للقتال أو للصيد.

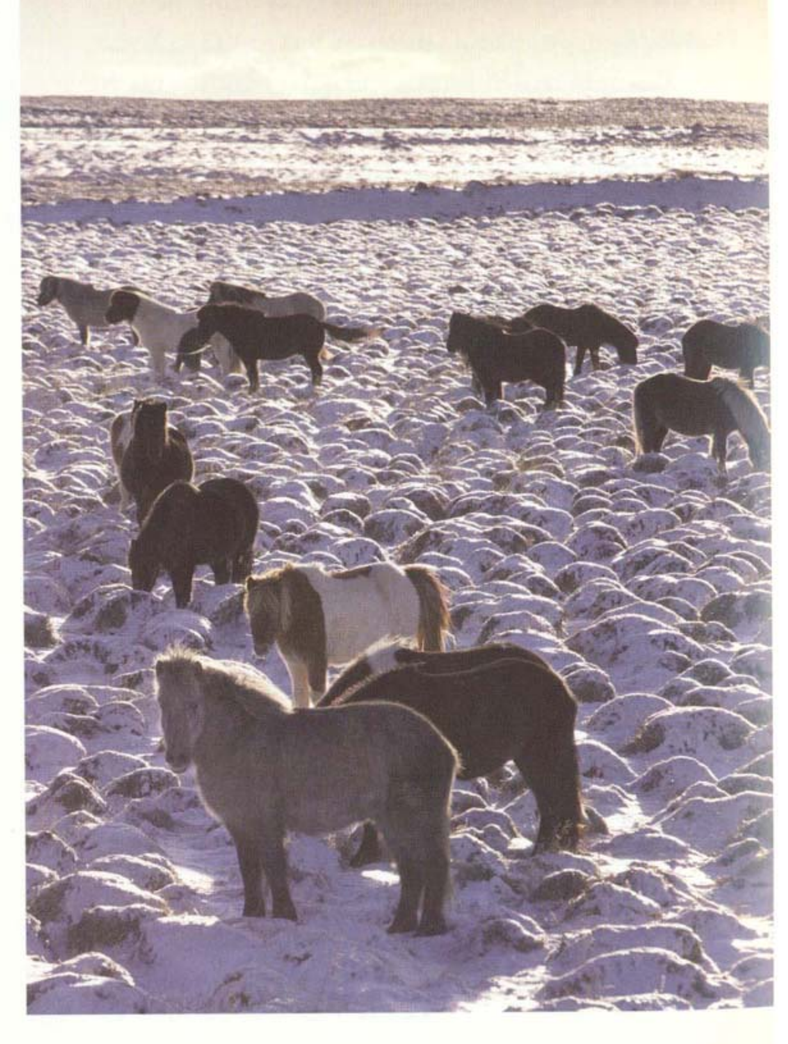


رسم على قطعة جلد يصف هجوما لسرقة الأحصنة. التلوين المعكوس للونين الأبيض والأسود في الأحصنة المرقطة يعرف باسم «نُدْفَةُ الثَّلْج» في الأبالوسا المعاصرة.

وبحلول عام ١٩٣٧ لم يبق في العالم من الأبالوسا سوى بضع مئات، ولكن أحد مربي المواشي من أوريغون، كلود ثومبسون، كان بعيد النظر وخطط لجمع سلالة للاستيلاد من الأحصنة الباقية. وشيئا فشيئا، نهضت صحوة، وتأسس في عام ١٩٣٨ نادي حصان الأبالوسا في موسكو بولاية أيداهو. ومنذ ذلك الحين أصبح الأبالوسا من أكبر السلالات المسجلة في العالم، وأصبح لهذه الأحصنة المتنوعة الاستخدامات مستقبل آمن، فاكتسبت شعبية في العديد من المجالات ابتداءً من ركوب الخيل في الطبيعة وانتهاء بمسابقات الفروسية.

في هذه الحالة يتحمل البشر مسؤولية صعود وسقوط وإحياء الأبالوسا، مما يعكس حالة الأحصنة تحت رحمة البشر. إن الرحلة الملحمية للزعيم جوزيف وقبيلته أعيد إحياؤها من جديد من قبل نادي حصان أبالوسا من قبيل الذكرى، وفي كل عام يقطع ٢٠٠ خيال جزءاً من الطريق وهم يمتطون أحصنة أبالوسا مسجلة. وأصبحت فلسفة الزعيم جوزيف وتفانيه في سبيل

شكل الحصان
الأيسلندي نتاج
بيئته.



بقاء شعبه مرادفا للرغبة في التعايش السلمي بين البشر. ولدى وفاته في عام ١٩٠٤ كان سبب يعود إلى شدة الحزن والأسى.

وبينما كان الانتشار الواسع لنسلها هو مفتاح البقاء للعديد من السلالات، تكفلت العزلة بضمان بقاء سلالاتٍ أخرى. وكان الحصان الأيسلندي واحداً من أبرز ممثلي المجموعة الأخِيرة، الذي صمد نتيجة سياسة عزل متعمدة، غدت بدورها قانونا في عام ١٨٨٢. وحتى اليوم، لا يسمح بعودة حصان أيسلندي غادر أيسلندا. إذ لا يوجد أصلاً في أيسلندا أحصنة محلية، ولكن وصلت السلالة التي ارتبط تطورها ارتباطا شديدا بتضاريس أيسلندا وعزلتها إلى هنالك لأول مرة في القرن التاسع قادمة مع مستوطنين من النرويج. وتبع ذلك قدوم حيوانات محلية مع مستوطنين جدد من مستعمرات شعوب الشمال[1] في اسكندينافيا، والجزر الغربية لاسكتلندا وأيرلندا. وانحدرت السلالة المؤسسة التي تطور منها الحصان الأيسلندي من الأنماط القوية السائدة في هذه المنطقة. وهنالك اعتقاد شائع بأن البرلمان الأيسلندي أصدر في القرن العاشر مرسوما يمنع إدخال أحصنة من نوع آخر إلى أيسلندا، للحفاظ على مجموعة الأحصنة المحلية قوية وخالية من الأمراض. وهنالك نقاش دائر حول الوقائع التي بنيت عليها هذه الرواية، وقد تكون بكل بساطة صعوبة نقل الأحصنة إلى أيسلندا هي وراء صفاء هذه السلالة. مع ذلك، لا يزال القانون الذي أقر في عام ١٨٨٢ ساري المفعول إلى الآن، ليضمن أن الحصان الأيسلندي هو واحد من السلالات القليلة الصافية فعلا والتي تنحدر مباشرة من السلالة الأولى. مما ضمن بقاء معظم أمراض الخيل المعدية مجهولة في أيسلندا، وسمح للسلالة أن تحافظ على صفاتها الأصلية. كما ضمنت سياسةُ الانتقاء أيضا وأكل السلالات الضعيفة بقاءَ أقوى الأحصنة لتنقل مورثاتها. ولا يوجد كلمة في اللغة الأيسلندية مرادفة لـ«بوني»، وعلى الرغم أنه من النادر أن يتجاوز ارتفاع الأحصنة الأيسلندية الأربع عشرة قبضة، إلا أنها تعرف دائما بأنها أحصنة،

(١) الشعوب الاسكندينافية قبل اعتناقهم المسيحية.

كما أن لعظامها كثافة تمنحها قدرة على الحمل مماثلة لقدرة حيوانات أكبر بكثير، مما يجعلها قادرة على حمل شخص بالغ. ورغم نضوجها البطيء، فإنها عادةً تُترك وفقا للتقاليد في قطعان في البرية إلى أن تبلغ عمر الأربعة أعوام، لكنها تعمر طويلا، وأكبر المعمرين وفقاً للسجلات بلغ عمره ٥٥ عاماً.

وللأحصنة الأيسلندية طيف واسع من الألوان، بعضها غير مألوف كالبني الفاتح المائل إلى الزُرقة، أو الأرقش الفضي، كذلك طورت مشية غير مألوفة أيضا للتغلب على وعورة الأرض. فبالإضافة إلى طرق المشي المعروفة: المشي، والخبب، والهذب، والعدو؛ فإن للحصان الأيسلندي مشية جانبية ذات إيقاع رباعي تدعى تيلت tölt ، وهي عدو منتظمة ذو تغطية-أرضية ومريحة جدا للخيّال. ولبعضها أيضا مشية خامسة، العدو الطائر، وهي مشية جانبية ثنائية الإيقاع يمكن أن تصل سرعتها لـ ٤٨ كم/سا وغالبا ما تستخدم عند التسابق. وتعد طرق المشي هذه طبيعية بالنسبة إلى هذه السلالة، وتظهر حتى لدى الأمهار عند لعبها. وتعتبر هذه الأحصنة فائقة الثبات وذات انطلاقة أمامية، أي أنها أقل ميلا للممانعة أو للجفل من بعض السلالات الأخرى. كما أنها ُتعرف بإقامتها لروابط قوية مع خيّالها الذي تثق به، كما أن خطاها الواثقة جعلتها لا تقدر بثمن في حالة التضاريس الموجودة في مواطنها، وأكسبتها شعبية في البلدان الأخرى أيضاً. فهي تشاهد اليوم في مختلف المسابقات والنشاطات الفروسية ابتداء من سباقات التحمل وانتهاء بنادي البوني للأطفال. تجعل خصالها الممتازة التعامل معها سهلاً، بينما يفوضها حجمها الصغير وقوتها الكبيرة بحمل شخص بالغ بمنتهى السهولة وبتكلفة منخفضة.

إن القيمة العملية للحصان الأيسلندي في موطنه لا تزال إلى يومنا هذا متمثلة في الوصول إلى مناطق البلد البرية بطريقة لا تدمر النظام البيئي. وحتى عقود قريبة خلت، كانت الطرق الرئيسية لا تزال قليلة في أيسلندا، لذا لعب الحصان دورا حيويا كحيوان تحميل ووسيلة نقل. فلا تزال الطريقة التقليدية التي تكمن بامتطاء حصان بينما تبقى الأحصنة الاحتياطية



الحصان المحلي كممثل لوطنه الأم على طابع أيسلندي.

الأخرى حرة طليقة إلى أن تعود الحاجة إليها، قائمة إلى يومنا هذا؛ وغريزة العودة إلى الموطن الموجودة لدى هذه الأحصنة هي محط ثقة عالية بحيث من المعتاد أن تتم استعارة حصان ومن ثم إطلاقه بكل بساطة، مشفوعا بالإدراك بأنه سيجد طريقه إلى المنزل بنفسه. تعتبر اليوم عطلات ركوب الخيل التي يمتطى فيها الحصان الأيسلندي من عوامل الجذب السياحي الرائجة، ولكن يتوجب على أي خيال يأخذ معه قبعته أو حذاءه الخاص أن يعقمهما قبل أن يدخل إلى البلد وعلى أي معدات أو أدوات يتم إدخالها أن تخضع لعمليات تعقيم صارمة.

تتطلب البيئة الأيسلندية الصلابة والمرونة من أي كائن يعيش هناك. فالطقس القاسي، وثوران البراكين، والغذاء الشحيح، كل ذلك صقل السلالة بحيث أكسبها طباعا وصلابة استثنائيتين. فمن أكثر المهام شيوعا التي يقوم بها الحصان الأيسلندي كحيوان عمل، سحب العربات، وحمل المتاع، وعليه أن يكون قادرا على السباحة في الأنهار المتجمدة حاملا راكبا أو بضائع. فقد حملوا القابلات ليقمن بالتوليد، والموتى ليصار إلى دفنهم، وغالبا ما كانوا يُمتطون فقط في سرج من جلد الغنم مع أنشوطة من حبل حول الفك السفلي كلجام، وهو أسلوب استعمل أيضا من قبل الخيالة من سكان أمريكا الأصليين. وعلى عكس العديد من السلالات فقد كانت العناصر لا الإنسان هي من شكلت الحصان الأيسلندي على مر الزمان، فالطقس العاصف والبارد والذي تغلب عليه الرياح دفعه ليكون صغير الحجم ذا قدرة على التحمل وذا كساء طويل ليدفئه. ريش القوائم يساعد على مقاومة الماء وجهاز هضمي قوي واستقلاب ذو كفاءة عالية يعني أن في إمكانه البقاء والاستمرار على أكثر الأغذية شحاً كما أنه معرض للاكتناز عندما يكون الرعي جيدا. وقد ساعدت التضاريس الوعرة على تطور الحوافر القوية والوقفة المتينة، بينما حثت البيئة الصعبة على الجلد والمرونة. وتبرز الثقة المتبادلة بين الحصان والخيّال عند أي موقف صعب، وتكمن القيمة التي تحتلها هذه الأحصنة عند الأيسلنديين في اعترافهم بأهميتها لتطور الناس.





الملك الانكليزي جون يصطاد غزالا، حوالي ١٢١٠. تعكس صورتي الصيد في الحقل والمسابقة، تطور الأحصنة لتستخدم في مختلف الأنشطة الأرستقراطية.

من المتعارف عليه أن تعطى لجميع أحصنة هذه السلالة أسماءً أيسلندية، حتى وإنْ ولدت بعيدا في الخارج ولم تر أرض أجدادها.

إن إدراك الإنسان وفهمه للحصان كمورد أنتج بشكل مباشر كل هذه السلالات والأنماط من الأحصنة، بما فيها تلك التي تعتبر برية، والمنتشرة في أرجاء العالم اليوم.

غالبا ما كانت الطريقة التي ُطورت بها هذه السلالات والأنماط بلا رحمة أو حتى سرية. فعندما منع الملك هنري السابع في العام ١٤٩٥ تصدير أي حصان من بريطانيا يتجاوز ثمنه ٦ شلنات و ٨ بنسات فإنه بكل بساطة شجع تعريب الأحصنة، ولهذا بحلول عام ١٥٣١ جرم الملك هنري الثامن التصدير غير المرخص للأحصنة. وقد تضمن ذلك تصدير الأحصنة إلى اسكتلندا، وذلك خوفا من استخدامها لتقوية الجيش الاسكتلندي ومن عودتها وقد امتطتها القوات المهاجمة. وأعيد تفعيل المنع مرة أخرى من قبل الملكة إليزابيث الأولى في العام ١٥٦٢ ، وحتى بعد تشديد العقوبة لتصبح السجن مدة سنة لم ينجح الأمر. وعلى الرغم من استيرادها بالآلاف وتحديدا خلال فترة حكم الملك هنري الثامن لم يغادر التدفق الدائم من الأحصنة إنكلترا لا براً ولا بحراً.

إن تنقل الأحصنة حول العالم لأسباب تجارية، ولعمليتها وغالبا، لكونها رمزا للمكانة، كان لها وقع على تطور بل وحتى على بقاء السلالات المختلفة. إن الحفاظ على صفاء النسل كما في حالة الحصانين العربي والأيسلندي، أو الإدارة الحريصة للتزاوج المتصالب كما في تطور الثوروبريد الإنكليزي، جعل من الحصان على الأغلب ثمرة للذكاء والعلم كما هو ثمرة للطبيعة. وبينما أنقذ ذلك سلالات عديدة من الانقراض، فقد أدى إلى ضياع أخرى بالكامل، ولكن كما لاحظ داروين فإن متطلبات الغاية الإنسانية تبتدع أجندتها الخاصة. إن أخلاقية اعتبار أية أحياء أخرى على أنها مواد خام أصبحت موضع نقاش متزايد هذه الأيام ربما أكثر من أي وقت مضى، ومستقبل العلاقة بين البشر والأحصنة من المرجح أن يتبدل مع الأفكار

الجديدة للزمن المتغير. وحقيقة أن هنالك فعليا القليل من السلالة البرية أو المحلية تُلقي بمسؤولية ضخمة على عاتق الإنسان، وتظهر أن مستقبل تجمع مورثات الحصان هو كليا تحت رحمة حكمة الإنسان ونزواته.

هوامش

١ إلوين هارتلي إدواردز Elwyn Hartley Edwards, The Encyclopaedia of the Horse (لندن، ١٩٩٤)، صفحة ١٦٩.

٢ حسين أمير صادقي Hossein Amirsadeghi و بيتر أبتون Peter Upton, The Arabian Horse: History, Mystery and Magic (لندن، ١٩٩٨)، صفحة ٧.

٣ توماس بلاندفيل Thomas Blundeville, A Newe Booke containing the Arte of Ryding and breaking greate Horses (لندن، ١٥٦٠)، صفحة ٦.

٤ وليام كافينديش William Cavendish, A New Method, and Extraordinary Invention, to Dress Horses (لندن، ١٦٧٧)، الصفحتان ٧٢-٧٣.

٥ تشارلز داروين، أصل الأنواع (لندن، ١٨٧٢)، الصفحات ٢٢-٢٣، ٣١.

4- الطريق إلى الخلود

إن أول اتفاق عقده الإنسان كان مع النار، والثاني مع الحصان، فبالنار طوع محيطه، ولكن بالحصان فتح العالم.

هانك وانغفورد، رعاة البقر الضائعون

أسهم الحصان في تحقيق جوانب عديدة من تطور الإنسان، بتشكيله وصياغته للمساحات المادية والثقافية، والتي ينظر إليها عادة على أنها وظيفة داعمة. ففي الصين كان للأحصنة دور جوهري في عبور الأراضي الشاسعة والمكتنفة بالتحديات في كل من الحرب والإدارة اليومية للنقل والاتصالات والإمدادات. كانت الأحصنة وعرباتها تدفن مع مالكيها منذ مطلع القرن السابع عشر قبل الميلاد لترافقهم إلى العالم الآخر، كما أنه خلال فترة حكم سلالة زهو الغربية حوالي ١١٠٠-٧٧١ ق.م، ارتبطت القوة العسكرية بعدد عربات الأحصنة المتوفرة.

قدَّم إدخال أنسال جديدة من الأحصنة إلى بريطانيا خلال الاحتلال الروماني حيويةً هجينة إضافة إلى حجم وقوة أكبر للسلالات الصغيرة المحلية. كان تقدير الأحصنة في ويلز ومكانتها العالية ظاهرين للعيان، ويعودان في قدمها للعام ٩٥٠م عندما ترتب لدى ركوب حصان بسرج يضايق ظهره دفع غرامة مقدارها أربعة بنسات، وقد تصل إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ في حال تشقق الجلد. وساهم توفر الأحصنة المتزايد في ويلز خلال العصور الوسطى في التحول الذي طرأ على تغيير وجهات السفر والتجارة وتكتيكات المعارك.

وفي القرن الحادي عشر جلب ربورت دي بيليسم الأحصنة من إسبانيا إلى بويز[1] حيث أسس لسلالة من الأحصنة الممتازة حققت نجاحاً باهراً حتى أن ثلث أحصنة جيش الملك إدوارد الأول في معركة فالكيرك في اسكتلندا عام ١٢٩٨ كانت مستولدة هناك.

وقد لعب الحصان أدواراً متشابهة في تأسيس الحضارات عبر العالم،

(١) Powys مقاطعة في ويلز.



هانيوا حصان خزفي ياباني. أشكال من هذا النمط كانت تستخدم لتزيين وحماية القبور منذ العام ٢٩ ق. م. حتى القرن السادس الميلادي حيث حلت مكان أضاحي الحيوانات الحية وخدم المتوفى.

إلا أن هنالك ثقافات أصبح فيها الحصان من الخصائص الجوهرية التي تمثل الهوية الذاتية والثقافية لدرجة أن العلاقة، التي تبدلت وتحوّرتْ عبر الزمن، قد تمكنت من البقاء إلى يومنا هذا. وواحدة من أشهر ثقافات صهوة الحصان، هي تلك الموجودة في منغوليا، والتي ترسخت بشكل جيد عندما شق محاربو تيموجن أو جنكيز خان من القرن الثالث عشر طريقهم إلى الخلود على صفحات التاريخ. بدأت عقدة جنكيز خان ورؤيته الهمجية مع التوحد القسري لشعبه كي يتمكنوا من الوقوف في وجه الهيمنة الصينية. وبعد أن ضمن لنفسه مناطقه، أعد العدة لحملة توسعية نحو آسيا الصغرى، وروسيا، وبلاد فارس، وأوروبا، والهند، والتي تجاوزت فترة حياته واستمرت من قبل خلفائه طيلة القرن التالي.

كان مفتاح نجاح جنكيز خان يكمن في الأعداد الهائلة لفرسانه، ورايته السوداء، التي تطلب تكوينها قيام كل وحدة بتقديم خصلة من شعر كل حصان من أحصنتها لتحاك حرفيا مع بعضها البعض كرمز جبار للقوة المجتمعة. وقد هذّبت الحصان المحلي الصغير ذا الجلد أجيالٌ من الناجين في السهوب، وهي أرض مكشوفة ذات مراعٍ وفيرة ولكن بطقس قاس.



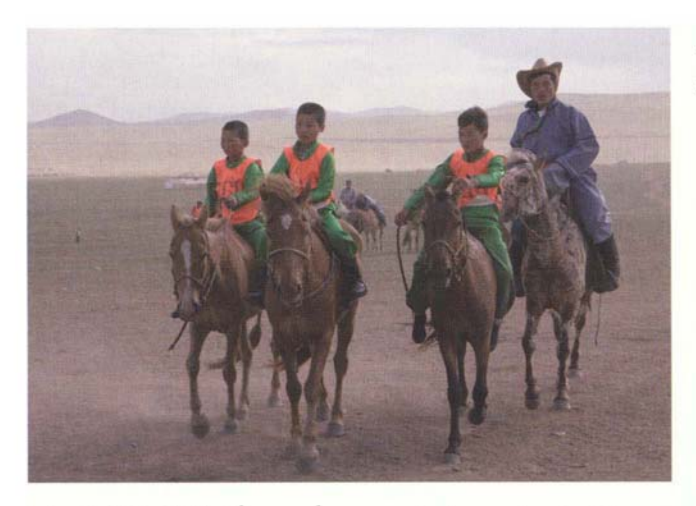
هذا الحصان الخزفي الجنائزي ذو الزينة الرائعة والمصقول بلون أخضر مصفر يعود لفترة حكم سلالة سوي في الصين ٥٨١-٦١٨ م.

كانت جيوش جنكيز خان تقطع حوالي ١٣٠ كم يوميا برفقة قطعان هائلة من الأحصنة، وقد وضع قوانين تضمن توفير مؤن هائلة لكل الأغراض، ابتداء من خيول الفرسان إلى حيوانات التحميل. كان من بين هذه القوانين القيام بعملية خصاء روتينية لجميع الأحصنة ما خلا أفضل الذكور، ليساعد على إدارة الأَحصنة من خلال تنقية سلالات الاستيلاد، وليمكنهم من الاحتفاظ بها في مجموعة واحدة من دون قتال. أما الأفراس فكانت محدودة، ويمكن لفحل واحد التأقلم معها في فترة الخصوبة والتحكم، بينما توجب على السلالات اليافعة الخضوع لنمطية مبكرة من الترويض والركوب ضماناً لانصياعها السهل عند بلوغها.

كان اتباع برنامج صارم يتضمن الراحة التامة بعد الحملات الشاقة، ويتبعه إعادة إدماج تدريجية في العمل، كفيلا بدعم نجاح جيش غالبيته من الفرسان، وقد تطورت مهارات الخيالة من خلال الطفولة التي تتمرن على السرج، فأصبح العدو القاسي في ساحة المعركة من عاداتهم. وتمكن جنكيز خان باستخدام الإرهاب إخضاعاً لأعدائه وأتباعه، من توطيد موقعه

فرسان جنكيز خان: رسم من القرن السادس عشر لتفسير فارسي لكتاب تاريخ المغول يعود للقرن الرابع عشر.





تحضير الفرسان المنغوليين الصغار لمهرجان الأحصنة المدعو بنادام، لاحظ المهر المرقط الذي يمتطيه الرجل البالغ.

من خلال تشريعات رهيبة، والتي تعني بأنه حتى أتفه الجرائم كان يمكن لها أن تنتهي بقطع رأس فاعلها. لكن الخدمة الجيدة لسيد الحرب الذي لا يقبل المساومة لا بد أن تؤدي إلى رعايته المخلصة، لذلك كان هناك تحت حكمه مستوى عال من النظام واحترام القانون، فازدهر الفن والثقافة والتجارة حتى قيل إنه يمكن لعذراء أن تحمل قدرا من الذهب وأن تجوب البلاد بأمان. ومع ذلك يبقى الأمان نسبيا.

وفي عام ١٢٢٧ عندما توفي جنكيز خان، تم امتطاء ١٠٠٠ من الأحصنة وتم السير بها فوق قبره حتى يخفي سحق حوافرها معالمه. فكانت الأحصنة مفتاحا لنجاحه ولراحة طمأنينة مثواه الأخير. أما خيالة تلك الأحصنة فقد ذبحوا كي يبقى مكان قبره سرا.

لم يخبُ ألقُ ثقافة صهوة الحصان لشعب منغوليا الرحال، ففي يومنا هذا لا يزال مهرجان نادام[١]، والذي يعود إلى معسكرات تدريب جنكيز خان، يتخذ مركزا رئيسا في نشاطاتهم السنوية. ويقام في يوليو/تموز احتفالاً «بالألعاب الرجولية» من سباق خيل ورماية ومصارعة، ويمكن للنساء حضور

(١) Nadaam بالمنغولية تعني «ألعاب».

جميع الأحداث ما عدا المصارعة. ويتضمن المهرجان بالإضافة للألعاب استعراضات، وهي عبارة عن عروض موسيقية وعسكرية بالبزة التقليدية. كان يعقد كطقس سنوي لتكريم آلهة الجبل، وكذلك للاحتفاء بعزيمة الجماعة. إن ذروة مهرجان نادام، هي سباق للأحصنة يكون فيه عمر الخيالة بين الخامسة والثالثة عشرة. حيث تخلَّد الأحصنة الخمسة الفائزة بقصيدة، بينما يكافأ أصغر حصان خاسر بأغنية على المجهود الذي بذله.

يصور هذا المهرجان التقاليد المتواصلة لثقافة البدو الرحَّل في العالم الحديث الذي يؤثر بمجتمعه القديم ولكن المتغير.

تعد منغوليا اليوم وجهة سياحية رائجة، مما يقودنا إلى مناقشة تأثير السياحة الثقافية وفوائدها في ضوء الحاجة لمستقبل مستديم لسكان المناطق البرية وللأحصنة التي لا تزال أساسية في حياتهم.

قال رئيس اتحاد الحفاظ على الطبيعة والبيئة المنغولي جيه. تسيريندليغ: «من المستحيل تصور التاريخ المنغولي بدون أحصنة، وأعتقد أنه من المستحيل رؤية مستقبل منغوليا بدون أحصنة. منغوليا ليست منغوليا بدون الأحصنة»(١).

وفي الوقت الذي كان فيه جيش جنكيز خان يعدو في قلب الأراضي المنغولية، وبتناقض كلي التكامل، كان إخراج الحصان الصحراوي من موطنه الأصلي يضع حجر الأساس لثقافة الفروسية التي تتحدد وفقا للحالة بدلا من القومية.

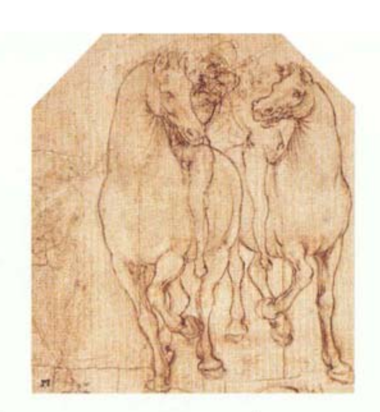
يجمع الحصان الإسباني، المطوَّر من سلالة صحراوية، القوة والحضور ليصبح حيوانا مرغوبا بشكل كبير، ومفضَّلاً من قبل الملوك والقادة العسكريين. ومع ازدهار عصر النهضة، اعتمد تطور ركوب الخيل كفن على مميزات الحصان الإسباني كوسيلة للتعبير عن النبل.

ولدت ثقافة الفروسية حيث لم يكن يتطلب إظهار التفوق عبر المهارة في المعركة، وإنما من خلال الجو الراقي والروحاني لنادي الفروسية.

ومع بدايات القرن السادس عشر أصبحت المهارة المتبعة في فن الطريق

الملتوي، الشكل السابق (القديم) لطرق التدريب الحالية، ميزة خاصة بالنبيل في أوروبا. وذلك عندما أسس معلم ركوب الخيل الإيطالي فيدريغو غريسوني مدرسة ركوب الخيل الخاصة به في مدينة نابليس في عام ١٥٣٢. إذ أطلق أسلوبا اجتاح القارة قبل أن يصبح التدريب الطويل في نادي الفروسية جزءا أساسيا من تنشئة النبلاء الشبان، حيث يصار إلى تعليمهم كيفية تحسين الحركات الطبيعية للفحل أثناء مغازلة فرس أو أثناء تحديه لخصم باستعراض أسلوبه الرياضي والبارع فنيا. وتعد الشبّة التي تعني «قفزة الماعز» الأكثر شهرة والأصعب على الأرجح من ما كان يعرف بـ «نصف- فوق الأرض» و«مرتفع- فوق الأرض»، وتعتمد على علاقتها بالأرض. إذ يقفز الحصان في الهواء إلى ارتفاع يفوق قامة رجل، ويركل نحو الخلف إلى أقصى مدى لساقيه الخلفيتين. مع أن تنفيذ هذه الحركة قد تغير قليلا منذ أول مرة تمت تأديتها فيها، ولكن الكوربت (ضربة أسفل الحزام) الحالية، والتي يقوم فيها الحصان بالوثب نحو الأمام على ساقيه الخلفيتين وجسمه يتخذ تقريبا وضعا عموديا، كانت في الأصل حركة تبختر مبالغ بها عرفت باسم الكرفيت (القفزة)، ولكن لها نفس الجذر اللغوي لكلمة تبجح بالإيطالية. حركة الكرفيت كانت الشكل الأولي القديم لحركة بيسادي، والتي أوقفت حركة التبختر في أعلى نقطة لها بشكل فعال حتى يتمكن الحصان من البقاء للحظة في حالة من التوازن معلقا على ساقيه الخلفيتين.

كان ليوناردو دافينتشي، وبيتر بول روبنز، وأنطوني فان ديك من بين العديد من الفنانين المهمين الذين اختاروا هذه الحركة لتحسين لوحات الفروسية المتعلقة بالملوك والنبلاء العظماء، لكونها تمثل قوة الحصان وهو تحت سيطرة الخيال. في حين أن هذه الوضعية بالنسبة لغير الخيَّال قد توحي أن الحصان قد شب كعلامة مقاومة لخيَّاله؛ أو هي تنفيذ لحركة لوفادي، بالنسبة للمتتبعين حديثي العهد بطرق التدريب القديمة. إلا أن أيا من هذين الاعتقادين ليس بصحيح، فحركتا الكورفيت والبيسادي تصوران التوازن المثالي والسيطرة على الديناميكية الأمامية للحصان، بخلاف عدم الاستقرار



دراسة تمهيدية
لحصانين وراكبيهما
لليوناردو دافينتشي.

الخطير للجزء الخلفي، لكنهما أيضا تمثلان تهيئة لحركة نحو الأمام. أما حركة لوفادي فهي حركة ثابتة يتم فيها التوازن على الساقين الخلفيتين، وقد سجل من قبل المدرسة الإسبانية لركوب الخيل بأنه تم تطويرها خلال القرن التاسع عشر، وبالتالي لا يمكن أن تخصص بشكل دقيق لأي عمل فني سابق لهذه الفترة. الأمر الذي يسلط الضوء على الطريقة التي يمكن أن يؤدي بها تصور الجمهور في تعدد القراءات لنفس المادة، وحتى أثناء قرن طويل من شعبيتها العالية، إلى إضفاء القيمة الرمزية للفن وبالتالي تطويره.

في البداية قدمت صورة مجازية لتحكم الإنسان بعواطف حيوانه وأيضا أيدت الأوامر التوراتية للإنسان بالسيطرة على الطبيعة. وبالتالي كان كسب الخضوع بأي تكلفة مقبولا، حتى لو كان هذا يعني ربط «قنفذ» أو أي حيوان آخر «يعض وينكمش» بين قائمتي الحصان الخلفيتين لإرغامه على السير قدما، وضرب رأسه لجعله يقف في مكانه أو أمر عدد من الخدم بإبقاء رأسه تحت الماء في حال رفضه قطع الجدول. ورغم النصيحة البديهية التي تقول إن على الخيال استعمال «صوت معتدل ومبتهج» و«أن يدلل حصانه» عندما يبلي بلاء حسنا، لكنها عادة ما كانت تقابل بالوحشية، في حين أن مقولة «كلما أرغمته، قلّ خضوعه» بدت أنها أصابت كبد الحقيقة، إلا أنه عندما يفشل كل شيء آخر يبقى ربط وتر حول خصيتي الحصان كي يتمكن

الراكب من شد الوتر في حال المقاومة خدعة مضمونة وناجحة(٢).

على الرغم من الاهتمام كلّه كان لابد من وقوع إصابات شديدة، فالعديد من هذه الطرق العنيفة تبدت شديدة التفاهة وتغري بتطبيقها. في المقابل، مع ظهور معلم ركوب الخيل الفرنسي أنطوان دو بلوفينلٍ في أوائل القرن السابع عشر، أصبحت معاملة الحصان باحترام أكبر دليلاً على الإنسانية. وقام بلوفينل بتدريب الملك لويس الثالث عشر وهو ابن ستة عشر ربيعا، وآمن أنه لا ينبغي على الخيال أن يعرف فقط كيف يتعامل مع الحصان وإنما عليه أيضا أن يعلم كيف يكون نبيلا حقيقياً، بقدرٍ كاف من الثقة بتفوقه على مخلوق أدنى، كي يتصرف برفق. كانت نصيحة بلوفينل: «لا تطلب أبدا من الحصان أكثر من نصف ما هو قادر عليه»، ولتذكر ذلك «المهم على الطالب أن يكون رجلاً وليس وحشاً في ملابس رجل»(٣).

لقد ساعد الاهتمام الملكي بهذا الفن في نجاحه من دون شك. ففي إنكلترا، كان هنري أمير ويلز، الذي للأسف عاش فترة قصيرة إذ توفي في الثامنة عشرة من عمره عام ١٦١٢، قد كرس الكثير من وقته للفروسية حيث أهديت له العديد من الكتب حول هذا الفن، منها كتاب فرسان: أو الفارس الإنكليزي (١٦٠٧) لغيرفايس ماركام وكتاب كمال الفروسية (١٦٠٩) لنيكولاس مورغان. وشيَّد الأمير هنري أول نادٍ لركوب الخيل في إنكلترا، وقد تفوقت الأحصنة على جميع أنواع الهدايا التي كانت تقدم له من قبل شخصيات ملكية أجنبية ومن ذوي المقامات الرفيعة. كان تقديم الأحصنة وقبولها كهدايا يعكس مكانتها بين النبلاء. أما التعامل الراقي الضروري لإبراز خصائصها فقد غدا مقياساً لسمو الرجل. وقد علم الشاعر والجندي السير فيليب سيدني أن « لاشيء على وجه الأرض يمكن له أن يسبب مثل هذه الأعجوبة للأمير مثل كونه فارساً جيداً»(٤)، وفي كُتيِّبه لتعليم النبل، ينصح السير توماس إليوت بـ:

«التمرين الأكثر تشريفا... والذي يبدو أنه حال كل رجل نبيل، هو أن يمتطي بثقة وإتقان حصانا ضخما وجلفا، والذي... هو مهم لاحترامه ومخيف



النبيل على ظهر الحصان: ويليام كافيندش، دوق نيوكاسل، بأسلوب مميز.

لكل وضيع، ويبقيه فوق الدرب الشائع للناس الآخرين، ويرهب كل وحش ضار وعنيف»(٥).

ألقى إليوت الضوء بكل براعة على عدد من الحوافز الرئيسة الموجودة في ثقافة النخبة والتي نشأت حول الفروسية. فالطريقة التي يقدم ويعرض بها المرء نفسه أصبحت خاصية رئيسة للحياة ضمن محيط البلاط الأوروبي، وقدرة المرء على أن يبلي بلاء حسناً في نادي الفروسية وساحة المعركة تظهر رقيا مهذبا إلى جانب الشجاعة والقوة.

بين نهاية الحرب الأهلية الإنكليزية في عام ١٦٤٦ وإعادة الملكية في عام ١٦٦٠ عاش العديد من النبلاء الملكيين في المنفى ينتابهم الشك حول رؤيتهم لوطنهم مرة أخرى يوما ما. كان من بينهم ويليام كافيندش، ماركيز (لاحقا دوق) نيوكاسل، سيد الترويج الذاتي إضافة إلى كونه فارساً بارعاً. أسس نيوكاسل نادياً للفروسية في مرسم سابق للفنان روبنز[1] في أنتويرب[2]

(١) بيتر بول روبنز (١٥٧٧-١٦٤٠) رسام فلمنكي، عني برسم الوجوه و تصوير المواضيع الدينية والميثولوجية.

(٢) Antwerp مدينة في بلجيكا.

وفتح أبوابه لنبلاء أوروبا. وقد بدا فائق المهارة في امتطاء الخيل، حيث كان يكتفي أحيانا بمجرد وشاح حول عنق حصانه، مما دفع في إحدى المرات سيداً إسبانياً من بين الحشود لأن يصلب ويصيح «ميراكلو معجزة»(٦).

كان للفروسية دورٌ كلغة شائعة، حيث يمكن تميز طبيعة الرجل من كيفية تحكمه بالحصان، حتى لو كان من جميع النواحي الأخرى أجنبيا.

كتب نيوكاسل أيضا دليلين كانا ولا يزالا النصين الأصليين الوحيدين عن الفروسية اللذين كتبا من قبل كاتب إنكليزي. وهنالك ٢٠ دليلاً مختلفاً على الأقل تتناول بشكل خاص ركوب الخيل كفن ويتم تداولها في أنحاء أوروبا منذ العام ١٥٥٠. كان الرائد في هذا المجال دليل غريسون بعنوان Gli Ordini di Cavalcare[١]، والذي ترجم إلى الفرنسية، والألمانية، والإسبانية، والإنكليزية وصدر منه ٢٢ طبعة مختلفة بحلول عام ١٦٠٩. إن القدر الأعظم من أدلة الفروسية كانت أعمالا مشتقة، وعبارة عن ثناء في مجملها لمعلم عظيم أو أتباعه، مع قدر قليل من الإبداع والجِدَّة. وعلى الرغم من ذلك كان نيوكاسل يشدد على أن «كتابي لم يسرق من أي كتاب، ولا خبرة فيه لكائن من كان غير خبرتي» كما أضاف مع ثقة بالنفس مميزة «إنه أفضل ما كتب إلي الآن»(٧).

ولما كان يشكلُ جزءاً من تقليد ركوب الخيل، فإن إدعاءاته بالأصالة والابتكار ليست عارية عن الصحة، فهو مسؤول عن ـ من بين ابتكارات أخرى ـ الحركة التي يطلق عليها اليوم اسم «Shoulder-in الكتف إلى الداخل»، وهي تمرين قياسي لتطوير المرونة عند الحصان. دليله الأول La Méthode، Nouvelle et Invention extraordinaire de dresser les Chevaux والذي يتضمن ٤٣ لوحة فنية بجودة استثنائية لأبراهام فان ديبينبيك[٢]، صدر عام ١٦٥٨ بالفرنسية للقراء القاريين[٣]،

---

(١) تعني بالإيطالية قواعد ركوب الخيل.

(٢) (١٥٩٦-١٦٧٥) رسام هولندي من تلامذة روبنز.

(٣) المقصود القراء في أوروبا القارية والتي تعني قارة أوروبا بمعزل عن الجزر البريطانية وأيرلندا وأيسلندا.

حيث عرض فيه بلباقة استبدال طرق أنطوان دو بلوفينيل والذي ظهر دليله، بعد وفاته، عام ١٦٢٣. أما دليل نيوكاسل الثاني A New Method، and Extraordinary Invention، to Dress Horses الذي عد طريقة جديدة، وابتكاراً غير مسبوق، لتمرين الأحصنة والذي صدر عام ١٦٦٧ فقد كان نصا مختلفا، على الرغم من ارتباطه الشديد[1]، حيث عمد إلى تقويض اعتماد الخيالة الإنكليز المستمر على طرق غريسوني، والتي كان قد مضى عليها حينها أكثر من مائة عام. كانت أدلة نيوكاسل، التي نشرها على نفقته الخاصة، تتبع بشكل عام نموذجا تقدميا مقبولا للتدريب يبدأ من الركوب الأول وينتهي بحركات متقدمة، كما كان يتم عرضهما للبيع ويوزعهما كهدايا على أصدقائه، وأقرانه، ونخبة البلاطات القارية. وترجما إلى الفرنسية، والألمانية، والإسبانية، كما قام العديد من الكتاب بتعديلهما وتكيفهما بتصرف، لكن النسخة الأكثر شهرة تعود للعام ١٧٤٣ وهي ترجمة إنكليزية للأصل الفرنسي في طبعة فاخرة لجون بريندلي متضمنة اللوحات كلّها، وقد جعلت هذه النسخة عمل نيوكاسل الأهم متاحاً على نطاق واسع لأول مرة.

فقدت الفروسية مع نهاية القرن السابع عشر شعبيتها، كطقس من طقوس النبلاء، لصالح سباقات الخيل، لكنها لم تنته تماماً. ففي القرن الثامن عشر كتب فرانسوا دو لا غيرنير على الأرجح أشهر دليل فروسية، Ecole de Cavalerie مدرسة الفروسية، وبلوحات فاخرة لجوهانيس إلياس رايدينجر[2]، ليواصل تقليد إصدار النصوص الفاخرة بقلم خيالة مهرة. تأسست مدرسة تعليم الفروسية في فيينا في أواخر القرن السادس عشر، ولا تزال لها شهرة عالمية إلى اليوم، والتي قطعت شوطا واسعا لتقدم عروضا لما يعرف الآن «بركوب الخيل الكلاسيكي».

المهارات الأساسية للتقليد الكلاسيكي تشكل أساسا للعديد من

---

(١) المقصود، الارتباط بالدليل الأول.

(٢) (١٦٩٨-١٧٦٧) رسام ونحات ألماني، اشتهر بتصويره للحيوانات.



أساليب ركوب الخيل المعاصرة ورياضة الدريساج الحديثة انحدرت مباشرة من أندية ركوب الخيل. وتمثل الرغبة في اختبار القدرة الجسدية للحصان ضمن حدود التحكم البشري، والوصول إلى الأمان الأفضل قدر الإمكان في هذا التقليد حيث كل حركة مبنية على كون كل تعبير طبيعي للحصان

يُشكِّل ويُهذَّب وفقا لراحة الإنسان.

يقدِّم الرجل النبيل على صهوة الحصان مرآة ثقافية لكلٍ من طبيعة الإنسان والحيوان، والتي لا تعكس علاقة الخيال بحصانه فحسْب بل أيضا مكانته في مجتمع النخبة، وقبول هرميَّة الكائنات الحية.

صورة ص ١٠٦ عصبة الأنف في هذه الصورة العائدة للقرن الثامن عشر لإلياس دجي. ريدنجر صممت من قبل وليام كافينديش دوق نيوكاسل، قبل قرن من ذلك. لم تكن وظيفة اللجام سحب رأس الحصان إلى الأسفل كاللجام المرسوم بالصورة، وإنما كان يستعمل من قبل الراكب ليساعد على الانثناء الجانبي.

وقد أخذ المحتلون الإسبان معهم أساسيات هذا الأسلوب في ركوب الخيل إلى أمريكا في القرن السادس عشر، وجلبوا الأحصنة إلى الأرض الأمريكية لأول مرة منذ هلاك أسلافها. لذلك لم تنتج ثقافة ركوب الخيل لسكان أمريكا الأصليين في السهول الشاسعة عن تقليد عريق أو أسلوب، ولكن من فرصة غيَّرت من عادات الناس الذين عاشوا لأجيال عدة لا يعرفون سوى السير على الأقدام. في عام ١٥٤١ بلغ المحتلون ما يعرف اليوم بولاية كانساس حيث أمضت قبائل السهول حياتها بتعقب جاموس البوفالو، حاملين معهم كل ما يملكون.

بحلول عام ١٦٧٣، وعندما كان القس اليسوعي والمستكشف الفرنسي جاك ماركيت يجوب الأراضي غرب المسيسيبي، وجد قبيلة إليني هناك في استقباله، وهم على صهوات الأحصنة. وما إن تقبلت قبائل السهول من البدو الرحل إمكانيات هذا الحيوان الجديد والحساس ذي الأقدام السريعة في مجال الصيد والترحال عبر المساحات الشاسعة من المراعي؛ حتى نشأ تقليد ثقافي جديد، نَشَرَ الحصان في جميع أرجاء أمريكا الشمالية.

تستذكر «السن الحديدي»، وهي امرأة من شايانية[1]:

«أخبرتني جدتي أنه عندما كانت شابة... توجب على الناس أن

(١) تنتمي للشايان وهي قبيلة للهنود الحمر تتواجد في أوكلاهوما ومونتانا.



مطاردة جواميس البوفالو، لجورج كاتلين بين عامي ١٧٩٦ _ ١٨٧٢.

يسيروا بأنفسهم. في تلك الأوقات لم يكونوا يسافرون لمسافات بعيدة إلا فيما ندر. ولكن عندما حصلوا على أحصنة، أصبح في إمكانهم التنقل من مكان إلى آخر بسهولة أكبر. وعندها أصبح في إمكانهم اصطياد أعداد أكبر من جواميس البوفالو والحيوانات الأخرى، وبذلك أصبح لديهم المزيد من اللحم للأكل وجمعوا مزيدا من الجلد للمسكن والملبس(٨).

بعد تعرف القبائل على الأحصنة، بدأت أحمالٌ من المؤن والبضائع تنتقل تدريجيا من الكلاب إلى الأحصنة، حيث كانت الكلاب تحمل الأمتعة في السابق. وما أن أظهر المحاربون الهنود من الشباب شغفهم بركوب هذه الكائنات الجديدة، حتى أخذ الآخرون بالاستفادة من إمكانياتها لتسهيل السفر والصيد. وبمرور الزمن أصبح المحاربون زعماءً، وأصبح ركوب الخيل شائعاً، بحيث لم يعد الجيل التالي يعرف حياةً من دون أحصنة. لذا كانت الأحصنة تعامل باحترام كبير، والعلاقة البديهية بين قبائل السهول وعالم الطبيعة جعلت من حساسية وذكاء الحصان بمثابة قلب هذه العلاقة الخاصة.

على عكس الخضوع الذي كان يراه غريسون كنقطة بداية، أو التفوق

الراقي للإنسان على ذكاء الحيوان الذي يقدمه بلوفينل، كان افتخار الخيَّال من سكان أمريكا الأصليين يفسر من قبل (ضربات متعددة)، زعيم قبيلة أبساروكا أو قبيلة الكرو الغراب:

«حصاني يقاتل معي ويصوم معي، لأنه إن كان عليه أن يحملني في معركة، فيجب عليه أن يعرف قلبي وأعرف قلبه وإلا لن نكون أخوين أبدا. لقد أخبروني بأن الرجل الأبيض -والذي قارب أن يكون إلهاً، ولا يزال مع ذلك أحمق - لا يؤمن بأن للحصان روحا. لا يمكن لهذا أن يكون صحيحاً، فقد شاهدت مرات عدة روح حصاني في عينيه»(٩).

مع بدايات القرن التاسع عشر، بدأت ثقافة صهوة حصان جديدة بالتطور على الجانب، وفي النهاية على حساب السكان الأصليين: وهي ثقافة رعاة البقر. على الرغم من الاحتفاء الواسع بها في الأدب ابتداءً من أعمال أوين ويستر، مرورا بزان غراي ولويس لامور، وانتهاءً بالكتاب المعاصرين الذين رسموا صورة أقل رومانسية، مثل لاري مكمورتري وكورماك مكارثي، إلا أن رعاية قطيع على صهوة حصان لم ترُج بشكل واسع إلا مع صعود الفيلم والتلفاز. أودي مورفي، وجون وين، وكلينت إيستوود هم فقط بعض الأسماء التي جعلت من الحصان، والمسدس، وقبعة الستيتسون، تلك الصور الدائمة عبر العالم.

تعود جذور أسلوب رعاة البقر المسترخي لركوب الخيل، والمعروف من الأفلام التي لا تُعَد، إلى ماض شكلي. فالعنق المقوس والحوافر الواثبة المفضلة عند خيالة المحتلين تبدو بشكل رائع في ساحة المعركة، ولكن هذا الأسلوب غير عملي في سهول أمريكا الشاسعة. وبالتدريج، وبينما بقي السرج ذو الوضعية العميقة ووضعية الساق الطويلة، تغيَّرتْ وضعية الرأس من المتقوسة والمتماسكة إلى الطويلة والمنخفضة. وتحولت الحركات العالية إلى أخرى مسترخية تغطي مساحات أرضية واسعة، وعدو بطيء ناعم لا يخيف الماشية، وعدو سريع يمكن المحافظة عليه لمسافات طويلة. وتحول الانحناء الأمامي المرتفع للسرج التقليدي، المصمم لإبقاء الجندي في مقعده

في خضم المعركة، إلى قرن يستطيع راعي البقر أن يلف حبلا حوله عندما يصيد القطيع بالوهق (الأنشوطة).

لعب الحصان الإسباني في أمريكا دورا لم يكن يعرفه قط في أوروبا مع التوسع الهائل في مساحات الأراضي التي تتطلب مهارات مختلفة من قبل الحصان والخيال.

إن عصر سوق القطعان الضخمة، الصورة الرمزية لحياة رعاة البقر، دام لفترة لا تتعدى ٣٠ عاما، ولكن أكثر من ١٠ ملايين رأس من الماشية نقلت من تكساس إلى الشمال في الفترة بين نهاية الحرب الأهلية عام ١٨٦٥ والعقد الأخير من القرن التاسع عشر. عندما ظهرت الحاجة في عام ١٨٦٦ لأسواق جديدة تباع فيها الماشية، قام تشارلز غودنايت، وهو كشاف سابق لدى حراس تكساس، وشريكه أوليفر لوفينغ، وبصحبتهما ثمانية عشر راعي بقر، بسوق ٢٠٠٠ بقرة على طول الطريق إلى نيو مكسيكو. حيث باعوا نصف القطيع وساقوا الباقي إلى كولورادو، وعمدوا إلى تسمينها في المراعي الجيدة هناك ثم قاموا ببيعها في دينفر.

تحتاج وكالات الهنود الحمر والنقاط الأمامية للجيش إلى إمدادات دائمة من اللحم، وبذلك ظهرت إمكانية التعاقد مع الحكومة. لكنها رحلة



رجل قبيلة مسن وحصانه العجوز يستذكر الماضي. يلبس الحصان لجام الحرب، وهو حبل مفرد رفيع أو طوق من الجلد غير المدبوغ حول فكه السفلي.

انعكاس تأملي مشابه ولكن من قبل رجل شاب يتطلع إلى المستقبل.



خطرة. فالمحافظة على القطيع ثابتا خلال اجتياز النهر يشكل خطرا على الرجال، بينما الكر والفر من قبل الكومانش الذين تُعبر أراضيهم يشكلان خطراً دائما. كان للوفينغ نزعة للتهور، وعندما أصر على أن يمتطي الحصان في المقدمة لاقتناص مناقصة عقد جديد، تم الإمساك به في الخلاء من قبل محاربي الكومانش، وقتل رميا بالرصاص. لقد صد مهاجميه لعدة أيام قبل أن يتمكن من الفرار لكنه كان مصابا بجراح خطيرة. ورفض البتر، والذي ربما كان لينقذ حياته، قبل أن يتمكن من الحديث لغودنايت، لكن الغرغرينا في ذلك الوقت كانت قد بدأت وأصبح الوقت متأخرا. وقبل وفاته طمأنه غودنايت بأن رفاته ستؤخذ إلى موطنه في تكساس. أعيد رواية قصتيهما في الحمامة الوحيدة للاري مكموررتري والتي تحتوي على كامل الدراما، والتشويق، والمأساة التي غدت مرتبطة بروايات الغرب البرّي وأفلامه المبنية على حقائق من الصعب تصديقها. وبينما كان غودنايت عائدا إلى تكساس ومعه رفات صديقه، كان طريق غودنايت-لوفينغ الذي أسساه يعج بالأبقار ورعاتها المتجهين نحو الشمال.



غنى لهم ليناموا، ١٩٢٦. الفنان الغربي فرانك تيني جونسون تربى في مجتمع زراعي في لووا. يعتقد أن الأحصنة مستقلة كاستقلالية البشر، مما جعلها العنصر الرئيسي لصوره التي تتحدث عن حياة رعاة البقر.

كان رعاة البقر الذين يسوقون القطعان على طرق الرعي في وضع بائس عادة، ويتضمنون خليطا فعالا من الرجال السود، والبيض، وذوي الأصول الأمريكية الجنوبية كما كان بينهم جنودٌ وعبيدٌ سابقون. إلا أنه كان عليهم العمل معا بغض النظر عن اختلافاتهم لمدة تصل إلى ٤ أشهر وفي ظروف شاقة. كانت لأغلب الرجال ثلاثة أحصنة أو أربعة، وغالبا في حالة مزرية، كالرجال أنفسهم، وقد اعتادت على عمل ما يطلب منها وأخذ ما يقدم إليها لكي تتمكن من البقاء. وكان الغبار كثيفا لدرجة أن خيالة (السحب) الذين يسوقون القسم الخلفي من القطيع يبصقون وحلا أسود في نهاية كل يوم لكن رئتيهم لا تتخلصان منه أبدا.

ويمكن لبقرة مذعورة أن تسبب فوضى، خاصة في الليل، وأشدّ ما يخشى هو أنْ تُجر خلال الفرار الجماعي إلى الموت، الذي كان من أكثر أنواع الموت شيوعا لراعي البقر.

مع ذلك توجد أوصاف شعرية للحياة على طُرُق سوق القطيع. ويتذكّر تيدي بلو، الإنكليزي المولد والذي تزوج في أمريكا، قائلاً «بعد أن تعبر النهر

الأحمر وتخرج إلى السهول الرحبة، لا شك في أنَّك سترى مشهداً جميلاً في انتشارها على امتداد ما يُقارب الميل، وأشعة الشمس تلمع على قرونها»، بينما اعتبرَ غودنايت أنه:

«في الإجمال، كانت السنوات التي قضيتها على طرق السوق هي الأسعد في حياتي. لاشك في أني واجهتُ الكثير من المشاق والأخطار، وتطلب ذلك كل ما لدى المرء من جلد و شجاعة؛ لكن عندما تسير الأمور على ما يرام لا يوجد حياة أكثر متعة. في أغلب الأوقات نكون مغامرين منعزلين في أرض شاسعة جديدة ومنعشة كصباح الربيع، ونحن طلقاء وتملؤنا حيوية الشجعان»(١٠).

على مسافة بعيدة في الجنوب، وَهَبَتْ سهول البامباس في أمريكا الجنوبية نفسها لثقافة صهوة الحصان: الحياة الشاقة، والواقع المهم لا يقلان قسوة في الرجال الذين شبوا فيها.

وعندما كانت تتنقل الأحصنة البرية وقطعان الأبقار بحرية عبر الأراضي الخصبة للمراعي بين ريو ديلا بلاتا الإسبانية والمستوطنات البرتغالية في السهول البرازيلية، أصبح يطلق على أحفاد المحتلين والسكان الأصليين اسم (غاودجو). وهو مصطلح مشتق من كلمة متشرد، فغالبا ما يعتبر الغاودجو همجيا وفظا. فبعيشهم على حافة المجتمع، متأثرين بالوحدة الشديدة، والطقس القاسي، وضيق العيش؛ لم يتبق لهم إلا القليل من الوقت أو الفرص للكياسة.

إن متاع الدنيا بالنسبة للغاودجو غالبا ما كان يقتصر على حصان وسكين طويلة منحنية لها وظيفة الأداة والسلاح. وقد ظهرت ثقافة الغاودجو من بين تجارة الأبقار، من أجل الجلد في البداية وليس من أجل اللحم. يعرف الغاودجو بأنهم (متسكعو البامباس)، حيث اشتهروا بتقنيات صيدهم بواسطة ثلاث كرات جلدية قاسية تربط بحبل وترمى لتطرح الحيوانات أرضا، ومن ثم يقطع عرقوبه لجعله عاجزا عن الحركة. وتتطلب طريقة الصيد هذه مهارات خاصة في ركوب الخيل، والغاودجو كالعديد من ثقافات ركوب



رعي الأبقار خلال عاصفة ثلجية لفردريك ريمينغتون بين عامي ١٨٦١ ــ ١٩٠٩.

الخيل الرئيسة للبدو الرحل، تعتمد على تلك المهارات للنجاة في الأراضي المفتوحة الشاسعة.

حتى أوائل القرن الثامن عشر كان الغاودجو يعتبرون على أنهم لا يحترمون العادات ولا القوانين. وقد تبدلت النظرة إليهم من رعاة بقر فظين لتصل إلى حد كونهم خارجين عن القانون تقريبا، ولكن حالهم اختلف في أواخر القرن التاسع عشر خلال الحروب ضد الهيمنة الإسبانية. حيث ظهرت حركة مقاومة يقودها كاوديليزمات، وهم قادة ذوو شخصية قوية آسرة قاموا بتجميع جماعات متوحشة من الرجال المقاتلين على صهوات الأحصنة. فأصبحت صلابة الغاودجو ومهارته مصدرا حيويا والشخصية المهمشة التي غالبا ما كانت تقابَل بالريبة من المجتمع الرفيع، أصبحت بطلا شعبيا.

خلق الكاوديليزمو ولاءً قويا بين الأتباع مبني على شخصيته أكثر منه على قضيته. إذ لا يرتبط هؤلاء الرجال بأي جيش أو مؤسسة نظاميين، ولكن بالرفقة التي تشكلت حولهم، فيلقبون «بالجنرال» ويستحوذون على نفوذ سياسي وشخصي واسع. أسرت روحهم الأصيلة خيال الصحفيين والكتاب وأصبحوا أبطالاً ثقافيين، يظهرون في المقالات الصحفية وروايات

الإثارة كرموز، يدافعون عن الولاء وقيم الماضي. نجح الكاوديليزمو كجنكيز خان بتقريب الناس من بعضهم عبر الحواجز الاجتماعية، ولكن رغم تسمية أنفسهم بالثوريين، إلا أن دوافعهم يمكن أن تتنوع من ثأر شخصي إلى استياء سياسي، والرجال الذين يتبعونهم غالبا ما يقومون بذلك من باب الولاء المحض للقيادة الأسرة التي يقدمونها.

كان للجندي من الكاوديليزمو أحصنة عِدّة، وعلى الأرجح سلاح ناري، من الممكن أن يكون قطعة أثرية، ولكنه دائما مسلح بحربة وسكين طويلة، محافظا بذلك على التقاليد الإسبانية لرعي الأبقار. كانت الثروة تقاس بعدد الحيوانات، وفي ثقافة تسلط ذكورية كانت الأفراس بخسة الثمن، تباع ربما ببيزو واحد، بينما يصل سعر المهر حتى خمس بيزوات. ولم يكن امتطاء الفرس يُضاهي إلا المشي، ولكن في النهاية كان أي شيء يُضاهي المشي وكان الرجل يعتلي صهوة حصانه لمجرّد أنْ يتفادى المشي بضع خطوات. كانت مزارع المواشي المنعزلة والمتاخمة للحدود، عبارة عن معاقل صغيرة خاصة، بأبواب ضخمة مغلقة ومساحات مسورة، وزريبة بسور حجري يمكنها أن تأوي مئات عدّة بل حتى الآلاف من رؤوس الماشية.

تعتبر الأحصنة جوهرية نظرا للمسافات الشاسعة بين الممتلكات، والاتساع الهائل لمراعي الأبقار، والحاجة الدائمة لوسيلة هروب سريعة من استقبال غير ودي. وكانت الأحصنة تشكّلُ أيضا حديثاً مركزياً في التجمّعات، حيث كانت عروض عقد الحبال، والتسابق، والوسم بالنار والخِصاء، جزءاً من التسلية. لذلك كانت المهارات المطلوبة وسيلة للحفاظ على الهيبة والمكانة، بطريقة أبعد ما تكون عن الفن الراقي للنبيل الأوروبي على صهوة الحصان. ولكن التحكم في القطيع جعل من مهارات امتطاء صهوة الحصان أمرا طبيعيا وجوهريا لأجيال من الغاودجو وعندما يلتحق هؤلاء الرجال بجماعات الكاوديليزمو المسلحة، تتحول الحربة والسكين اللتين تستعملان في عملهم اليومي الشاق في محيط غير خاضع لقانون، بسهولة إلى أسلحة حرب. وتتسم حياة رعاة الأبقار بالتنقّل والقسوة،

يشحذها التنافس من أجل العمل، والصراع من أجل البقاء في أرض جافة. يستخدم هؤلاء الرجال ، غير مبالين بالمشقة والمعاناة، أنصالاً فولاذية طويلة في مهاميزهم مما يجعل أحصنتهم تنزف، وينظرون بعين الاحترام لنُدبهم التي غالبا ما تلقوها جراء مواجهات دموية لأصغر إهانة يستشعرونها. فتكيفهم ومتطلباتهم المتواضعة بالإضافة إلى مهارتهم في ركوب الخيل والقتال جعلتهم مرغوبين جدا كجنود. إنها صفات مشتركة بين حراس الحدود في أمريكا اللاتينية، فالغاودجو الأرجنتينيون، واليانيرو الفنزويليون، والباكيرو المكسيكيون يتشاركون حياة قاسية مماثلة.

صورة ص ١١٧ سلسلة غاودجو الفوتوغرافية لدانيلي دا ميدا، تظهر رعاة بقر (من أمريكا الجنوبية) معاصرين يحملون أدوات تقليدية بأيديهم. الصور تم التقاطها في الولاية الواقعة جنوبي البرازيل المسماة بريو غراندي دو سول، يستكشف فيها الإرث الاجتماعي_ الثقافي للإقليم في العالم الحديث.

وجد اليوم في الأرجنتين، التي تمتد على مساحة ٤ ملايين كيلومتر مربع، أكثر من ١٥٠ ألفا من الغاودجو الذين يتدبرون ٥٥ مليون بقرة، و ٢٥ مليون نعجة، وأكثر من مليوني حصان. ارتقى الغاودجو من مكانتهم الهامشية الأولى ليحتلوا موقعا يرتبط بافتخار ثقافي عاتٍ بتقاليدهم. يصف الكومودور خوان خوسيه غويرالديس، رئيس كونفدرالية الغاودجو الأرجنتينيين، الغاودجو بمصطلحات تصور القانون، شبه الفروسي، والمعقد الذي يُعرّف أسلوب حياتهم:

«يتمسّك الغاودجو بمبادئ راسخة. فهو يؤمن بالكلمة المعطاة وهو صادق مع أصدقائه ومع نفسه؛ ومتقشف؛ ولديه مفاهيم واضحة عن السمو والخضوع. وهو وطني لأبعد الحدود وينأى بنفسه عن السياسة ، ويضفي حسا جمالياً على المصنوعات اليدوية، وأشغال الفضة، والمنسوجات، والجلد المزركش، والنقوش في القرون والعظام. ويستعمل نوعا من اللغة خاصاً به، في قصصه وحكاياته، في الجلسات حول النار. إنه شاعر، وموسيقي، وكاتب،





في وضعية الركوب الآمنة، يمكن للسيدة أن تشعر بقدر من الراحة يكفي لقليل من الملاطفة مع الطبقات الأدنى. من بانتش ١٨٩٢.

ومغن، وراقص. يحترم المرأة ورزين في حبه. وقبل كل شيء لديه ميثاق شرف وسلوك يسير على منواله، ولا يمكن تطبيقه من دون حرية. ولديه شيء يخصّ أناساً مميَّزين – أسلوب في الحركة يبرز الجمال الحسي، والأخلاق، والاحترام. إنه فخور بنفسه».

استمرت هذه المثل العليا بسبب حسّه القوي بالهوية الثقافية، لذلك فخيالّة الأرجنتين اليوم «يبحثون عنه ويجدون أنفسهم في الغاودجو»(١١).

إنَّ العنصر المشترك البارز بين جميع ثقافات الفروسية، هو أنها تصور بشكل أساسي الخيالة والمالكين الذكور، على الرغم من أن للنساء تراثا قديما يربطها بالأحصنة، يعود إلى الأيام التي نحتت فيها صور الآلهة إيبونا في الأرض. مع ذلك كانت فكرةُ أنَّ ركوب الخيل حكراً على الذكور هي السائدة في العالم الغربي حتى مطلع القرن التاسع عشر، عندما أصبح ركوب الخيل مع ساقين متباعدتين مقبولا بالنسبة للنساء. لكن في الثقافات الشرقية حيث كان السروال العريض جزءاً من اللباس التقليدي للنساء مما يعني أن ركوب الخيل بساقين متباعدتين لم يكن أبداً بالضرورة مثقلاً بارتداء التنانير. لم يكن الرجال يرتدون دائما السراويل، طبعا، والسترة القصيرة البسيطة المفضلة لدى الإغريق والرومان خلال العصور الوسطى في أوروبا جعلت من ركوب الخيل تجربة مبهجة. إنَّ كزينوفون يُلفت الانتباه إلى هذا الحرج الممكن بسبب ذلك، عندما يكتب أن على الخيّال أن يستخدم يده اليمنى ليساعد نفسه في القفز على حصانه بكياسة، حتى «لا يظهر

بشكل غير لائق، ولو من الخلف»(١٢).

لم تكن النساء في حينها وحدهن اللواتي كانت كثرة الملابس أو قلتها تعيق تقدمهن في ركوب الخيل. ولكن ، في حين اشتهرت المرأة السارماتية من سهوب الفولغا السفلى بأنها تذكِّرُ بالأمازونيات في الميثولوجيا اليونانية، حيث عرف عنها الصيد والقتال في المعارك إلى جانب زوجها، كان مفهوم الحرب والاستكشاف على أنهما مسعيان ذكوريان قد رجح كفة الميزان ـ على ما يبدو ـ في مجال ركوب الجياد. وكان ذكر النساء على ظهر الأحصنة يتكرّر لصفاتهن استثنائية، كإزابيلا ملكة إسبانيا في القرن الخامس عشر، التي طالبت بحصان مفعم بالحيوية قبل أن تبلغ العاشرة من عمرها، وتفوقت في ركوب الخيل وتربية أحسن الأحصنة الإسبانية، وبعد مئة سنة، اشتهرت ملكة إنكلترا إليزابيث الأولى بحبها لميادين الصيد. وتحدَّت النساء المسافرات على ظهور الجياد المفاهيم المعاصرة عندما انطلقت في رحلات طموحة مكتفية بالقليل من الدعم والحماية. فقد قامت سيليا فينس بقطع مقاطعتين خلال رحلاتها عبر مقاطعات انكلترا واسكتلندا على ظهر الحصان في عامي ١٦٩٧ و ١٦٩٨، ممتطية سرجا جانبيا ويرافقها خادمان فقط، أما في القرن التاسع عشر فقامت إزابيلا بيرد الجريئة باستكشاف أستراليا، وجبال الروكي، ومناطق كبيرة من آسيا، وأخيراً المغرب عندما كانت في السبعين من عمرها، ممتطية فحلاً أسود قدَّمه إليها السلطان. ويمكن أن يدل الركوب المستهتر بشكل خاص على أنثى ذات شخصية مشاكسة، مثل لوسي بطلة قصة النار المتوحشة (قصة من نمط الغرب المتوحش الرومانسي) لزين غراي ١٩١٧. «لوسي مثل الحصان البري ــ حرة، فخورة، جموحٌ وتمتطي حصاناً ليس آمنا حتى لرجل».[١٣] اشتهرت أيضاً النساء اللواتي ركبن الحصان في السيرك أو في عروض الغرب المتوحش لما أظهرنه من القوام الرياضي والشجاعة والمجازفات الخطيرة. ظهر هذا التركيز على خطر ركوب الخيل بالنسبة للمرأة بشكل متكرر. وفي عام ١٨٩٠ كتب معلم ركوب الخيل جيمس فيليس لمدرسة سانت بطرسبرغ للفروسية وركوب الخيل، قائلاً:



نساء هنديات يافعات تلعبن البولو ممتطيات أحصنة بساقين متباعدتين في صورة بأسلوب راجستان مع انزلاق على الورق ١٧٥٠

«إن أهم شيء في وضعية الجلوس للرجل هو الثبات، وهو أمر أصعب في تحقيقه بالنسبة للمرأة إذا امتطت سرجا مستعرضا، وذلك لأن فخذيها مدوّرا الشكل وأضعف مما هو عند الرجل. ولذلك فإن النقاش في هذا الموضوع بلا جدوى. وتتعرض السيدات اللواتي يمتطين الحصان وساقاهما متباعدتين لسقطات مؤلمة وبالتالي تتخلّى عن هذه الممارسة بعد فترة قصيرة»(١٤).

ومع ذلك فإن هذا الرأي يناقض انعدام الأمن عند الذكر أكثر من مشاكل ركوب الخيل المتعلقة بالفخذين المدورين. في الواقع كان مكان فخذي السيدة هما محور الجَدَل. وبغض النظر عن مهارات ركوب السرج الجانبي ومخاطره، وهي على الأغلب أفدح من تلك الناجمة عن امتطاء الخيل بساقين متباعدتين، فما دامت النساء تضم رُكبها معاً، بدا الرجال أكثر ارتياحا.

ربما يمكن النظر إلى الروابط القوية القائمة بين النساء والأحصنة إلا كتطور نحو تقليد ثقافي واسع في الغرب بدءاً بالقرن التاسع عشر، حين



RATHER SMART ALL ROUND.

Lady Di. (*who has been trying a Horse with a view to purchase*). "And do you really think that he's quite up to my Weight, Mr. Spavin!" *Spavin.* "Lor! my Lady, he'd carry Two of you!"

Lady Di. "What! Do you mean to say that I'm only half a Horsewoman!"

Spavin. "By no means, my Lady. But another like your Ladyship would look so well on the other side!"

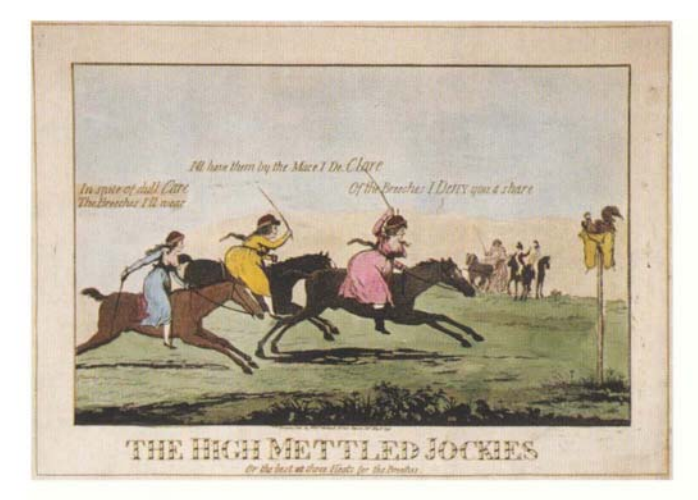
أصبحت النساء لا تقلّ نشاطاً عن الرجل في ملاحقة الثعلب البريطاني، بدلا من كونهن أقلية ملحوظة. وقد جعلت زيارة الإمبراطورة النمساوية عام ١٨٧٨ لإنكلترا، وهي العاشقة المولهة بالصيد في الميدان والفارسة الماهرة، الصيد رائجا بين النساء، على الرغم من أن عادتها بحمل مروحة وسوطا في نفس الوقت وهي على ظهر الحصان لم تدم بين أتباعها إلا لفترة قصيرة. في عام ١٩٥٢ وقبل تتويجها، أصبحت الملكة إليزابيث الثانية أول ملكة بريطانية استعرضت قواتها وهي على ظهر حصان منذ سابقتها التي كانت تحمل الاسم نفسه في القرن السادس عشر، أما بالنسبة إلى الملكة فكتوريا، فقد أحبطَ دوق ويلينغتون نيّتها في فعل ذلك.

ومع ازدياد عادة ركوب الخيل بعد نهاية الحرب كرياضة وترفيه لم تعد تقتصر تلك العادة على النخبة، وبدأت النساء تركب الحصان بساقين متباعدتين بشكل روتيني . ومع مرور الوقت ، لم يعد ذلك يُلفت الانتباه. ورغم تفوق النساء في ركوب الخيل، إلى أن ذلك أثار ردوداً معقدة حتى

وقت قريب نسبيا. وفي خِضم الجدل حول رغبة النساء في امتطاء أحصنة سباق في منتصف القرن العشرين في أمريكا، قام فارس سباقات بكشف الطبيعة الحقيقية لهذه الاحتجاجات «إذا سُمِحَ لامرأة واحدة بالاشتراك في سباق واحد، فسنكون جميعا في عداد الموتى» هذا الخوف المبرَّر يعود لعام ١٨٠٤ عندما هزمت أليسيا مينيل فارسي سباق في سباقات التحدي وكان أحد المدربين قد اعترف وبشدة أنه «يبدو أن أحصنتنا تستجيب للفتيات بشكل أفضل من استجابتها للرجال»(١٥).

في عام ١٩٨١ حمل فيلمٍ وثائقي لقناة بي بي سي بعنوان المرأة الانكليزية والحصان عنواناً فرعياً: «فضيحة غرامية بريطانية عظيمة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى». وبعد مرور ما يزيد على قرن من الزمن، تطورت العلاقة بين النساء والأحصنة من كونها تقليداً استثنائياً يقتصر على الذكور مع اختلاف حول اللباقة والأمان، إلى اعتبارها ولعاً مميزاً (ثقافة إنكليزية). وعلى الرغم من ذلك، يبدو الأرجح أن النساء ، خلال القرون التي اعتُبِرَتْ فيها الأحصنة جزءا من الحياة اليومية، كنَّ يعترضن على هذه النظرة بكل تفاصيلها.

اليوم تركب النساء من مختلف الأعمار والثقافات والطبقات الخيل، وضمن نطاق واسع من النشاطات المتعلقة بالفروسية، بغرض العمل والترفيه. فغالبا ما يبدين تفهما أكثر حساسية للحصان، مرتبطاً بالثقافة أكثر منه بالجنس، ولكن يبدو أن للنساء عقبات ثقافية أقل ليجتزنها مقارنة مع الرجل في هذا المجال. إن الدور المعاصر للنساء في الطب البيطري المتخصص بالخيول معترف به على نطاق واسع، ولكن عندما تخرجت ألين كوست من كلية الطب البيطري الجديدة في أدنبرة في عام ١٨٩٦، لم تستطع نيل ترخيص من الكلية الملكية للجراحة البيطرية لأنها امرأة وبالتالي لا تفي بشروط الترخيص. وقد تطلب منها الأمر الانتظار حتى عام ١٩٢٢ لتصبح أول امرأة عضوه في الكلية، وخلال تلك الفترة، عملت خارج صلاحياتها، في قرية في أيرلندا، حيث قامت بفضح قس كاثوليكي محلي



متسابقون متحمسون يتنافسون من أجل استبدال تنانيرهن ببناطيل خيشية قصيرة، حوالي ١٧٩٧.

لخصائه الأحصنة.

حتى أكثر الأحكام المسبقة تأصلا يمكن تخفيفها مع الوقت، في رياضة الفروسية التي أمنت حلبة مكشوفة للنساء ليظهرن انجذابهن للأحصنة.

شاركت النساء في مسابقات الفروسية ضمن الألعاب الأولمبية لأول مرة في دورة هيلسنكي في عام ١٩٥٢، وتعد مسابقات الفروسية اليوم الوحيدة التي يتنافس فيها الرجال والنساء وفق الشروط نفسها.

منذ العام ١٩٨٦ درجت العادة في أن يكون رئيس الاتحاد الدولي للفروسية، أحد أعضاء جمعية الاتحادات الدولية للألعاب الأولمبية الصيفية، أنثى من عائلة ملكية، وهن على التوالي صاحبة الجلالة آن الأميرة الملكية لبريطانيا العظمى، خلفتها في العام ١٩٩٤ صاحبة الجلالة الإنفانتي دونا بيلار دي بوربون من إسبانيا، خلفتها في العام ٢٠٠٦ صاحبة الجلالة الأميرة هيا بنت الحسين من الأردن. وكل من الأميرة آن والأميرة هيا بنت الحسين هما فارستان أولمبيتان.

انضمت النساء إلى الأعضاء النظاميين للفرع الراكب من شرطة المدينة في عام ١٩٧١ وللشرطة الملكية الكندية الراكبة في عام ١٩٧٤، وهما مثالان

فقط من أمثلة عديدة عن النساء اللواتي يمتطين أحصنة في عملهن. ومن الناحية التقنية البحتة يمكن للنساء امتطاء الحصان بالسهولة نفسها التي يمتطيه بها الرجال، لكن الحواجز الاجتماعية الراسخة جيدا والمتقاطعة مع الروابط الحديثة بين النساء والأحصنة أنتجت ثقافة فروسية لا تشبه أياً من سابقاتها.

ولما كان تغيُّر الزمن يعني أن مفهوم الاعتماد على الحصان والذي كانَ قلب الثقافات الفروسية الأولى لم يعد له داع ولا مبرر، خلا أنه من الجدير بالاهتمام معرفة كيف تمكن العديد منها من الاستمرار بشكل أو بآخر حتى يومنا هذا. فالرابط بالتقاليد القديمة والجذور الثقافية التي يمثلها الحصان لا تزال ذات قيمة. واليوم ، ومع ما تقدمه وسائل الاتصال الحديثة من تواصل سريع لأصحاب الأفكار المتشابهة عبر القارات، فإن الواقع الثقافي للحصان لا يزال مستمرا من خلال التطور بطرق جديدة وعبر مسافات أبعد بكثير من أي وقت مضى.

هوامش

١ موقع المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، النشرة العلمية، «الحصان في الثقافة المنغولية The Horse in Mongolian Culture»، «آخر حصان بري The Last Wild Horse».mnh.aorg/sciencebulletins، تم التحقق من الرابط في يونيو/حزيران ٢٠٠٨] (الكاتبة)، تم التحقق من الرابط في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩] (المترجم).

٢ توماس بلاندفيل Thomas Blundeville. A Newe Booke containing the Arte of Ryding and breaking greate Horse (لندن، ١٥٦٠)، الصفحات C.i Cii,Aiiii,Ciiii.

٣ أنطوان دو بلوفينل Antoine de Pluvinel. The Maneige Royal، ترجمة هيلدا نيلسون Hilda Nelson (لندن، ١٩٨٩)، الصفحتان ٢٤-٢٥.

٤ فيليب سيدني Philip Sidney. Defence of Poesie, Astrophil and Stella، Other Writing تحرير إليزابيث بورجيس واتسون Elizabeth Porges Watson (لندن، ١٩٩٧)، صفحة ٨٣.

٥ توماس إليوت Thomas Elyot. The Boke called the Governour (لندن، لا يوجد تاريخ)، الكتاب ١٧.

٦ وليام كافنديش- William Cavendish. A New Method, and Extraordinary Invention, to Dress Horse لندن، 1667. sig.(c).

٧ المصدر السابق، صفحة ٤.

٨ مقتبسة في ألفين إم. جوزيفي، الأصغر Alvin M. Josephy, Jr. 500 Nations: An Illustrated History of North American Indians (لندن و نيويورك، ١٩٩٥)، الصفحة ٣٥٩.

٩ مقتبسة في المصدر السابق، صفحة ٣٦٢.

١٠ مقتبسة في كلايد إي. ميلنر الثاني وآخرون Clyde A. Milner II et al. ، طبعة، The West: An Illustrated History (نيويورك و أكسفورد، ١٩٩٤)، الصفحتان ٢٧٥، ٢٧٣.

١١ ألدو سيسا Aldo Sessa، Gauchos (كولونيا، ٢٠٠١)، صفحة ٧.

١٢ كسينوفون Xenophon. The Art of Horsemanship، ترجمة إم. إتش. مورغان M. H. Morgan (لندن، ١٩٩٣)، الصفحة ٤٠.

١٣ زاين غري Zane Grey. wildfire (لندن، لا يوجد تاريخ)، صفحة ٩.

١٤ جيمس فيليس James Fillis. Breaking and Riding with Military Commentaries، ترجمة إم. إتش. هايس M. H. Hayes (كينغستون، لا يوجد تاريخ)، صفحة ٢٤.

١٥ ميليسا هولبروك بيرسن Melissa Holbrook Pierson. Dark Horses و Black Beauties الجمال الأسود (نيويورك و لندن، ٢٠٠١)، الصفحتان ٦٠-٦١.

5- إلى وادي الموت

قد أحاكم عرفيا
ولكن فلتحل عليّ اللعنة إن كان لدي ميول
للعودة إلى أستراليا
وترك حصاني خلفي.
جندي من فوج الحصان الخفيف الأسترالي، الحرب العالمية الأولى

إنَّ إحدى أقوى صور الإنسان على ظهر الحصان هي تلك التي تمثّل الجندي وهو يمتطي صهوة حصانه. ولكنَّ المفارقة في ذلك تكمن في أنه على الرغم من كون الفحل يقدَّم غالبا كصورة لضراوة الذكر العنيفة، إلا أن الحصان بصورة عامة ليس ذا ضراوة خاصة ولا يعتبر حتى كائنا شجاعا. وبوصفه حيواناً مجبولاً على الهروب، فإن أفضل وسيلة لديه للدفاع هي قدرته على أن يسبق معظم مهاجميه. ولكن إذا لم يستطع الهروب، فإنه يدافع عن نفسه وحتى أشدّ الأفراس وداعة ستدفع أي خطر عن مهرها. وعندما يتقاتل الفحول على قيادة القطيع أو على الأفراس خلال موسم التزاوج، تقع نزاعات ضارية مرعبة، فالأحصنة بلا شك كائنات قادرة على إحداث أضرار هائلة بأسنانها وحوافرها. وضمن القطعان المستأنسة أو مجموعات الأحصنة الصغيرة غالبا ما تتم المحافظة على النظام من خلال العض أو الركل، كما أن للأحصنة أصدقاءها الطبيعيين وأعداءها العرضيين الذين يتذكرونها من لقاء إلى آخر خلال فترات زمنية كبيرة. والتقارب الكبير بين الأحصنة غير المنسجمة يمكن أن يتضمن عادةً صهيلا عالياً وضربات مفاجئة، بالساقين الخلفيتين، كحركة دفاعية، بدلا من الأماميتين الأكثر عدوانية. الأحصنة التي تُرى واقفة على ساقيها الخلفيتين «تلاكم» في حقل نادرا ما تشترك في معركة جادّة وهذا القتال الزائف عادة ما يكون مرتبطا بالمحافظة على المكانة في القطيع. القائد الواثق نادرا ما يتم تحديه والأحصنة التي تكون غير واثقة من أمنها في المجموعة هي التي تتحدى وقد تتنمر أو ترعب الآخرين.

المهر غافيزار ذو العامين يلعب-يتعارك، ويؤدي الحركات الطبيعية التي بنيت عليها تمارين الدريساج الكلاسيكية.

هذا بالطبع يمكن أن ينطبق على العلاقات البشرية أيضا ويقدم نموذجا لفهم دوافعنا للحرب والذي يشير للتشابهات بين البشر والأحصنة.

ولكن، لا تسعى الأحصنة لاكتساب الحظوة بدافع السلطة، أو للهيمنة على الأحصنة الأخرى، إلا إذا شعرت بأن مكانتها في القطيع مهددة. طبعا، هي لا تدخل في نزاع كمجموعة ضد حيوانات أخرى، أو البشر. بالنسبة إليها الدخول في معركة يتطلب ما هو معاكس لغريزتها الطبيعية في الهروب من الصوت العالي أو النشاط المرعب أو غير المألوف بكل ما منحتها إياه الطبيعة من سرعة. ومع ذلك فإن غريزة الجري مع القطيع و البقاء بقربه وإتباع قيادة قوية قد تدفعها للأمام أيضا، بغض النظر عن ارتباكها أو خوفها.

إن حصانا يعدو مسرعا بلا تردد نحو المعركة لأن هنالك مهمازا على جانبه وكل الأحصنة الأخرى حوله تعدو مسرعة هو على الأقل يحمل خيّاله إلى المواجهة. ويتطلب منه الأمر القيام بشيء آخر يتعدى غرائزه للمغادرة عند أول فرصة. وتشدد دراسات عربية إلى أن ثقة الحصان بخياله هي مفتاح

النجاح في المعركة، وهي ملاحظة تكررت في تقليد سكان أمريكا الأصليين. وتعتبر القدرة على حث الحصان للانقضاض عبر ميدان الصيد، والقفز فوق أي شيء يعترض طريقه هي الأساس الجوهري لسيرة مهنية ناجحة كفارس في الجيش البريطاني. والحصان الذي يثق في خياله سيواجه حالات لم يكن ليجرؤ على مواجهتها وحده، وحالما يُصبِح في الميدان، يتوجّب على هذه الثقة أن تبقى قوية كفاية للتغلب على أي شيء مُله.

في حين قد ينظر للفحول على أنها مناسبةً كأحصنة حرب، لكونها ميالة للرد على العنف بالعنف، فإن التركيز الرصين للفرس أو الحصان المخصي يقدم حماسا أقل ولكن تحكما أكثر. وبغض النظر عن التفضيل على أساس الجنس، فإن اختيار حصان جريء أو هادئ بدلا من حصان ذي طباع حساسة أو متوترة يعتبر حاسما بالنسبة إلى ركوب الخيل في أي نوع من النزاعات. وقد ميَّز إكزينوفون ذلك في الفترة الواقعة حوالي عام ٣٥٠ ق.م. وبقي ذلك هو السبب الذي وِفقه يتم اختيار الأحصنة للعمل، على سبيل



تفاصيل من بساط بايو في كان، نورماندي، تصوير معاصر لمعركة هاستينغز من العام ١٠٦٦.

المثال في قوات الشرطة الخيّالة حيث تخضع الأحصنة للعديد من اختبارات الشخصية قبل أن تُمنَح وظيفة. ولكن، فإن حصان الحرب و الحصان المطلوب للحرب قد يختلفان في كل شيء و الأحصنة المدربة لجر العربات، ولحرث الحقول، أو لحمل الأطفال، ماتت مع ذلك في ساحات المعارك بالآلاف.

إن صور الأحصنة المستأنسة الأولى، من الشرق الأوسط والتي تعود لحوالي العام ٢٠٠٠ ق.م، تظهرها وهي تسحب العربات الحربية، على الرغم من وجود دليل أثري من جنوب أوكرانيا يشير إلى أنها كانت تُمتطى على الأقل منذ ٢٠٠٠ سنة سابقة لهذا التاريخ. إن صور الأعمال اليومية أقل استخداماً للدعاية من صور المعركة، لذا فإن هذه الأجنة قد تجعل من دقة المعلومات أمرا مشكوكا فيه. ولا شك في أن صور الأحصنة في المعركة تمثل عظمة ومجد قادة الحرب، مع ذلك فإن معاناة وخسائر الجندي العادي وحصانه قد يتم تسجيلها أيضا، كما في منسوجات بايو المزخرفة.[١]

بينما لا تزال تؤدى إلى اليوم «وضعيات فوق الأرض» في تمارين الدريساج الكلاسيكية، كالكابريوليه والكوربيت التي اشتقت نظريا من الحركات القتالية المبنية على السلوك الطبيعي للفحول، ولا تزال فائدة هذه الحركات في خضم المعركة موضع نقاش منذ عصر النهضة وإلى الآن. وقد تم ابتكار حركات مماثلة في الهند تعود إلى القرن الثالث عشر، صُمّمت بعضها لترفع المحارب إلى ارتفاع يكفي لمهاجمة عدوٍ يركب فيلاً، ومما لا شك فيه أن جميع هذه التقنيات ستبدو بمظهر رائع و ستزرع الخوف في قلب كل من يجدُ حصانا في الهواء فوق رأسه. وعلى الرغم من ذلك فإنه بغض النظر عن الوقت والثمن الذي يتطلبه تدريب أحصنة قوية مناسبة، تبقى قدرة كل من الأحصنة وخياليها على الوقوف في وجه هجوم صارخ للقيام بأعمال بطولية تجعل الحصان يتلقّى طعنات السيوف في بطنه المكشوف، موضع تساؤل.

---

(١) في الحقيقة ليست بساطاً وإنما هي قطعة نسيج مطرزة (بعرض ٥٠سم وطول ٧٠م) عثر عليها في كاتدرائية بايو في فرنسا ويعود تاريخها إلى مطلع القرن الحادي عشر، تظهر بالصور الأحداث التي أدت إلى استيلاء النورمانديين على إنكلترا.

إن الهجوم المهيب عندما يتّحد الرجل والحصان بجرأة في وجه عدو مشترك كان مُلهما للعديد من الشعراء و الفنانين العظماء، لكنَّ بطلَ مسرحية جورج برناردشو الكابتن بلونتشلي [1] حطم الأوهام الرومانسية لرينا حول كون قائد هجوم الفرسان هو «أشجع الشجعان» من خلال براغماتية الجندي الخبير:

«همم! كان يجب أن تري ذلك البائس وهو يشد لجام حصانه... إنه يهرب منه، بالطبع: هل تعتقدين أن الرفيق يريد الوصول إلى هناك قبل الآخرين لكي يُقتل؟... يمكنكِ أن تميزي الشباب من ضراوتهم وجَلدِهم المحموم لأحصنتهم. أما الأكبر سنا فيتجمعون في زمرة خلف الحارس رقم ١: فهم يعلمون أنهم مجرد طلقات، وأنه لا فائدة من محاولة القتال. إنَّ الجراح الناتجة في أغلبها هي ركبٌ مكسورة نتيجة لتصادم الأحصنة». [1]

شئنا أم أبينا، فقد غير استخدام الحصان في الحرب طبيعة النزاعات البشرية. فلمحارب على صهوة حصان ميزات عدة مقارنة بجندي يسير على قدميه، وبشكل أساسي القدرة على إحداث «صدمة القتال»، حيث الوزن والكتلة الهائلان للأحصنة وهي تعدو تستخدم لاختراق صفوف العدو. وقد استخدم هذا التكتيك من قبل جيوش مختلفة تاريخيا وثقافيا كاختلاف





من قبر صيني يعود للفترة الواقعة بين عام ٢٠٠ ق.م. تقريبا و ٢٠٠ م. يعتقد بأنها أول تصوير للرمية الفرثية.

جيوش الإسكندر الأكبر و ويليام الفاتح. ومن المفارقات، أن الأحصنة يمكن استخدامها للضربات الخاطفة أو للانسحاب التكتيكي، وهي تقنية فضّلها الخيالة الرماة الفرثيون، والذين أثناء ما بدا أنه انسحاب لهم من المعركة، استداروا و أطلقوا السهام بينما الحصان يعدو مبتعدا، ومنه التعبير الذي يستخدم في اللغة الإنكليزية Parthian shot أو parting shot والذي يدل على ملاحظة لاذعة تقال قبل الانصراف. كما أن في إمكان رجل يمتطي حصاناً أن يرعب العدو الواقف على قدميه، فالارتفاع المضاف يمنح قوة أكبر لأرجحة الأسلحة، والخوف من أن يصدم المرء بحصان يعدو بكامل سرعته كفيل بجعل أكثر المدافعين شجاعة يتنحى جانبا.

يمكن للأحصنة أن تخدم في الحال كحيوانات سحب أو للركوب أو لجر العربات، مما يجعل كل جانب من جوانب الحملة العسكرية أكثر كفاءة. وعلى صهوة الحصان يمكن للطموح أو الراغب في الانتقام أن يبحث أكثر عن أرض أو عن الانتقام، بينما القوات الدفاعية أو التعزيزات يمكنها الوصول إلى حيث تريد بشكل أسرع بكثير. وقد زاد الحصان من قدرة الجيش على التنقل بشكل أكبر بكثير من النسبة بين ما يقطعه الإنسان إلى ما يقطعه

محارب ياباني، ساتو ماساكيو، وحصانه وخادمه، مهداة ليوشيتورا أوتاغاوا، خلال فترة ١٨٥٠ - ١٨٧٠.



الحصان خلال اليوم.

لقد استُعملت أنواعٌ متعدِّدة من الأحصنة في النزاعات، بدءاً من السلالات المحلَية، كبوني السهوب القوية في أوراسيا ، وانتهاءً بسلالة من أحصنة الحرب لحمل وزن فرسان العصور الوسطى بكامل دروعهم، إلا

أنها ليست بحجم أحصنة الشاير، كما هو الاعتقاد الشائع، ولكنها أقرب إلى أحصنة الصيد الثقيلة الحديثة. كانت الحرب واحدة من أهم الوسائل التي تركت من خلالها الأحصنة مواطنها الأصلية وبذلك فهي مسؤولة في غالب الأحيان عن إدخال دماء جديدة في السلالات الموجودة. إن كلاً من السلالة البربرية في شمال أفريقيا والسلالة العربية تعتبران اثنتين من أقدم و أكثر السلالات تأثيرا وقد أدخلتا إلى أوروبا بأعداد كبيرة خلال تقلبات القرن الثامن. فخلال غزو إسبانيا شكل البربر جزءا من جيوش المسلمين، والأحصنة التي امتطوها و خاضوا بها المعارك أثرت على تطور الحصان الإسباني. ونوع الحصان المستخدَم في الحرب يعتمد بشكل كبير على أسلوب القتال ولكن السلالات الأكبر التي فضلتها الجيوش الأوروبية كانت تنقصها السرعة. وعندما هزمت جيوش المسلمين في معركة بلاط الشهداء في عام ٧٤٣ م، كانت أحصنة الفرنجة المتينة غير قادرة على مجاراة الأحصنة البربرية الأخف خلال هروبها. ولكن تُرِكَ منها ما يكفي لتشكيل السلالة المؤسسة لليموزين، وهي سلالة خاصة من أحصنة الانقضاض السريع التي تجمع بين القوة والقدرة على حمل الأوزان الثقيلة عند السلالة الفرنسية، مع السرعة وقدرة التحمل الكبيرة لدى الحصان البربري. ويُقال أنه في عام ١٦٧٥ استمرت فرس ليموزين تدعى لا بيه، المفضلة لدى فيكونت تورينيه، مارشال جنرال جيوش فرنسا، بقيادة هجوم سيدها على المدفعية النمساوية على الرغم من مصرعه في أثناء المعركة.

تعاظمت أهمية سلاح الفرسان الخفيف مع السمعة الاستثنائية التي نالها من خلال نجاح الهوسار[1] الذين رعاهم ماثياس كورفينوس ملك المجر في القرن الخامس عشر. حيث كان على واحد من كل عشرين رجلاً في القرية أن يقوم بتأدية الخدمة العسكرية وقد اشتهروا بضرباتهم الخاطفة، وتنقُّلهم المثير للإعجاب، ورفضهم لمعارك الوحدات المنظمة في تشكيلات. وعرف كورفينوس تماما ماذا يريد من حصان الحرب وكان رفضه «للأحصنة التي

(١) وحدة خفيفة من الخيالة نشأت في المجر في القرن الخامس عشر، ثم انتشرت في أوروبا و أمريكا.



تقفز هنا وهناك بعراقيب منثنية على الطريقة الإسبانية» ضربةً للذين يعتقدون بأن الحصان الإسباني هو خلاصة لكفاءة وتميز الحصان لاستخداماته كافة. ويبدو أن الهوسار كانوا يفضلون الصفة العمليّة المجردة وكانت الأحصنة المثالية بالنسبة لهم هي «الأحصنة التي تعدو بخطوات واسعة وتقف بثبات عند الحاجة»(٢).

إن طبع الحصان مهم بقدر أهمية بنيته الجسدية، وقد كان للتجّار الهندوس في الهند خلال القرنين الثاني والثالث عشر نظام تصنيف للأحصنة مبني على طباعها. فحصان البرهمن يمكن الاعتماد على شجاعته في المعركة، أما الخساتريا فيعرف بجلده. والفايشايا على الأرجح سيتجنب أي شيء يخيفه، أما الشودرا فجبان لا يتوانى عن طرح الخيال أرضا و الهرب طلبا للأمان. ينصح إكزينوفون بالأحصنة التي تُدرب في ميادين الصيد لأنها جريئة وثابتة الجأش في الحرب، فقد اعتبر لفترة طويلة أن الطبع الذي نشأ لرياضات التحدي هو الأساس الأنسب لحصان الحرب.

حالما يصبح لسلالةٍ أو نوعٍ من الأحصنة شعبية ضمن سلاح

الفرسان، يزداد الطلب وتصبح الإدارة الصارمة للأنواع المناسبة شائعة ضمن القرون التي كان فيها الحصان عنصرا أساسيا للحرب الناجحة. وقد قام فيليب الثالث بين عامي ١٢٧٩ و ١٢٨٢ بالتحكم بعناية بتربيةِ و تنقل أحصنة الحرب لضمان احتياط كاف من الأحصنة لفرنسا. كان علَى ملاَّكَ الأراضيَ الاحتفاظ بأربعة أفراس استيلادية كما أن سلالة الاستيلاد لا تُغير ملكيتها ضمن اتفاقات تسويات الديون. وكان يجلب الأحصنة بأعداد كبيرة إلا أنه كان يرغِمُ أيَّ تاجرِ لديه فائض من أحصنة الحرب على الاستغناء عنها كما كان يمنع حركة السلالة الملائمة إلى خارج البلد أو حتى ضمنه. وظهرتْ نماذج مماثلة في أماكن أخرى، من الأنواع الخاصة المطلوبة للحرب والتي لم تتأثر بالتكتيكات الحربية المفضلة فحسب بل و بالمناخ أيضا. ففي الهند كانوا يفضلون الأحصنة سريعة الانفعال، للهجوم والانقضاض خلال عصر إمبراطورية المغول في القرن السادس عشر، وذات الكساء الناعم، والجلد الرقيق، والحوافر القوية مما يسمح لها بخفض درجة حرارتها بسرعة بعد بذلها لمجهود كبير ومعاناتها مع التضاريس الصعبة. فصنفت أحصنة سلاح الفرسان ضمن سبعة أنواع بناءً على فائدتها وحجم الطلب عليها وتم حظر أنواع تصدير الأحصنة كافة. وعبر العصور وفي أنحاء العالم لم يُمتَطَ الحصان في المعارك ويُقيَّم بناءً على أدائه فيها فحسب بل تم تشكيل جسمه و تفكيره ليصبح أكثر ملاءمة لأغراض الحرب، وهي حقيقة على البشرية أن تخجلٍ منها بكل تأكيد.

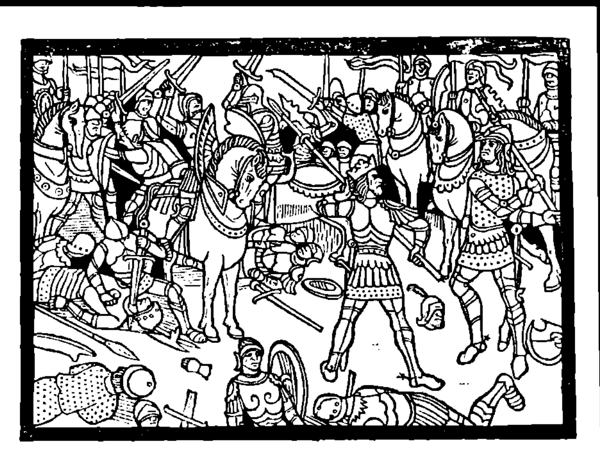
إنّ معظم ثقافات الحصان التي تمت مناقشتها في الفصل السابق قد تورطت في نزاعات بشكل أو بآخر خلال تاريخها. فبينما وجد سلاح الفرسان لدى جنكيز خانٍ من أجل شن الحرب وتطبيق رؤيته على أرض الواقع، كان لراعي البقر الأمريكي، الذي في الظاهر مجرد راع، شهرة مماثلة لمناوشاته المحلية، وصدامه مع رجال القبائل الأصلية، والنزاعات المسلحة. والفارس الصليبي الذي شقّ طريقه بالقتال خلال قرنين من الزمن، هو أحد أكثر الصور شهرة على الأرجح، أما المحارب المسلم الذي كان يواجهه فقد

كان بشكل مماثل ناجحا ويمثل قوة هائلة.

في أواخر القرن الثاني عشر ، وبالاعتماد على تكتيكات معاكسة تماما، قام فرسان ريتشارد قلب الأسد ذوو الدروع الثقيلة ، ممتطين سلالة أوروبية متينة البنية ، بمواجهة محاربي صلاح الدين الأقل تسليحاً، وبالتالي حماية، والممتطين أحصنتهم العربية الرشيقة، فكان لنزاعهم أثر مدمر على كلا الطرفين وأدى إلى نوع من الإعجاب الشديد بين القائدين. فعندما قُتل حصان ريتشارد وهو يمتطيه في المعركة، قام صلاح الدين بإرسال حصان جديد له، بدلا من الاستفادة من ازدياد احتمال تعرضه للإصابة. لم يذكر التاريخ أي نوع من الأحصنة قدم صلاح الدين لعدوه لكن الاختيار لم يكن عشوائيا.

كان يسود المحاربين العرب خلال العصور الوسطى، والذين كانوا بأغلبهم من سلاح الفرسان، نظام قبليّ بحيث يتم وفقا له إمداد سلاح الفرسان بما يحتاج حسب ما يرتأي الخليفة الحاكم. فوفقا للقانون الإسلامي فإن لحصان الحرب إضافة إلى سيده الحق بحصة من غنائم الحرب، وحصة الأحصنة الأصيلة من السلالات الصافية أكبر من الأحصنة الهجينة، كما أن للفحول والأفراس حصة أكبر من الأحصنة الخصيّة. يدل ذلك أولا على أن كلاً من الأحصنة الخصية و غير الخصية كانت تمتطى في المعركة، ولكن أيضا على تربية أحصنة ذات خصائص مميزة لسلاح الفرسان كان يدعم عمليا من خلال المكافآت المقدمة. كذلك، مع تلقي الفارس مكافأة أكبر من جندي المشاة، أوجد دوافع عِدّة وراء الطموح للالتحاق بسلاح الفرسان. تغيَّرت هذه القوانين بعض الشيء عبر القرون وتحت سُلطة حكام مختلفين ولكن، عموماً، كان مما يستحق العناء أن يكون المرء فارسا ومزوَّداً بأفضل حصان ممكن. وهنالك سلبيات أيضا: ففي حال موت الحصان خلال خدمته العسكرية، ولكن خارج المعركة، على الخيَّال أن يمول الحصول على بديله بنفسه، وفي حال قتل الخيال أيضا قبل المعركة، لا تحصل عائلته على شيء كما يتم تجريدهم من بعض ميزات خدمته العسكرية. لكن في

الملك يقاتل في اشتباك
قريب بالأسلحة البيضاء
بين أجزاء الجسم المُبعثرة
حول حوافر أحصنة
فرسانه في منحوتة خشبية
تعودُ حوالي عام ١٤٨٩.



Cy apres sensuyt la tierce
partie de ce presẽt traictie La
qlle parle des drois darmes
selon les loix et droit escript.
Et deuise le premier chappi-
tre par quel moyẽ lacteur ad
toulta a ce liure ce qui est dit
en droit des faitz darmes
Premier chappitre.

Insi que ie pretendoye
a entrer en ceste iiie.
partie de ce present li-
ure mon entendement assez tra-
uaille de la pesãteur de sa matiere
ou labeur des precedẽtes parties
Adonc surprins de somme en mõ
lit couche: me apparut en dormãt
par semblance vne creature tres
solẽnel habit de chiere et de main-
tien ancien sage et auctorise iuge
qui me dist ainsy. Chier amy
duquel en fait ou en pẽsee labeur
en nulle heure ne cesse de exercite
destude que tu as aux choses que
lettres peuent demonstrer p espe-

حال نجح الخيال في قتل المغير في المعركة، فإنَّ ذلك يخوله الحصول على أحصنة الرجل، ودرعه الشخصي وأسلحته. وكما ناقشنا في الفصل الثالث، فإن صفاء سلالة الحصان العربي هي دائما محط تقدير كبير في موطنها الأصلي وهذا يناقض تماما حصان الحرب الأوروبي الذي يزاوج ويهجن مع نوع محدد، وبالتحديد نوع قادر على حامل أوزان ثقيلة قادر على تحمل عبء رجل في كامل دروعه.

إنَّ صورة الفارس المتطي حصانه، لعلّها أكثر الصور شهرة للجندي



السير غالاهاد في بحثه عن الكأس المقدسة لآرثر هيوز (١٨٣٢-١٩١٥): الصورة المصغرة للفارس النبيل على صهوة حصانه، يحركه الشرف والتعصب الروحي.

وهو على صهوة حصان، ترتبط مع رومانسية الأسطورة الآرثرية، والتي تظهر في العديد من حكايات الجن و الخرافات وبقي مشهورا في الفنتازيا الخيالية الحديثة. ولكن هذا المحارب في جانب كبير منه كان ذا مظهر تاريخي والنواحي العملية لنقل رجل في كامل دروعه تجعل من الإعداد للحرب أمرا بعيدا كل البعد عن الرومانسية. وبينما كان الفارس الآرثري يعدو في أعمال الفن الراقي لا يدعمه غير حصانه، وسيفه، ونبل روحه، على الرغم من نذور الفقر القديمة، فإنَّ قوات النخبة من فرسان الهيكل لم يكونوا يؤمنون بالترحال الخفيف. فأكثر من مئة قانون من قوانينهم المعقدة ترتبط بتجهيز الأحصنة وكان المطلب الأساسي هو أن يكون للضباط الكبار أربعة أحصنة حرب وحصان عام للركوب. أما المعلم الأعظم للهيكل فقد كان لديه أيضا قس خاص به وموظف ذو ثلاثة أحصنة، ورقيب بحصانين، وخادم بحصان واحد ليحمل درعه ورمحه. كما يحق له ببيطار، ومترجم، وطاه وجندي من السكان المحليين مدجج بالسلاح على أحصنة، ومجموعة من الفتيان الصغار على الأقدام للقيام بأعمال الحمل و الجلب. وهنالك إضافة اختيارية للمعلم تتمثل بحصان تركماني يحتفظ به في القافلة كجزء من تجمع الأحصنة المعدة للركوب، ويقاد إلى المعركة من قبل حامل الدروع ليقف في الاحتياط.

إنه حصان من سلالة صحراوية يرتبط به في يومنا هذا الأكحل-تيكي من تركمانستان، والذي يجمع بين القوة والقدرة على الاحتمال وبين القدرة على البقاء عل حصص قليلة من الغذاء والماء. كما أنه أيضا أحد خيارات الركوب العام، وكان يستخدم على ما يبدو كحصان احتياطي للطوارئ في ظروف متنوعة، وقد اختير لميزاته القوية طبيعيا.

أظهر الصليبيون أيضا تطورا تدريجيا في تدريع الحصان كما للخيّال. فحصان المحارب دائما يحتاج لحماية والشكل الأول كان دثارا من الجلد المقوى لأحصنة العربة في الشرق الأدنى ومصر وذلك حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. وقد عُثرَ على دروع تتضمن حماية للرأس في بقايا أثرية من آسيا الوسطى تعود للقرن السادس قبل الميلاد وحماية تتكون من حراشف متداخلة من الجلد أو المعدن تثبت فوق قطعة قماش وقد أصبحت هذه الحماية شائعة في أرجاء العالم القديم. والمنحوتات النافرة لليونانيين والإيرانيين تظهر الأحصنة وهي ترتدي صفائح مدرعة ويعود تاريخ هذه المنحوتات إلى الفترة بين عامي ٢٠٠ ق.م. و ٥٠٠ م. وقد فضّل الرومانُ الجنودَ المشاة على الفرسان، ولكن كان لديهم وحدات خاصة من الفرسان المدرعين خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد. وعلى الرغم من ذلك لم ينتشر تدريع الحصان في جيوش أوروبا الغربية إلا مع نهاية القرن الحادي عشر.

بحلول القرن السادس عشر تطور تدريع الحصان والخيال إلى طقم متكامل معقد، يدعى «غارنيتشر»، مع تصاميم مفصلة محفورة على سطح المعدن بواسطة حمض. لقد كان ذلك ذا جمال استثنائي في كثير من الحالات، متطلبا براعة فنية عالية في التركيب والتزيين، بزخارف حلزونية ونباتية بالإضافة إلى شعار النبالة وعبارات منقوشة كجزء من حرفة صانع الأسلحة. وكان لدى المتخصصين في الفن ورشاتهم الخاصة وكانت سمعة صانع الأسلحة وزبونه متوقفة على هذه التجهيزات، لذا فإن بعض أشدّ التصاميم تفصيلا كانت مخصصة أكثر لأغراض المراسم والمسابقات عوضاً عن ساحة المعركة.

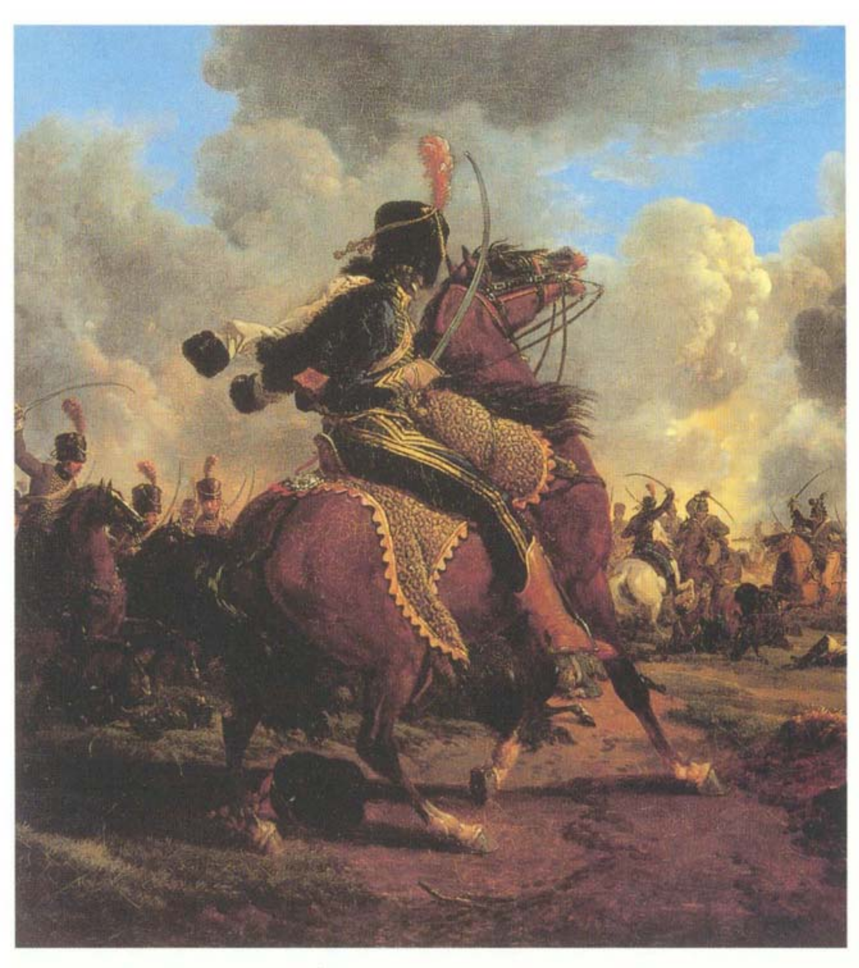


تراجع استخدام التدريع الثقيل للحصان أو الخيال على الرغم من وصوله إلى مستوى التحفة الفنية، حتى أُهمِلَ مع ظهور الأسلحة وتكتيكات المعركة الجديدة، بحيث أصبح له مع بداية القرن السابع عشر تلك الجاذبية الرومانسية لعصرٍ ولَّى والتي بقيت حتى يومنا هذا. ومن المشكوك فيه إنْ كان له أي استعمال مهم أو مريح لأحصنة الحرب التي كانت ترزح تحت ثقل وزنه ويبدو من المستبعد أنَّ تلك التصاميم الجميلة المحفورة قد تركت انطباعات كبيرة لديهم. وعلى الرغم من تبدُّل الصرعات في الأزمان المختلفة ، بقيَ الحصان في وسط نزاعات البشر، سواء أكان محميا أم لا.

هذه الحتمية أدت إلى موت الأحصنة في الحروب بأعداد مذهلة. في عام ١٤٤٨، في معركة كارفاجيو، قتل ١٠٠٠٠ حصان. في عام ١٨١٢ في حرب شبه الجزيرة[1] خسرت فرقة واحدة من جنود نابليون في روسيا خلال شهرين ١٨٠٠٠ حصان من أصل ٤٣٠٠٠ وخلال الانسحاب المخزي من

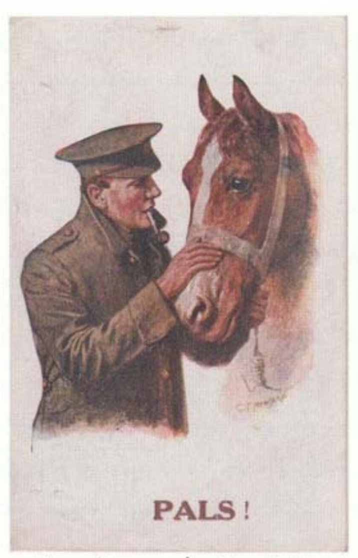
---

(١) يبدو أن الكاتبة كانت تقصد غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢. أما حرب شبه الجزيرة (١٨٠٧-١٨١٤) فهي الحرب التي شنها نابليون للسيطرة على شبه الجزيرة الأيبيرية.



الهجوم الخاطف للهوسار الإمبراطوريين، لجاك فرانسواز سويباش-ديسفونتاينز، ١٨٢٠.

موسكو هلك ٣٠٠٠٠ حصان، بشكل أساسي بسبب البرد وسوء التغذية. ودوق ويلنغتون كان يطلب باستمرار أحصنة جديدة ليمتطيها وقد وصف شبه الجزيرة والسأم يعتريه بأنها «قبر الأحصنة»(٣). فقد خسر في الفوج الرابع عشر للدراغون الخفيف ١٥٦٤ حصانا من أصل ١٨٤٠ تحت إمرته،



وذلك مقابل خسارة ٦٥٤ رجلا. وفي حرب البوير قتل ٥٠٠ ألف حصان وبغل وحمار، بينما يقدَّر أن رقما مذهلا يصل إلى مليون و ٤٠٠ ألف حصان قتلت خلال الحرب الأهلية الأمريكية. كما قتل ٥٠٠ ألف من أصل مليون حصان خدمت في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى. وفي الحرب العالمية الثانية كانت خسائر الجيش الألماني تبلغ وسطيا ٨٦٥ حصانا في اليوم وذلك على مدى ٢٠٠٠ يوم، منها ما يفوق ٥٢ ألف حصان خلال معركة ستالينغراد وحدها. في عام ١٩٣٩ خسر سلاح الفرسان ٢٠٠٠ حصان خلال ٣٠ دقيقة أثناء حصار وارسو حيث رصفت الطريق إلى المدينة بالأحصنة الميتة والمحتضرة.

مقابل هذه الأعداد الهائلة توجد الروايات الشخصية للجنود والتي تظهر مرارا أن أهمية الحصان بالنسبة إلى سائسه تتجاوز فائدته في المعركة بكثير. ويتذكّر ضابط في سلاح المدفعية الملكي من الحرب العالمية الأولى أثرَ إعلان أنَّ حصانك المفضل غير مؤهل للخدمة:

«أصر البيطري على أن سايلور قد أصبح كبيرا بالعمر، ونحيلا جدا وغير ملائم للخدمة. إنه لا يعلم. فقط يحكم بناء على المظهر. لم يكن مظهر سايلور في أحسن حالاته، ولكنه كان يساوي ستة من أحصنة البطارية.[1] فإذا أبى فريق المدفع[2] المسير، نربط معهم سايلور العجوز ليخلصهم من هذه المتاعب. وإذا علقت عربة في حفرة أو كانت ثقيلة جدا لتنطلق، كان سايلور العجوز يحركها. فقد كان في وسعه أنْ يعمل أربعاً وعشرين ساعة من دون أن تغمض له عين. إنه وديع كالحمل وذكي كالثوروبريد، لكنه لا يشبه أيِ كائن على وجه الأرض، لذا سنفقده. لقد ودعته كامل البطارية وأوشك كلَ من السائقين و المدفعي الذي كان يطعمه على البكاء» (٤).

إنَّ مشاهدة حصان وهو يموت تسبب أسىً معقداً وقد استذكر ذلك توم بات الملازم في فوج يوركشاير الملكي للمشاة الخفيفة عندما قال: «إنه لمن الفظاعة أن ترى أصدقاء المرء من مختلف الرتب ملقون على الأرض أمواتا... لكنَّ مشهد الأحصنة الميتة أصابنا باشمئزاز أكبر. إنهم ليسوا رجالا أحراراً مثلنا»(٥). إن الشعور بأنه لا مكان للأحصنة في النزاع كرّره ويليام «نوبي»[3] كلارك من فوج فرسان الملكة:

«غالبا ما كنا جائعين، وكذلك كان حال البغال و الأحصنة ويا لمعاناة هذه المخلوقات البائسة. أعتقد بأنها كانت متعبة وفي حالة سيئة أكثر منا. ضحايا بريئة لجنون الإنسان. سينفطر قلبك، خاصة عند عبورك من أمام أحدها وهو مصاب وقد تُرك ليموت في نوبات عذاب و صراخ وألم وخوف»(٦).

يبدو أن الجندي سيدني سميث تطارده أشباح ذكرياته من عام ١٩١٧:

«لقد مررتُ بتجربة مريعة حين شهدتُ اختفاء ثلاثة أحصنة وستة رجال في الوحل. إنه مشهد سيبقى محفورا في ذاكرتي للأبد؛ صرخات الجنود

(١) بطارية مدفعية هي وحدة عسكرية أصغر من الكتيبة تتكون من ٦ إلى ٨ مدافع .

(٢) يقصد الأحصنة التي كانت تجر المدافع.

(٣) لقب يطلق في اللغة الانكليزية على كل شخص تكون شهرته كلارك.

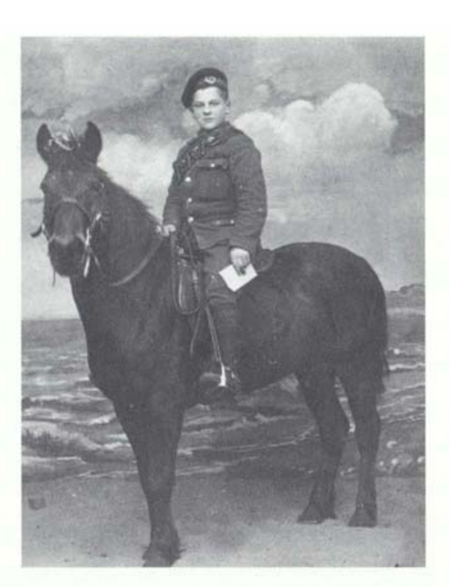
العالقين وهم يحاولون تحرير أنفسهم كانت لا توصف. آخر حصان غاص في قبره الموحل، مُبقياً فتحتي أنفه فوق الوحل لآخر ثانية. ومع اندفاع الوحل المفاجئ أدركت أن كل شيء قد انتهى»(٧).

عند بداية نهاية الحرب الأهلية الأمريكية نصت شروط الاستسلام، التي وضعت في محكمة أبوماتوكس في فرجينيا، عام ١٨٦٥، على أنه يسمح لكل فارس من الجيش الكونفدرالي أن يأخذ حصانه معه إلى دياره. وعلى الرغم من ذلك، فإن نهاية الحرب بالنسبة للأحصنة لم تكن غالبا تعني العودة للوطن و التسريح المشرف، بل أن تُترك بعد تسديد طلقة رصاص في رأسها إن كانت محظوظة.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بيعت الأحصنة التي خدمت في أفواج ضمن الحملات الصحراوية لتعيش أيامها بعمل شاق كأحصنة عربات أو تحميل في شوارع بلاد بالكاد يملك سكانها ما يكفيهم لإطعام أنفسهم، فقد ترك الحصان وحيدا في بيئة مختلفة عن بيئته الأصلية، وفي جو شديد الحر غير ملائم. بعض الضباط فضلوا إطلاق النار عليها و قتلها بدلا من تركها لمستقبل كهذا، أما فوج الحصان الخفيف الأسترالي والمتمركز في فلسطين،



جندي وحصانه من فوج الحصان الخفيف الأسترالي، رسم تمهيدي لغلاف مجلة، لإدوارد بينفيلد، ١٩١٥.



مراسل شاب من الخيالة وحصانه البوني، حوالي ١٩١٤.

رفض الانصياع للأوامر بكل بساطة. فمع معرفتهم بأن أحصنتهم ستباع كسلالة عمل أو تذبح لجلدها بناء على عمرها، قاموا بتنظيم سباق خيول للواء. وفي اليوم التالي اخذوا أحصنتهم وعلقوا على كل منها مخلاة[1] ثم قاموا بإطلاق النار عليها وقتلها جميعا وهي تستمتع بطعامها الأخير.

عندما قرر الكاتب ريتشارد هولمز إعادة تصوير تراجع قوات الحملة البريطانية من مونز إلى مارنيه في الفترة الواقعة بين أغسطس /آب و سبتمبر / أيلول من العام ١٩١٤؛ اشترى للرحلة حصانا اسمه ثاتش، كان يخطط لبيعه بعد ذلك، ولكنه احتفظ به حيث قال:

«بعد كل هذه العناية، والإطعام، والتجهيز للانطلاق بدأت أفهم شعور الفرسان حيال جيادهم. الآن فهمت كيف أنه من بين كل أعمال الحكومة الدنيئة والحقيرة عند نهاية الحرب، كان قرار بيع أحصنة الجيش محليا –بدلا من إنفاق الأموال لإعادتها إلى الوطن- سببا لهذا الاستياء كله»(٨).

(١) ما يجعل فيه العلف و يعلق على عنق الدابة.

بحلول العقد الثالث من القرن العشرين كان تقدير إسهامات الأحصنة التي ماتت في النزاع عالية لدرجة أنه اقترح إقامة نصب تذكاري على شرفها. ولكنَّ السيدة دوروثي بروك، القاطنة في القاهرة حيث كان زوجها قائدا برتبة لواء، كتبت رسالة إلى صحيفة مورنينغ بوست، والتي سُمّيَتْ لاحقا الديلي تيليغراف. بدأت رسالتها باقتراح وسيلة بديلة لتكريم هذه الأحصنة وتابعت شرحها:

«هنا في مصر، لا تزال المئات من أحصنة الجيش القديمة تباع بسبب الحاجة منذ نهاية الحرب. وكلها تجاوزت أعمارها الآن العشرين عاما، والقول إنَّ غالبيتها تمر بأوقات صعبة هو وصف غاية في اللطف. إنَّ هذا البلد غير مناسب لأحصنتنا: فالحرارة، و الغبار، والحاجة إلى الماء، وكون الأحصنة الأوروبية أكبر حجماً و تحتاج لطعام أكثر من ما يستطيع المالك من الطبقة الفقيرة تأمينه، كل ذلك يضيف الكثير إلى معاناتها. فتلك التي بيعت عند نهاية الحرب انخفضت قيمتها بشكلٍ كبير في الواقع: لم تعد قادرة على أداء عمل جيد وغالبيتها تعيشُ أياماً بائسة من الكدّ في عهدة أسيادٍ كانوا من الفقر بحيث لا يستطيعون إطعامها – وهم أنفسهم متعودون على المشقة بحيث ليس هنالك ولو بصيص صغير من الأمل ليقدّروا حجم معاناة الحيوانات التي بين أيديهم»(٩).





التكنولوجيا المتغيرة للحرب: أحصنة من سلاح الفرسان من عام ١٩١٤ وهي ترتدي قناعاً واقياً مع أنابيب للتنفس خلال هجوم بغاز الخردل.

تابعت السيدة برووكس داعيةً إلى إنشاء صندوق لشراء هذه الأحصنة المعتلة من سلاح الفرسان سابقا وقد أدى جدالها العاطفي ، ولكن المنطقي، إلى جمع تبرعات تبلغ قيمتها ما يعادل ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني في يومنا هذا. فقامت بشراء ٥٠٠٠ من أحصنة سلاح الفرنسة المتقدمة في العمر كما أسست في القاهرة عام ١٩٣٤ مستشفى ذكرى القدماء من أحصنة الحرب(١) ، مبشرة بعناية بيطرية مجانية لجميع الأحصنة و الحمير العاملة في المدينة. يستمر إرث عملها اليوم من خلال أكبر مؤسسة خيرية في العالم لرفاه الأحصنة و البغال و الحمير العاملة. تقدم مؤسسة بروك العناية البيطرية و الدعم في كل من آسيا، وأفريقيا، وأمريكا الوسطى، والشرق الأوسط لضمان حيوانات عاملة صحية للأشخاص الذين يعتمدون عليها في بعض من أفقر الجماعات في العالم.

إنَّ خوف الحصان الغريزي من الضجيج، والحشود، والدم، والفوضى، لا يترك له مكاناً في ساحة المعركة، والأيام التي كان فيها على الأحصنة أن

(١) يعرف اليوم باسم مستشفى بروك للحيوانات.

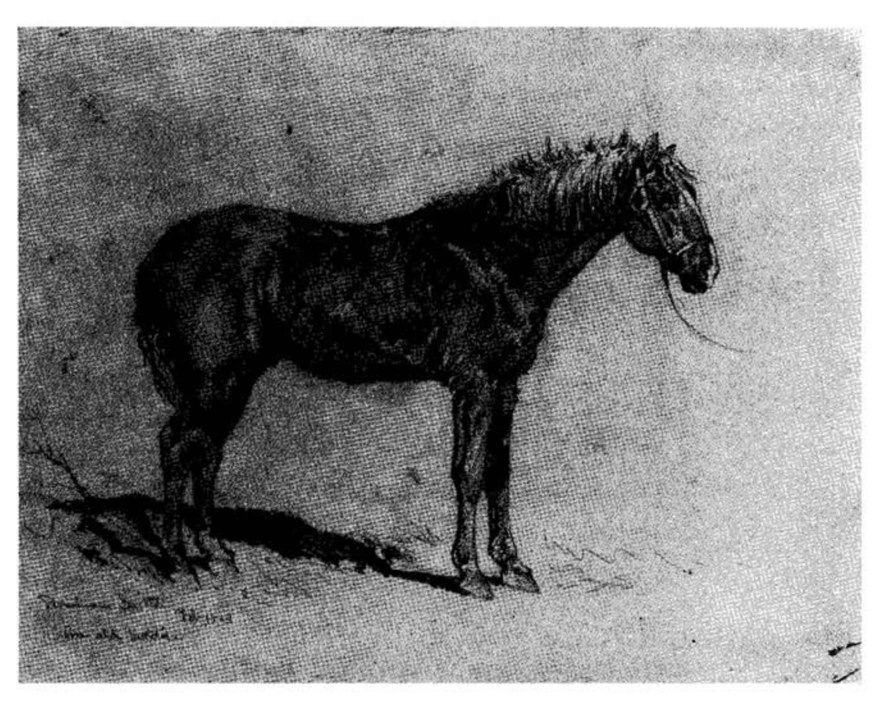




جندي يواسي حصانه الجريح: تمثال لهنري ديسيغي جوكيه (١٨٥٨-١٩٢٧) على شرف الفرقة «لندن» الثامنة و الخمسين البريطانية في تشيبلي، بيكارديه، شمال فرنسا.

تعاني من ذلك بشكل منتظم وبأعداد تبلغ الملايين منها ، أصبحت من الماضي. كانت الحرب العالمية الأولى هي آخر نزاع عظيم استخدم فيها سلاح فرسان نظامي بذلك الحجم. وعلى الرغم من ذلك، وبينما ينظر اليوم لصورة الحصان في الحرب بشكل أساسي على أنها تاريخية، ومع كل التكنولوجيا الحديثة التي في متناول المحاربين اليوم، لا تزال الأحصنة تستدعى للخدمة بين حين وآخر. ففي جبال أفغانستان الوعرة، تعتبر الأحصنة الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بواسطتها قوات تحالف الشمال الأفغانية مهاجمة معاقل حركة طالبان وفي عام ٢٠٠١ وجدت القوات الخاصة الأمريكية نفسها جزءاً من وحدة للخيالة مؤلفة من ٣٠٠ خيال عندما عجزت الآليات عن التقدم نظرا لعقبات في الطريق. فدور الحصان في الحرب بكل أسف لم ينته بعد، على الرغم من التقلص الكبير في الدور الذي يلعبه والذي كان أمرا جيدا للحصان.

المعضلة الأخلاقية المعقدة المرتبطة باصطحاب الحيوانات للحرب يتم طيها جانبا حالما يعتبر العدو مشتركا. على الرغم من ذلك فإن رد فعل الجنود على أحصنتهم والمعاناة التي يختبرونها خلال النزاعات البشرية تلقي الضوء على مسؤولية عميقة. ومع إيجاد البشر وسائل أكثر كفاءة لقتل بعضهم



البعض من هجوم خاطف للفرسان، أخذت الطريقة التي ننظر بها إلى مجازر العصور الغابرة تختلف أيضا. فمن الصعب رؤية الهجوم الخاطف على أنه عظيم عندما يبكي الرجال لدى رؤيتهم أحصنتهم وهي تقتل، ولكنَّ القدرة على أن يشهد المرء الفاجعة هي الأهم. فاليوم عندما يمكننا بضغط زر أن نقتل أناسا على الجهة المقابلة من الأرض، قد نكون في خطر أكبر من الوقت الذي كنا فيه مرغمين على مشاهدة الرجال و الأحصنة يقتلون جنبا إلى جنب.

هوامش

١ جورج برنارد شو، الأسلحة والإنسان (إدنبرا، ١٩٠١)، المشهد الأول.

٢ مقتبس في إيان فليتشر Ian Fletcher, Galloping at Everything: The British Cavalry in the Peninsular War and at Waterloo ١٨٠٨-١٥ (ستيبلهورست، ١٩٩٩)، صفحة ١٣.

٣ مقتبس في آن هايلند Ann Hyland, The Warhorse ١٢٥٠-١٦٠٠ (ستراود، ١٩٩٨).

٤ مقتبس في غريغ هيذرينغتن Greg Hetherington, Britain and the Great War: A Study in Depth (لندن، ١٩٩٨)، صفحة ٤٦.

٥ مقتبس في ريتشارد هولمز Richard Holmes, Riding the Retreat, Mons to Marne: 1914 Revisited (لندن، ٢٠٠٧)، الصفحتان ١٨٦-١٨٧.

٦ المصدر السابق، صفحة ٢٤٧-٢٤٨.

٧ مقتبس في هيذرينغتن Hetherington, Britain and the Great War، صفحة ٤٦.

٨ هولمز Holmes, Riding the Reteat ، الصفحتان ٢٩٢-٢٩٣.

٩ دوروثي بروك Dorothy Brooke, Letter to the Morning Post، ١٩٣١: www.thebrooke.org/content.asp?id=15567 تم التأكد من الرابط في ٢٣ يونيو/حزيران ٢٠٠٨(الكاتبة)، الرابط تغير أصبح www.thebrooke.org/1556 تم التأكد من الرابط في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٩.

6 – من مورد للرزق إلى فنان

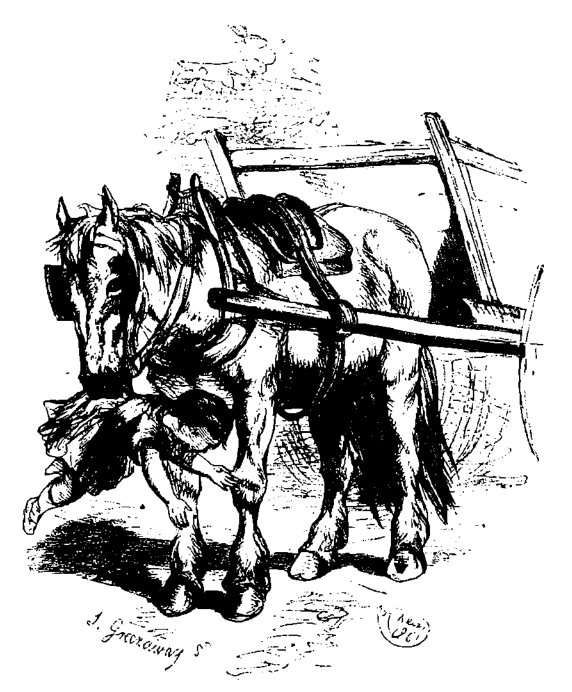
يبدو أنهم دائما يعتقدون أن الحصان شيء أشبه بالمحرك البخاري، ولكن أصغر حجماً.

آنا سيويل، الجمال الأسود

في رواية تيس من دو أوربيرفيل للكاتب توماس هاردي ، والصادرة عام ١٨٩١، كان موت الحصان هو الذي ساهم في السمة المأساوية التي طبعت حياة البطلة سيئة الطالع. قُتل برينس، الذي كان «أقل تداعياً بقليل» من العربة المثقلة التي يجرها، عندما طعن بقضيب عربة البريد المقتربة وهو يتهادى بخطوات مثقلة في طريق باهت الإنارة مع تيس الغافية على اللجام. إن التفاوت بين الرحلة البطيئة لبرينس، الحيوان المرتبك والهزيل، «الفاقد للقدرة على القيام بحركات فائضة من أي نوع»، وعربة البريد «بعجلتيها الصامتتين، المنطلقة بسرعة... كالسهم» يلقي الضوء على العالم المتغير للقرن التاسع عشر. فبرينس هو من أفراد العائلة، يجوع كما يجوعون، ويعكس اسمه أوهام الأب الكسول بالنبل. أما حصان عربة البريد فلم يوصف على الإطلاق إلا من حيث كونه لم يُصَب. وبينما ينزف برينس حتى الموت في قناة، يختفي حصان عربة البريد، كسيارة ، نحو المستقبل. إن حجم المسؤولية التي تشعر بها تيس يُصور اعتماد عائلتها على الحصان، والتعليق القصصي «مورد الرزق قد أخذ منهم: ماذا سيفعلون الآن؟» يلخص أهمية حبل الخلاص هذا للسفر، والعمل، والزراعة(١).

كثيرا ما يتم تناول التوتر بين الريف والمدينة، والذي ازداد عبر القرون الطويلة من الثورة الصناعية، من خلال الدور المتغير للحصان. ويمكننا أن نستشعر وقع هذا التحول الصناعي في أنحاء العالم، لكن الحماسة البريطانية لهذا التغير الجذري تبقى صاحبة الريادة، ومنها انتقل التأثير إلى أوروبا، وآسيا، وأمريكا. كانت القدرة على تحقيق مثل هذا التطور السريع في بريطانيا مرتبطة بتوفر مخزون من الفحم ويد عاملة رخيصة، واستيراد المواد الخام من

حصان العربة كرمز للصبر و الشفقة في كتب الأطفال ذي العبر الأخلاقية، ١٨٧٩.



THE HUMANE CART-HORSE AND THE CHILD.

المستعمرات، والذي نجم عنه ثراء التجار الذين كان باستطاعتهم الاستثمار في رأس المال. أصبح الحصان ببطء وبشكل لا رجعة عنه، أشبه بمفارقة تاريخية، من حيث كونه معلما رئيسا في بيئة العمل، فهو بكل بساطة لم يعد بعد الآن قوياً أو سريعاً بما يكفي للاحتفاظ به.

على الرغم من أن رواية أوراق بيكويك صدرت قبل تيس من دو أوربيرفيل بخمسين عاما، إلا أن تشارلز ديكنز أخذ بعين الاعتبار الخلافات نفسها. إن صورة حقل الذرة الوفير في شهر أغسطس/آب، الخصب والناضج بالمحاصيل حيث «تظهر الثمار اليانعة والناعمة متمايلة فوق الأرض بأكملها»، تقارن ، بهدف إظهار التباين، مع صورة عربة تشق طريقها عبر

الأرض الهادئة بوتيرة متسارعة غير عابئة بثراء محيطها. ثم يتوقّف العاملون في الحقل كي يشهدوا حداثتها، وبشرتهم سمراء ذهبية بفعل أشعة الشمس وأطفالهم يصرخون بابتهاج. من بين صفوفهم «توقف الحصّاد عن عمله، وانتصب مكتوف الذراعين، ينظر نحو العربة وهي تنعطف مبتعدة؛ ورمقت أحصنة عربة التحميل الخشنة حصاني العربة الراقية بنظرة بليدة، وقالت بوضوح كما يمكن لنظرة الحصان أن تعني: «من الجميل النظر إلى ذلك كله، ولكنَّ المشي ببطء، فوق هذا الحقل الكثيف، أفضل من عمل شاق كهذا على طريق غباري»(٢).

كانت أحصنة عربة التحميل الخشنة، مثل برينس، جزءاً من عالم ينحسر ببطء إلى الماضي، لكنَّ الريفي الأصيل بقي يتشارك مع أحصنته حكمة يعجز أولئك الذين ينشطون وفق الطرق الجديدة عن ملاحظتها. هذا التقدير لإيقاع الحياة الريفية البطيء، والاعتزاز الجاد بالقسمة البسيطة ليس مجرد نظرة حالمة لأسلوب عيش شديد القسوة. بالتزامن مع، وربما كرد فعل على، تغيرات الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر كان هنالك شعور قوي بالاعتزاز بمهنة الزراعة، ترافق مع ازدياد شعبية مسابقات الحرث كطريقة للحفاظ على معايير مرتفعة. فتوقعُ التراجع ربما عزز من تقدير طرقٍ كانت تقليدية إلى درجة لم تعُد معها تلفت الانتباه إليها إلا عندما أصبحت مهددة، ولكن بدأ يُنظَر إليها على أنها لا تتناسب مع الحاجة المتزايدة للكفاءة والمردود.

بالنسبة إلى كلٍ من ديكنز وهاردي فإن إيقاع عمل الأحصنة يلقي الضوء على التغيير الحاصل. وفي عام ١٩٤٦ حاولت قصيدة «ليس لدي قطيع» لجون سي. مايلن كسر الخطوات السريعة نحو الأمام والتي كانت سباقة لهم جميعا. فبطله الاسكتلندي الشاب، المولع بالأحصنة أكثر من أي شيء آخر يمكن أن يقدمه هذا العالم العصري، لا يصبو إلا إلى العمل في الحقل مع حصانيه المربوطين إلى محراث:

أحصنة بيضاء كبيرة ذات شعر حريري،



وشعر الرقبة الأبيض كالحليب يتدلى نحو الأسفل
من رقابها المنحنية بسلاسة كوشاح العروس

كان طموحه الهادئ مليئاً بافتخار متوقع، كما أنه كان يتباهى بإطعام أحصنته أجود أنواع الطعام، وبأنه يتأكد من نومها ليلاً «على فراش من التبن نظيف وجديد بسماكة قدمين»(٣).

بقي الحنين إلى أحصنة الجر- حتى مع تغير دورها - وهي تعمل إلى جانب مُلاكها الراضين، في تجميع التبن تحت أشعة الشمس المشرقة. ورغم ذلك حصل التغير، مترافقاً مع مطالبة العديد ممن كانوا يعملون في الحقول، بأجور أفضل ومستوى معيشة أعلى تعد به التكنولوجيا الآخذة بالازدهار.

تأسست في بريطانيا العديد من الجمعيات المروجة لحصان الجر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل جمعية كلايسديل، وجمعية حصان السافولك في العام ١٨٧٧ وجمعية حصان الشاير في العام ١٨٧٨. ومع استمرار عملها في الحقول على مستويات مختلفة حتى الحرب العالمية الثانية، حصلت أيضا على أدوار جديدة في المدنية النامية.

في روايات هاردي كانت الحياة المأساوية للبشر هي التي تلقي بظلالها على الحقول الصيفية، وفي روايات ديكنز كان جشع الإنسان هو الذي حول

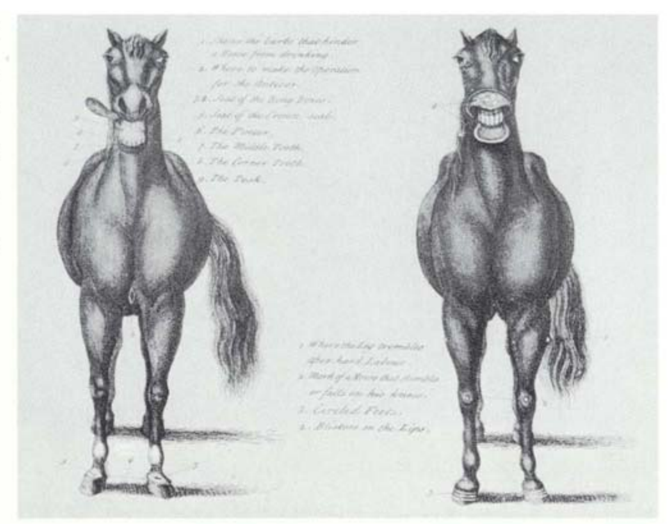
المدن المكتظة إلى تجمع لأحياء الفقراء. إن حياة حصان العمل في المدينة أو الريف تُقرر بشكل كامل من قبل رفاهية ومواقف مالكه، والمتطلبات المتزايدة التي يفرضها الزمن المتغير.

في عام ١٧٩٨ شد روبرت بلومفيلد الانتباه إلى معاناة هذه الأحصنة التي تختفي في الضباب بسرعة كبيرة يعجز الريفيون معها عن ملاحظتها.

لم تكن أحصنة البريد تضبط وفق إيقاع المواسم، وإنما «توظف عند كل نداء عمل، أو رغبة أو غضب»، الذي «يدفعها للسفر من مرحلة إلى أخرى». وعلى عكس رفيق العمل الذي يكون موضع تقدير فإن حصان البريد كان مجرد مركبة، يتم ركوبه حتى آخر رمق فيه، ومن ثم يترك في إسطبل بارد حيث « يختبر كل جزء من الجسم العذاب منفصلا» كان بالكاد يستريح، ليخرج من جديد ويضرب بالسوط على طول الطريق إلى محطته التالية حتى «يضيع قاتلو حياته بالتدريج»(٤).

كان حصان البريد بمثابة سيارة الإيجار الأولى، ومع أن القدرة على ركوب الخيل كانت شائعة خارج الطبقات الدنيا العاملة إلا أن مستواها كان متفاوتاً بشدة، وأولئك الذين كان مستواهم العالي في الفروسية جزءاً من ثقافتهم نادرا ما كانوا يعمدون إلى استئجار الأحصنة. في معجم «لي» الجغرافي، صور جديدة للندن، الصادر عام ١٨١٩يوجد أكثر من ٦٠ موقعا مدرجا كمكان لاستئجار حصان بريد، وبتقارب كبير بين بعضها مما يشير إلى أن المنافسة على الزبون كانت محتدمة. إلا أن عملية التبديل المتكررة للخيال، وبقدرات مشكوك فيها، وحتمية الوصول بسرعة إلى الأماكن المطلوبة، كانت تعني بأنه حتى حياة حصان البريد الذي ينال أفضل عناية ممكنة، فيها القليل مما يمكن النصح به.

على الرغم من ذلك، اعتمد التطور الأولي للثورة الصناعية على قوة الحصان. فعندما نشر جيثرو تل، الرائد في مجال التحسينات الزراعية، كتابه زراعة التعزيق الجديدة باستخدام الحصان في عام ١٧٣١، عزم على جعل الزراعة باستخدام الحصان أكثر كفاءة، بدلا من إقصائها بالكامل. ولكن



رسم توضيحي بيطري يعود لعام ١٧٤٣ الترجمة الإنكليزية لجاسبار دو سونير، المعرفة التامة للأحصنة، طبع لأول مرة بالفرنسية في عام ١٧٣٤.

تطور المكننة صاحبه ضغط لمنافسة الأشكال الصاعدة من التكنولوجيا الجديدة مما عنى أن أوقاتاً صعبة كانت بانتظار أحصنة العمل. ومع أن القرن التاسع عشر كان يوصف بشكل متكرر بأنه «الجحيم بالنسبة للأحصنة»، إلا أن ظهور هذا المصطلح في المطبوعات يعود لعام ١٦٢١. ومع اكتظاظ المدن بالأناس القادمين من الأرياف خلال القرن الممتد ضمن الثورة الصناعية، أصبح الجحيم أيضاً مكاناً مكتظاً.

كانت عربة البريد الراقية التي ذكرها هاردي التمثيل المحلي لمؤسسة ضخمة لتسريع خدمة توصيل البريد في بريطانيا وجعلها قياسية. فعربات البريد الملكي كانت تقاد من قبل سائقين وتجر بحصانين من النزل الموجودة على طول الطريق.

كان الملاك يحتفظون بعدد من الأزواج من الأحصنة للقيام بالأعمال ضمن حدود المدينة، ولكن عندما تغادر العربة المدينة متجهة إلى مناطق أخرى، كانوا يحصلون على أزواج الأحصنة من خلال التعاقد مع النزل ضمن المراحل على طول الطريق. كان ويليام تشابلين من بين أكثر المالكين

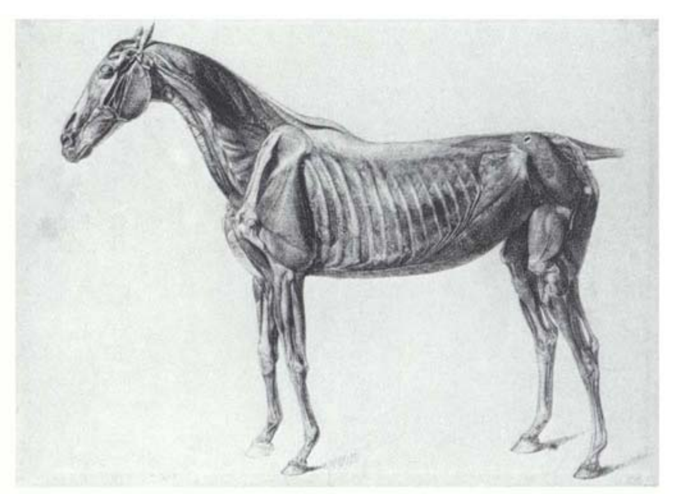


رسم أولي لحصان مستلق برأس مرفوع لنيكولاس سيكارد، ١٨٨١.

شهرة، والذي كان يملك ١٨٠٠ حصان في عام ١٨٣٨، عندما كانت أعماله في أوجها، كما كان يزود أكثر من نصف عربات البريد الملكي في لندن بأزواج الأحصنة. كانت لديه إسطبلات على معظم الطرق المهمة الخارجة من المدينة، وقد بلغت سعة أحدها حوالي ١٥٠ حصاناً. كان باستطاعة السائس الماهر أن يبدل من زوج إلى آخر خلال زمن لا يتعدى الثلاث دقائق، وعلى الرغم من ذلك كان مسموحا بخمسة، والسائسان كانا مستعدين قبل سماع بوق البريد وهو يعلن اقتراب عربة البريد. في أوج خدمة عربات البريد كان يستعمل أكثر من ١٥٠ ألف حصان يومياً. كانت السلالات المفضلة هي كليفلاند باي ونوع قوي آخر متوسط البنية والارتفاع ويتحلى بميزتي القوة والسرعة. كان يفصل بين المراحل مسافة تتراوح عادة بين العشرة والخمسة عشر ميلاً، وكانت تستعمل الأحصنة الرمادية غالبا في المقدمة اليمنى آخذين بعين الاعتبار الرؤية في الضوء الضعيف وأثناء الليل.

كانت الحافلات العمومية التي تجرها الأحصنة تسمح بتنقل أعداد كبيرة من الناس في المدن، وقد كتب دبليو. جيه. غوردن في عام ١٨٩٣:

«كان لديهم، بأعداد تقريبية، ١٠ آلاف حصان يشغلون ألف حافلة عمومية، ويقطعون عشرين مليون ميل في السنة ، ويقلون مائة وعشرة ملايين



كتاب تشريح الحصان لجورج ستابس الصادر عام ١٧٦٦، بقي دراسة أولية مبنية على التفاصيل التشريحية الخاصة بالفنان.

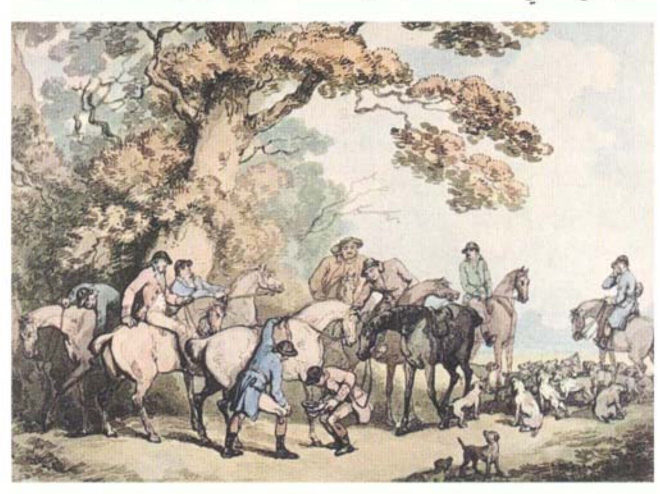
راكب... وكل حافلة عمومية تقطع... ستين ميلا في اليوم، وكل حصان يقطع اثني عشر ميلا في اليوم. وتربح الحافلة في الميل الواحد ما يزيد عن ثماني بنسات ونصف البنس بقليل، ومتوسط التعرفة التي يدفعها كل راكب لا تتجاوز الثلاثة بنسات ونصف ومنه كل حافلة عمومية تقل ستة ركاب كل ميل»(٥).

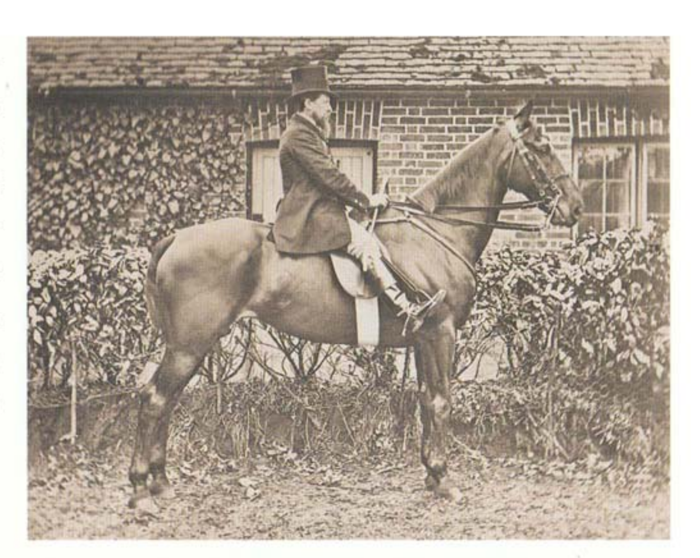
أثارت الأعداد الهائلة من الأحصنة المرتبطة بالحاجة المتزايدة للتنقل قلقا منذ بداية القرن الثامن عشر، وأصبحت العناية بالأحصنة تجرى تحت الفحص الدقيق مع تطور المعارف البيطرية. فحتى ذلك الوقت كانت العناية بصحة الحصان تترك عادة للبيطار أو للمالك، الذي اعتاد أن يجد العديد من طرق العلاج الموصى بها في أدلة الفروسية وتربية الحيوانات، أغلبها ذات قيمة وموضع نقاش، وبعضها الآخر مرعب. ومن بين الوصفات الطبية «المأخوذة من أفضل الكتّاب وأكثرها حداثة» من قبل السير ويليام هوب في العام ١٦٩٦، علاج لحصان بقوائم متصلبة ومتعبة، والذي يبدأ كما يلي: «اغلي ستة جراء صغيرة في رواسب نبيذ الكلاريت حتى ينفصل

لحمها عن عظمها»، بينما الاعتماد على «الزئبق»، و«دهن الحمل»، و«روث حديث لماعز» توحي بالسحر بدلا من الطب(٦). كان سحب الدم وإفراغ الأمعاء بالمسهلات شائعا على الدوام إلى جانب طرق علاج ـ غير مفاجئة ـ للأحصنة التي تعاني من ضعف موهن.

مع بداية القرن الثامن عشر كان كتَّاب من أمثال ويليام غيبسون يهاجمون هذه الطرق العلاجية البدائية، والمعاناة التي تتسبب فيها، الأمر الذي ربما يمثل أهم خطوة نحو الأمام. في ذات الوقت الذي كان علاج حصان يصر على وضع لسانه فوق الشكيمة هو كيه بحديد ساخن، كان من النادر أن تؤخذ معاناته بعين الاعتبار.

كانت الوحشية المتعمدة مرفوضة بسبب الصورة السيئة التي سيظهر بها المالك، وليس للمعاناة التي تسببها للحيوان، لذلك كانت الإجراءات الصارمة المتخذة عن حسن نية مقبولة إلى حد بعيد. ومع كفاح كل هذه الأنواع المختلفة من المركبات التي تجر من قبل الأحصنة لمواكبة متطلبات التطور السريع للإنسان، من عربة الإطفاء، وعربات الأجرة، إلى عربات التوصيل، التي كانت جميعها تجرها أحصنة، وبعضها أربعة أحصنة، حيث





حصان الصيد البديع
هذا يعود للسير فرانسيس
سكاوين بلانت، والذي
أسست عائلته سلالة
كرابيت الشهيرة لاستيلاد
الحصان العربي. كان
يقصد بموضع جلوس
الخيال منح الأمان فوق
الحواجز في ميادين الصيد.



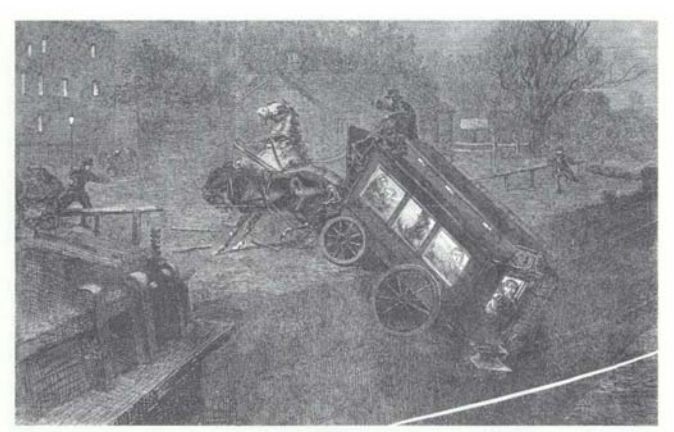
تقاطع الطرق، ١٨٨٣
لهنري دو تولوز-
لاوتريس.

تندفع مسرعة، أو تتهادى، أو تمشي بخطى مرتفعة عبر الشوارع، ألقت أعدادها الهائلة بعبء كبير على الموارد المستنزفة أصلا نظرا للحاجة إلى إسطبلات تؤويها وإلى الإطعام وجمع فضلاتها. وكانت حالات التصادم والحوادث المميتة التي تقع ضحيتها الأحصنة تحدث بشكل متكرر، وكذلك انهيار الأحصنة تحت وطأة حمولة مستحيلة، فقد كانت وبشكل حرفي تعمل حتى الموت في الشوارع وعلى مرأى من العامة. وثارت الشكوك أيضا حول بقاياها حيث اعتُقدَ أنها لم تكن تعطى كطعام للكلاب والقطط فحسب بل وكانت توضع خلسة في طعام البشر على شكل سجق. فقد ظهرت قصص مرعبة عن حظائر القصابين، حيث كانوا يحتفظون بالأحصنة بلا طعام أو شراب بانتظار الذبح وبالقرب من جثث أصدقائها الذبيحة.

ومع اقتراب صراع الطبقات العاملة وحيواناتها وانتقالها من البعد التصويري وبالتزامن مع الطلبات المتزايدة للتكنولوجيا والاقتصاد، أثير الحس بالمسؤولية والوعي تجاه البشر والحيوانات الأقل حظاً.

في العام ١٧٥٣ كتب جون هاكيسورث أنه «حين يتماثل مستوى من الألم في كائنين، فإنه شرٌّ بالمستوى نفسه»(٧)، والضرب الظاهر للأحصنة في الطريق أدى إلى استنكار من قبل فنانين وشعراء، ومن بينهم ويليام هوغارت وجورج ستابس. وقد أصدر توماس غوتش في عام ١٧٨٣ سلسلة من لوحات الحفر المائي تحت عنوان «حياة وممات أحصنة السباق» والتي شدت الانتباه نحو معاناة أحصنة السباق التي تباع بعد انتهاء صلاحيتها





حادث عربة مروع، دابلين، ١٨٦١.

متحولة إلى أحصنة عمل. ظهرت أيضا انتقادات لبعض العادات الدارجة حينها مثل بتر الذيل والتي لا تقطع عظم الذنب فحسب بل تحرم الحصان أيضا من وسائله الطبيعية لحماية نفسه من الذباب، وصلم أذني الحصان وشق فتحتي أنفه. كانت القصص الشعرية شائعة، وكذلك المصورة، والنثرية التي تعقبت انعتاق الحصان من تباهي وابتهاج مالكه ومن ثم انتهائه جثة على عربة قصاب، ومن أشهرها الجمال الأسود لآنا سيويل، الصادرة عام ١٨٧٧.

على الرغم من أنه ينظر إليها اليوم على أنها كتاب للأطفال، بشكل رئيسي بسبب أسلوبها القصصي ونهايتها السعيدة بامتياز والمحببة لروائي العصر الفيكتوري، إلا أن الجمال الأسود كانت مكتوبة للبالغين. وقد حققت نجاحا باهرا بعد نفاذ الأعداد القليلة للطبعة الأولى، التي قاربت حوالي ١٠٠ نسخة. في بريطانيا أجيزت من قبل جمعية مكافحة العنف ضد الحيوانات، والتي شكلت عام ١٨٢٤ واستمرت لتصبح اليوم الجمعية الملكية لمكافحة العنف ضد الحيوانات، أما في أمريكا فقد كانت توزع لسائقي عربات الأحصنة وبعنوان ثانوي «كوخ العم توم عن الحصان».[1] وبينما كان السرد

(١) أي أنها تمثل للحصان ما تمثله رواية كوخ العم توم للأمريكيين والتي كانت ضد العبودية.

الاعتناء بحصان العمل في ملجأ بايد-إيه-وي للحيوانات، نيويورك، حوالي عام ١٩٠٦.

الذاتي للقصة على لسان الجمال الأسود[1] نفسه يعكس المعاناة الرهيبة والإجهاد الذي كانت تتعرض له الأحصنة في مدن العصر الفيكتوري، أظهرت الحياة الشاقة للعائلات العاملة أيضا كما في معظم القصة حيث يعاني مُلاك أو سائسو الجمال الأسود معه.

مع أن آنا سيويل لامست قلوب قرائها ورفعت من سوية الوعي العام، إلا أنها انضمت متأخرة بعض الشيء للنقاش الدائر حول المعاناة. فريتشارد مارتن، النائب في البرلمان عن مدينة غالواي في أيرلندا، قدم أول تشريع ناجح لحماية الحيوانات في عام ١٨٢٢. وقد أطلق عليه الشاعر توماس هود «أنت يا ويلبرفورس[2] أحصنة الركوب!»، منقذ «البيض والسود» مع «الأبقع والرمادي الأرقش» و«الكستنائي والبني»(٨). إن تشبيه معاملة الحيوانات

(١) اسم الحصان الذي كان يمثل الشخصية الرئيسية في القصة.

(٢) نسبة إلى السياسي الإنكليزي ويليام ويلبرفورس (١٧٥٩-١٨٣٣) النائب في البرلمان الذي قاد حملة ناجحة لإلغاء تجارة الرق في بريطانيا.



بونتيبريد جنوب ويلز، خلال إضراب عمال المناجم عامي ١٩١٠-١٩١١.

بمعاملة العبيد يظهر نقلة نوعية في الإدراك الحسي. تعامل تشريع مارتن مع احتياجات حيوانات المزارع وأحصنة العمل أيضاً، ليطلق تحولا بطيئا في الطريقة القانونية التي ينظر بها إلى مسؤولية البشر عن الحيوانات.

لكن الطلب على أحصنة العمل تبدل مع الازدياد التدريجي للنقل الممكنن والآلات. وقد كان هنالك مشهد من المستقبل عام ١٨٣٠عندما أقيم سباق على مشارف بالتيمور بين عربتي سكة حديدية. إحداهما كان يجرّها محرك بخاري يدعى توم ثامب والأخرى يجرّها حصان. كان مصمم المحرك، بيتر كوبر، يعتزم الإثبات لشركة سكة الحديد في بالتيمور وأوهايو أن خططهم لاستخدام أحصنة لجر العربات لم تعد عصرية. وتراجعت العربات التي تجر بالأحصنة للخلف مع تقدم تومب ثامب إلى الصدارة. ولكن، كما حدث في قصة السلحفاة والأرنب، عندما انقطع حزام في تومب ثامب، استمرت الأحصنة بالسير بثبات لتربح السباق. فكانت فكرة أخرى ازدادت قوتها جاعلة من الأحصنة قوة احتياطية في العديد من ميادين العمل خلال القرن التالي.

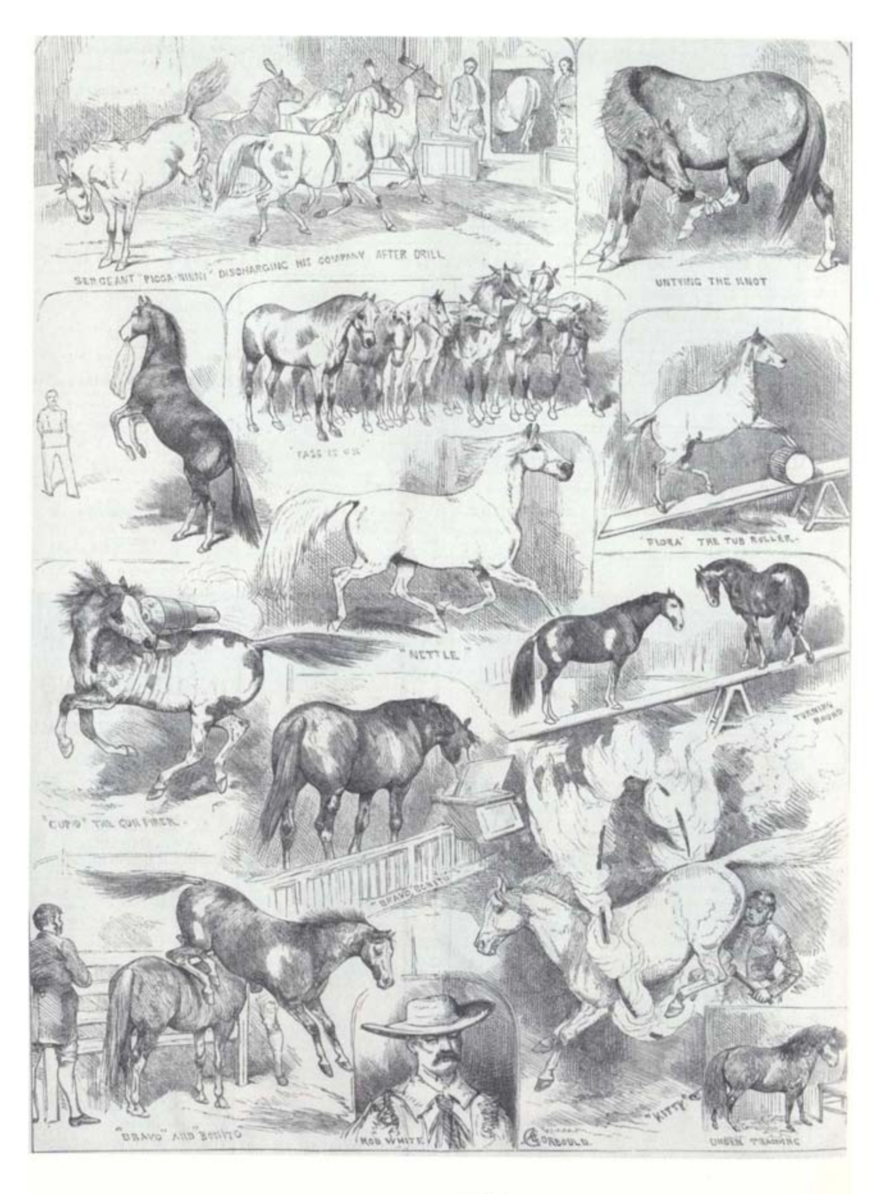
مر زمن طويل قبل أن تسرح الأحصنة كليا من أعمالها، مع ذلك، وحتى



مع حلول المحرك البخاري محل الأحصنة في السكك الحديدية في أمريكا، حلَّ بوني المناجم محل النساء والأطفال في مناجم الفحم البريطانية. فقد حظر قانون المناجم لعام ١٨٤٢ على النساء والأطفال دون سن العاشرة العمل تحت الأرض، ليحل محلهم بوني المناجم، صاحب الباع الطويل في عمل المناجم.

لقد سادَ توتر بين النشطاء، الذين يدعون بأن بوني المناجم كان يعامل بشكل دائم بقسوة وعنف، وبين عمال المناجم أنفسهم، الذين كانوا يلومون أصحاب المناجم الجشعين على الأذى الذي كان يعانيه كل من أحصنة البوني والعمال. والعديد من أحصنة بوني المناجم كانت تلقى عناية وحباً كبيرين، ويعود ذلك جزئيا، لكونها تعمل كعمال المناجم في ظروف صعبة وخطرة، وغالبا كانت تبقى تحت الأرض خلال كامل فترة حياتها العملية. هنالك ادعاءات بمعاملة قاسية من قبل الصبيان فوق العاشرة الذين كانوا لا يزالون يعملون في المناجم، ولكن هنالك قصصاً أخرى عن التفاني والإيثار المستمدة من الطباع الفردية لأحصنة البوني. كان في وسع الصداقة الوثيقة التي قامت بين بوني مناجم الذي تقبَّلَ حياته العملية الغريبة مع كل القدرة على التأقلم التي يتمتع بها بنو جنسه أنْ تُخفِّف من وطأة الخوف من الظلام

رسوم تخطيطية لألفريد سي. كوربولد من عرض في المجمع المائي الملكي، ويستمينستر؛ منشورة في أخبار لندن المصورة، ١٨٨٣.

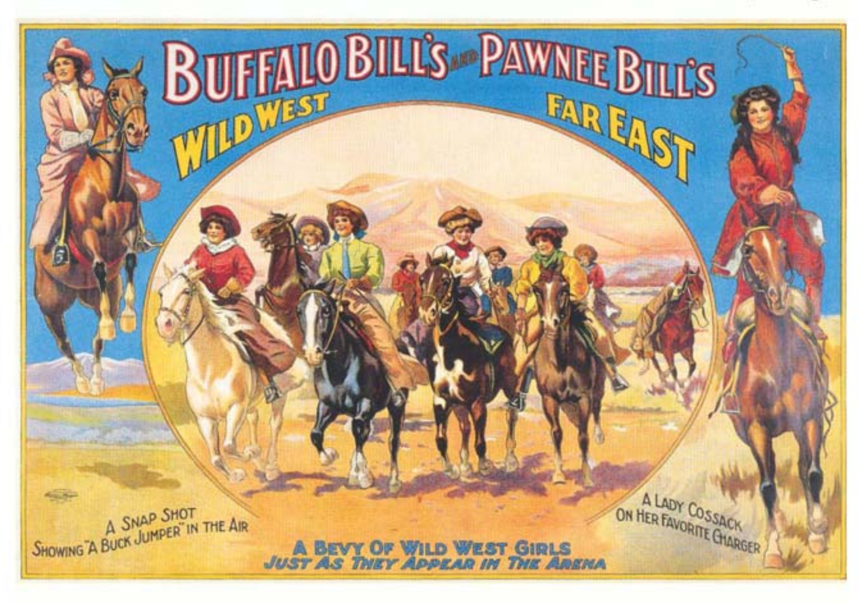

SERGEANT "PICCA-NINNI" DISCHARGING HIS COMPANY AFTER DRILL
UNTYING THE KNOT
"FLORA" THE TUB ROLLER.
"NETTLE"
TURNING ROUND
"BRAVO" AND "BONITO"
ROB WHITE
"KITTY"
UNDER TRAINING
A. C. CORBOULD

الدامس والخطر الذي يصعب إظهاره أمام زملاء العمل.

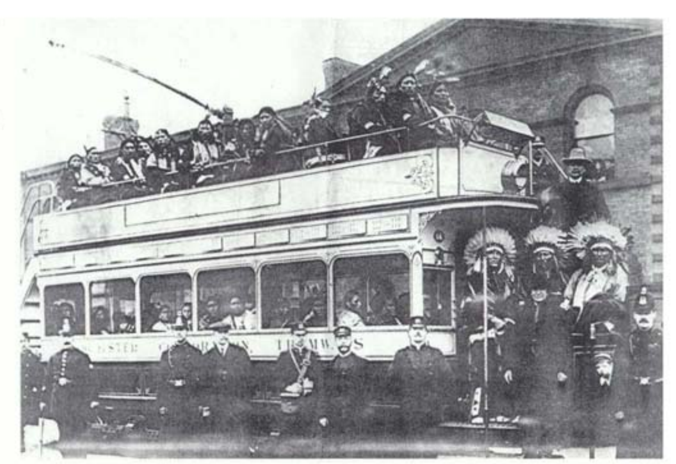
وبحلول عام ١٩١٤ كان هنالك ٧٠ ألف بوني تعمل في المناجم البريطانية، وقد كانت أحصنة الكوب الويلزية، والداليه، والشيتلاند من بين السلالات الشائعة، نظرا لحجمها الصغير وقوتها الكبيرة نسبيا. على الرغم من تناقص أعدادها مع الوقت، إلا أنه عندما تم تأميم مناجم الفحم البريطانية في عام ١٩٤٧، وجد مجلس الفحم الوطني نفسه يملك أكثر من ٢٠ ألفا من أحصنة البوني. ولم يتقاعد آخر بوني مناجم في بريطانيا إلا في تسعينيات القرن العشرين، وتم تصدير السلالة الشائعة بشكل واسع للعمل في المناجم وتحديدا في أمريكا.

على الرغم من ذلك، فإن المجالات التي يتقاطع فيها العمل والمتعة قد أسست أدوارا مختلفة للحصان الذي تتطور مع تبدل حياته العملية. وعلى الرغم من ظهور أنواع مختلفة من التسلية التي تدخل فيها الأحصنة خلال

ملصق إعلاني لعرض الغرب المتوحش لبافالو بيلز: «كل عرض فريد من نوعه و مليء بالتهور الممتع»، حوالي ١٩١٠.



أعضاء عرض بافالو بيلز استبدلوا أحصنتهم بترام مانشيتسر في عام ١٨٨٧.



القرون، لكن السيرك لم يتطور إلى الهيئة التي يعرف بها اليوم إلا في أواخر القرن الثامن عشر. مدرب الأحصنة فيليب أستلي كان برتبة رقيب أول في سلاح الفرسان خلال حرب الأعوام السبعة[1] وكان يسعد بتقديم عروض لمهارات الركوب بالقرب من مدرسته الأكثر رسمية لتعليم ركوب الخيل في ويستمينستر. وقد أدرك سريعا أن تقديم العروض يمنحه مستقبلا أفضل من التدريب، وبحلول عام ١٧٧٠ كان قد أسس سيركا كاملا، باستخدام الحربة الدائرية المعروفة في يومنا هذا، والتي تسمح للخيال بالتوازن باستخدام قوة الطرد المركزي. وبالإضافة إلى الأحصنة كان هنالك جميع الفنانين المعروفين اليوم، من بهلوانيين، ولاعبي خفة، ومهرجين والذين انضموا إلى السيرك بعد قرون من تقديم العروض في الشوارع والقصور.

في عام ١٧٨٢ افتتح أستلي المدرج الإنكليزي في باريس وأشعل المنافسة مع تشارلز هيوز، والذي كان يوما عضوا في شركته. وبالاشتراك مع تشارلز ديبدين، والذي اشتهر بحبه للشجار، أنشأ هيوز وباسم طنان السيرك الملكي

(١) حرب جرت في الفترة بين عامي ١٧٥٦-١٧٦٣ لتقاسم النفوذ على أمريكا وألمانيا وشاركت فيها معظم القوى الأوروبية آنذاك.

وأكاديمية الفيلهرمونية على الخيل كمنافسة لأستلي في لندن. بدأ جون بيل ريكتس، من نجوم ركوب الخيل السابقين، مع هيوز وديبدين عادة السرك المتنقل الصغير الذي جاب أمريكا طولا وعرضا في مقطورات ملونة براقة خلال القرن التاسع عشر. شيد دبليو. سي. كوب في أمريكا سيركا أكثر تطورا بثلاث حلبات حيث يمكن أن تقام العروض في آن واحد، بينما في أوروبا كانت الخيام المبتكرة وأماكن الجلوس المنظمة، تعني أن معايير الراحة والأداء كانت على مستوى عال مماثل لما كان في أبنية المسارح الدائمة. ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهرت خيمة السيرك العملاقة وافتتحَ بي. تي. بارنوم، الذي بدأ بعروض صغيرة عام ١٨٣٥، «أعظم عرض على وجه الأرض».

أستلي كان واحداً من العديد من الفنانين الذين تحولوا إلى خشبة المسرح أو السيرك كوسائل لاستمرار الحياة على صهوة الحصان، التي كانت قد بدأت بشكل مختلف كليا. «بافالو بيل»، أو كودي جمع أعدادا مذهلة من أولئك الخيالة في عرضه الضخم الغرب المتوحش. كان ويليام إف. كودي، المولود في عام ١٨٤٦، راعي بقر وصياد فراء ومنقبا عن الذهب قبل أن ينتقل للعمل لصالح بوني إكسبريس وككشاف للجيش بعد الحرب الأهلية الأمريكية. كان لا يزال في الـ ٢٦ من عمره عندما بدأ مهنته بمجال الفن والاستعراض، وخلال عشر سنوات ظهر عرض الغرب المتوحش لبافالو بيل. كان العرض تثقيفيا وترفيهيا معا وكان ُمجددا في الطريقة التي قدم بها سكان أمريكا الأصليين كأناس شرفاء أجبروا على مغادرة أراضيهم، بدلا من تكريس الصورة الشائعة للعدو المتعطش للدم. كان من بين طاقم المؤدين القناصة المحترفة آني أوكلي، ورعاة بقر جندوا من أماكن عملهم في المزارع، والزعيم الثور الجالس وخيالته من قبيلة الهونكبابا سيوكس. كان الثور الجالس يعيد تمثيل انتصاره في معركة ليتل بيغهورن كجزء من العرض، وكان يرفه عن نفسه من خلال شتم جمهوره من البيض مما يضطر المترجم لتحوير ما يقوله بسرعة إلى كلام مقبول. قتل الثور الجالس في المرة الأخيرة



مازيبا يحمل بعيدا.
صورة لكورير وإيفس،
١٨٤٦.

في عام ١٨٩٠ في محمية للسيوكس في ستاندينغ روك وخلال الفوضى المصاحبة للهجوم عليه ، ذهب الحصان الذي أعطي إليه من قبل بافالو بيل لأداء دوره المعتاد، منتصبا على ساقيه الخلفيتين، يضرب بحافريه الأماميين عاليا في الهواء.

قدم عرض الغرب المتوحش لبافالو بيل بشكل احتفالي أمام الملكة فيكتوريا في لندن عام ١٨٨٧، ٢٠٠ عرض قوي متنقل، تضمنت ٩٧ من قبيلة الأوغلالا سيوكس، ١٨٠ حصاناً و ١٨ جاموس بافالو. كان للعرض شعبية هائلة في مانشستر لدرجة أنه بقي هنالك لخمسة أشهر كما بقيت أسماء شوارع كداكوتا أفينيو و بافالو كورت إلى اليوم لإحياء ذكرى العرض. وبحلول عام ١٨٩١ كان عرض الغرب المتوحش لبافالو بيل و مؤتمر فرسان العالم الفظين يتضمن قوزاق أصليين من روسيا، والباكيروس المكسيكيين، وفرسان عربا، وشدد إعلان العرض على أنه مختلف عن غيره من السُرُك لأن الطاقم ليس فنانين وإنما فرسان أصليون يستخدمون مهاراتهم كل يوم في بلدانهم الأصلية.

إن الأعمال البطولية للفرسان شكلت جوهر السيرك منذ نشأته، متضمنا ركوب خيل غير مسرج، وتنفيذ حركات بهلوانية على ظهر الحصان، وركوب

الحصان في وضع الشقلبة. الأحصنة الحرة التي كانت تؤدي عروضها بدون تقييد حول السور المنخفض لحلبة السيرك كانت المفضلة باستمرار للجمهور.

إن البهجة التي يبعثها الحصان المنطلق بحرية، ومن دون توجيه أو تحكم من الإنسان، هي واحدة من أقوى وأشدّ مظاهر حب الإنسان للأحصنة تناقضا. في عرض مفصل على الحدود بين المسرح والسيرك هو فيلم «مازيبا أو حصان تارتاري البري» المقتبس عن شعر للورد بايرون. في هذا العمل الدرامي، يقع نبيل بولندي، مازيبا، في حب أولينسكا والتي، وفقا لأفضل تقليد من تقاليد الميلودراما، تتزوج من كونت شرير. يتغلب مازيبا على الكونت في نزال، ولكن بدلا من أن يفترق الاثنان من دون أن يتأذيا، أمر الكونت رجاله بمهاجمة مازيبا. فقاموا بتعريته من ملابسه وربطوه إلى حصان غير مروض، والذي بضربة حظ غير متوقعة، قام بالعدو حتى وصل إلى منزل مازيبا. واشتهر دور مازيبا بتأدية الممثلات له، من بينهم إيداه أيزاكس مينكين، والتي ظهرت بشكل فاضح في ستينيات القرن التاسع عشر وهي ترتدي فقط لباسا ضيقا بلون الجلد لتصور تجريد الرجل النبيل من ملابسه. حصان السيرك فائق التدريب «غير المروض» كان في الواقع يحمل مازيبا ويتحرك بشكل بطيء بينما مشهد الجبال والأنهار تتحرك إلى الخلف لتوحي بسرعة خطيرة.

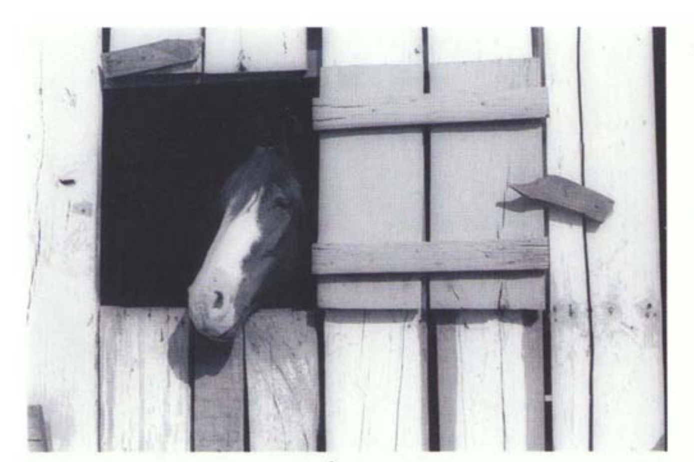
هذا الافتتان بالحصان البري، الذي هو في الواقع حصان مروض بشدة، يكرر حركات الفحل المُعدلة بعناية لأجل نادي الفروسية، والمخاطر الشديدة الفعلية للروديو، وربما حتى لمضمار السباق. إن الخطر المخطط له والمسيطر عليه الناجم عن الالتقاء بالحصان، يُكسِب كلا من الخيّال والمشاهد شيئا خاصا نابعا عن المشاركة. فالبشر يحبون رؤية الحصان يقفز ويعدو ولكن مع التيقن أيضا بأنه من الممكن التحكم به. ولخطر غير المباشر لمشاهدة شخص ما يخاطر بحياته على ظهر كائن نصف مروض يمنح للجمهور مشهدا في غاية الرضا، لأن إتاحة مثل هذه التجربة غير المباشرة للسرعة والخطر تقر



فحل أبيض في تصوير طبيعي لجيمس وارد (١٧٦٩-١٨٥٩) يملك كل من التفصيل الحقيقي والميزة الرومانسية والأسطورية التي تمثل العديد من لوحات وارد عن الأحصنة.

بالمخاطر التي يتعرض لها الخيال. وعندما تصبح هذه المخاطر التي كانت يوما ما أساسية للبقاء، كما في حالة أعضاء طاقم بوفالو بيل، مندمجة بعناية مع حلبة السيرك، لا بد أن يكون الأثر النفسي على الخيال معقدا. فمن الصعوبة بمكان أن يجعل إقرار المخاطر الهونكبابا سيوكس يتقبلون التغيرات الجذرية التي حولتهم وأحصنتهم إلى ممثلين. ولكن بالنسبة للجمهور الذي يحتشد لمشاهدتهم، وحده التقدم بإمكانه أن يخلق وسطا آمنا يسمح باختبار مخاطر المناطق البرية كمشهد بدلا من اختبارها كتهديد. إن تراجع أهمية حصان العمل وتعزيز مكانة التحول الصناعي لم يحدث ببساطة بشكل متواز أو اعتماداً على طرق يمكن تحديدها بسهولة من خلال أفكار عن عالم الأحصنة المتغير. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يبدو من غير المحتمل أن يتزامن نمو الترفيه المرتكز على الحصان مع التغيرات التي ستجعل من المهارات التي تحتفي بها شيئا قديما وتم تجاوزه.

إن القرائن الاجتماعية التي تحيط بالبشر تريح وتقيِّد بصورة متناقضة. وبسبب نوعية التواصل مع حيوان أضخم من أنْ يُعامَل كحيوان مدلل أو يعيش داخل منزل الإنسان، فإنه يتم المحافظة على بعض التواصل مع



البرية الآمنة- حصان في إسطبل من غوتشوس لدانيل دا ميدا.

الطبيعة البرية، سواء تمّ الاعتراف به أو فُهِمَ أم لا.

ألهمت المفاهيم المجردة للطبيعة أتباع الحركة الرومانسية منذ نهاية القرن الثامن عشر. ففي قصيدتي ويليام وردسورث «حصان ضوء القمر» و«الصبي المغفل»، غدا الحصان الوسيلة التي يتم من خلالها ملاحظة المميزات الأساسية للطبيعة، والوثوق بألفته، التي تتأرجح بالرغم من ذلك على الحدود بين العوالم المرئية وغير المرئية.

طمح الأمريكيون من أتباع المذهب المتسامي في القرن التاسع عشر إلى اختبار الكيفية التي تكشف بها ميزات الطبيعة المتحررة من القيود عن حقائق النفس البشرية. وقد تساءل هنري دافيد ثورو إن كان من الممكن للجنس البشري أن يبقى على اتصال مع الطبيعة مع تمتعه بالوقت نفسه بفوائد الحضارة. وقد كان الصيد، والفرس الكميت، والحمام البري من ضمن الخسائر المجازية لحياته. ومع محاولة سائق الأجرة لكسب قوته في شوارع المدينة، وقلقه الوحيد هو أنْ يتمكن حصانه شبه الجائع من إكمال طريقه إلى المحطة التالية، فإن اهتمامه بمثل هذه الأفكار المتعالية سيماثل اهتمامه بهؤلاء الناشطين الجادين الذين يطالبونه بمعاملة حصانه باحترام.

لقد تم لفت الانتباه إلى التناظر بين الحالة الحرجة للحيوانات والعبيد مع

بداية القرن التاسع عشر بينما قدّمت كل من الاشتراكية والحركة النسوية، بحلول نهاية القرن، نماذج تهدف إلى تحرير الحيوانات العاملة أيضا. وأدّى تضارب الأفكار إلى تعديل الفوضى في الشوارع وفي الوقت نفسه إلى نمو الصناعة وتطور المكننة.

إن رؤية حصان هزيل يموت على طريق عام قذر في المدينة أصبح مثيرا للاشمئزاز خلال الحقبة الصناعية، بينما كان إبقاء رأس فحل شجاع تحت الماء لتلقينه درسا أمراً مقبولا إلى حد ما مع بداية عصر النهضة. مع أن كلا من الوضعين سلّط الضوء على علاقة الإنسان بالحصان، إلا أنه بقيتْ خِبرة الحصان في النهاية أقل أهمية من رؤية البشر لأنفسهم.

في عام ١٩٤٦ كتب بيرتراند راسل، «الأثر الأكثر أهمية للإنتاج بواسطة الآلة على الصورة التخيلية للعالم هو الزيادة الهائلة في مفهوم القدرة البشرية»،[٩] بينما رأى ثورو أن «اليأس المقولب ولكن غير الواعي... يتستر حتى تحت ما يعرف بالألعاب واللهو عند الجنس البشري»(١٠).

ومع تراجع احتمال أن يكون لمورد الرزق حوافر، وجدَ الحصان الفنان، الذي يعيد تمثيل أجواء الغرب المتوحش أو يعدو بشكل بالكاد يكون مروضا، ولكنه نتاج سنين طويلة من التدريب، مكانا للتلاقي بين العالم الطبيعي وذلك الذي يسيطر عليه البشر. لقد أمتعت لعبة رأس الحصان المثبَّت على عصا الأطفالَ لقرون عديدة، ولكن الحصان الخشبي الهزاز، والنابض الحي بعرف من الشعر الحقيقي، انتزع الصدارة في القرن التاسع عشر.

لعلّ سخرية القدر الكبرى هي لعبة الحصان الآلية، التي تمّ تسجيل براءة اختراعها في العاصمة واشنطن عام ١٨٦٧، والتي تقدم بكل تأكيد أفضل الخيارات الممكنة.

هوامش

١ توماس هاردي Thomas Hardy, Tess of the D'Urbervilles (هارموندسورث، ١٩٧٨)، الصفحات ٧٠-٧٣.

٢ تشارلز ديكنز Charles Dickens, The Pickwick Papers (لندن، ١٩٨٦)، صفحة ٢٨٩.

٣ مقتبس في راسيل ليون Russell Lyon, The Quest for the Original Horse Whisperers (إدنبرا، ٢٠٠٣)، صفحة ١٠.

٤ في توم ريغان Tom Regan و أندرو لينزي Andrew Linzey، طبعة، Song of Creation: An Anthology f Poems in Praise of Animals (باسينغستوك، ١٩٨٨)، صفحة ٥٩.

٥ دبليو. جيه. غوردون W.J.Gordon ,The Hose World of London

٦ جاكي دو سوليسل Jacques de Solleysel, Le Parfait Mareschal or complete Farrier، ترجمة وليام هوب William Hope، و يتضمن The Compleat Horseman: A Compendious Treatise of Art of Riding, collected from the best Modern Writers on the Subject (إدنبرا، ١٦٩٦)، صفحة ٩٢؛ وليام كافينديش William Cavendish, A new Method, and Extraordinary Invention, to Dress Horses (لندن، ١٦٦٧)، الصفحتان ١٣٢-١٣٣.

٧ مقتبس في مالكولم وارنر Malcolm Warner و روبين بليك Robin Blake, Stubbs and the Horse (نيوهيفن و لندن، ٢٠٠٥)، صفحة ٩.

٨ في ريغان Regan ولينزي Linzey، طبعة، Song of creation، صفحة ٨٣.

٩ بيرتراند راسيل Bertrand Russell, A History of Western philosophy (لندن، ١٩٨٣)، صفحة ٦٩٩.

١٠ هينري دافيد ثارو Henry David Thoreau, Walden: or, Life in the Woods (نيويورك، ٢٠٠٢)، صفحة ٨.

7 – الحصان الفائض عن الحاجة

... انتشر الخبر عن وجود ياهو رائع، قادر على الكلام بلغة الهويهنهنم، وبدا من كلامه وأفعاله أنَّ هناك بصيصاً من المنطق.

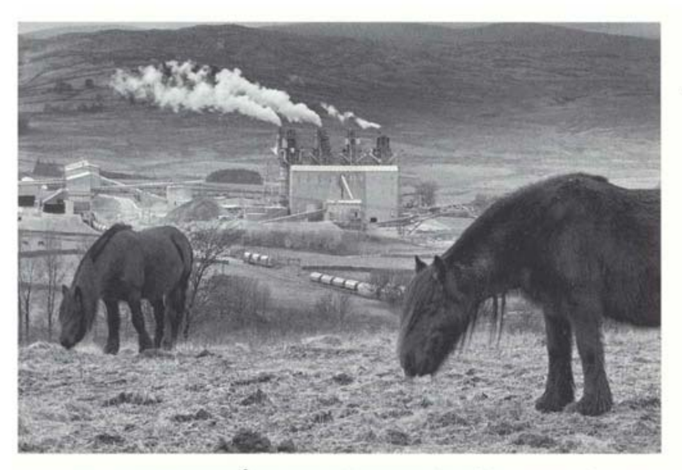
جوناثان سويفت، رحلات جوليفر

في عام ١٩٧٢ بثت قناة جنوبية برنامجا وثائقياً بعنوان: من يحتاج الأحصنة؟ اختفى البرنامج الآن لكنه كان نتاج زمنٍ بدت فيه التكنولوجيا الجديدة صاحبة الإجابة على الأسئلة كلها. بدا الحصان، على الأقل بالنسبة لصانعي البرنامج، مجرد بقايا زمن ماض.

قال ديزموند موريس: «إنْ كان الكلب أفضل صديق للإنسان، فالحصان هو أفضل عبد للإنسان»(١). يتراءى للبعض في العالم المعاصر بأن العبد قد عمَّر وتجاوز صلاحية فائدته ليصبح مصدرا للإزعاج.

بحلول العام ١٩٧٢ توقف والداي عن إنفاق المال على حاجيات الحمام لذا أصبح بإمكاني الحصول على حصان. في الواقع، منذ ذلك الحين حصلنا أنا وأختي على ثلاثة منها، اثنان منها ماتا مؤخرا، حيث عاشا حتى الثلاثينيات من عمرهما.

أمضيت وقتي بركوب الدراجة أنا وأصدقائي ذهابا وإيابا لرؤية مهورنا، نمتطي مقود دراجاتنا ونتلف التروس المسننة ونتسبب بسقطات أكثر من تلك التي حدثت لنا بسبب ركوب الخيل. كانت فكرة أن لا أحد بحاجة إلى الأحصنة تافهة بالنسبة لنا. ولكنَّ بريطانيا خلال سبعينيات القرن العشرين كانت قاسية على الأحصنة بطرق مختلفة. كان من الصعب العثور على مراع للإيجار، فالأضرار التي تحدثها الحوافر ذات الحدوات للأرض جعلت الأحصنة غير مرغوب فيها. عاشت الأحصنة في قطع أراض غير مألوفة، مضمار غولف مأجور، ملعب كرة قدم، وأراض مخصصة للبناء. وكان اندفاع ملاك الأحصنة لشراء أراض صغيرة لا يزال في بدايته وخلال شتاء قارس قبل نهاية العقد تم وهب الأحصنة وحتى قتل بعضها بسبب استحالة الحصول على تبن. تركت الأحصنة بيئة العمل وانضمت إلى

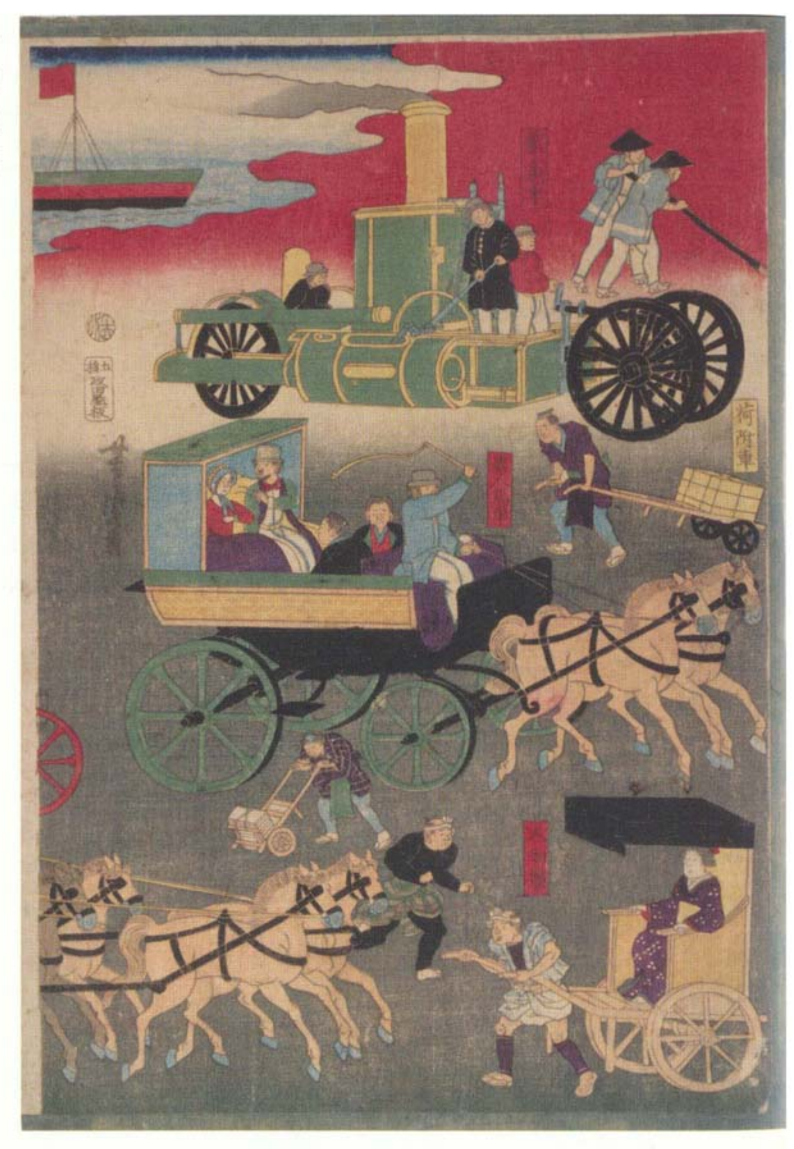


العالم المعاصر و الحصان: بوني الجبل والفناء الخلفي لمعمل في هارديندااليه في كامبريا، لستيف مايفرويدت.

صناعة الاستجمام، لكن ليس من الواضح تماما أين تم إدراجها.

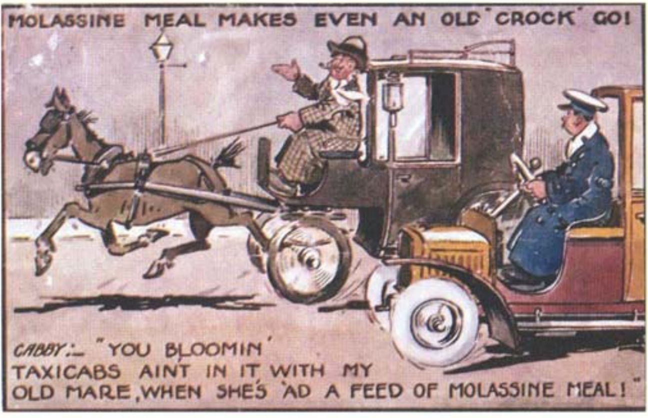
ولكن سبعينيات القرن العشرين كانت أيضا سنوات أول أزمة نفط. فحتى مع وصول آخر الأحصنة من الحقول لتستبدل بالجرارات، كانت هنالك طلبات تلتمس الاحتفاظ بحصان العمل «كاحتياط في مواجهة انخفاض كارثي محتمل لمصادر الطاقة»(٢). كلمات كالنبوءة حقا. وحلت المركبات ذات المحركات تدريجيا محل أحصنة العمل منذ منعطف القرن التاسع عشر. فخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر في أمريكا كان يتطلب الاستصلاح الزراعي للأراضي البور أزواجا من الأحصنة يصل عددها إلى ٤٢ حصانا و ٦ رجال للتحكم بحصادات هائلة. وبحلول عام ١٩٤٠ تم استبدال ٢٠ مليون حصان بالجرارات. كان المزارعون الذين خدموا لدى الجيش البريطاني في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، قد عادوا وكلهم حماس إلى حصان البيرشيرون لدرجة أن السلالة استقدمت للعمل في المزارع الإنكليزية، ولكن في الوقت نفسه تقريبا بدأ استخدام أحصنة الجر بالتراجع مع ازدياد المكننة. وعلى الرغم من ذلك، جلبت الحرب العالمية الثانية معها عجزا في الوقود، وإصدار لجنة الزراعة الحربية لتعليمات نصت على عدم استخدام أي جرار لأحمال يمكن أن يجرها حصان. يبدو أن

تبدل أساليب
السفر في طوكيو،
ليوشيتورا
أوتاغاوا ١٨٥٠-
١٨٧٠





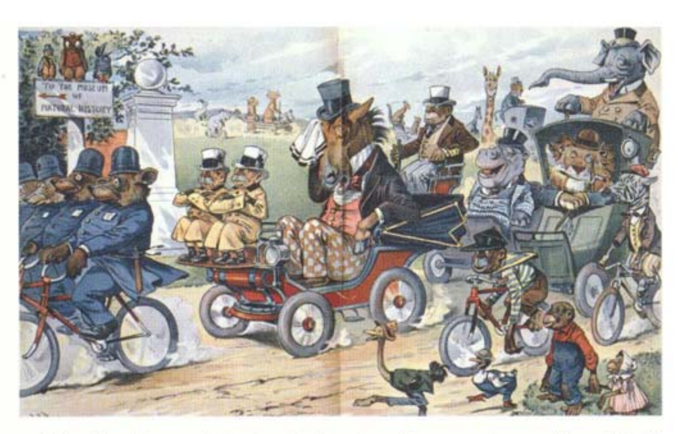
حصان ليونايتد دايريز يستمتع بمخلاة بين المحطات، ١٩٣٨.



الوقود المناسب يساعد هذا «الفرس القديم» على مجاراة المنافسة الحديثة في ١٩٠٩.

المزارعين في مناطق كمستنقعات لينكولنشاير كانوا على حق في رفضهم التخلي عن أحصنتهم لكن المستقبل انكشف على حقيقته.

بقيت الزراعة ولا تزال غير مُمكنَنَة في أجزاء عديدة من العالم حيث تمنع التكاليف الانتقال إلى التكنولوجيا الجديدة، أو لكون الأحصنة متأصلة بقوة في الثقافة المحلية بحيث يتعذر التخلي عنها، ولكن ضغوط النمو الاقتصادي كانت تعني أنَّ في استطاعة أي كان له القدرة على إدارة النفقات أن يستوفي



حصان باك يحمل في سيارة إلى متحف التاريخ الطبيعي من قبل حيوانات أخرى في سيارات و على دراجات. مجلة مصورة ل جي. اس. بوغي، ١٨٩٩.

المتطلبات الجديدة لتسويق المنتجات الزراعية دوليا، وهو المصطلح الذي استعمل لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين. ومع تحول إنتاج الغذاء ليصبح صناعة عالمية ضخمة، بات العمل بالأحصنة -بكل بساطة- غير عملي بعد الآن. تطور التكنولوجيا كان يعني أيضا أن المزارعين في المناطق الوعرة، كما في مناطق الأراضي الجافة في جنوب أستراليا، أصبح بمقدورهم لأول مرة إقامة حياة قادرة على الاستمرار. فباستطاعة الآلات أن تنجز ما لم تستطع أن تنجزه الأحصنة قط، ويمكن تركها بلا رعاية وإعادة تزويدها بالوقود عندما يكون ذلك مناسبا. لكنها لا تقدم الرفقة، ولا أي إحساس بالجهد المشترك أو المهارة الحرفية، والعديد من المزارعين الذين خبروا الاثنين اشتاقوا إلى الحصان، حتى مع احتفاء الآخرين بالجرار.

على الرغم من ذلك، ومع أن أحصنة العمل بدت وكأنها فائضة عن الحاجة، إلا أن دورا جديدا كليا ظهر مع ارتقاء الأفلام والتلفاز. بين الحربين، كانت أفلام الغرب الأمريكي التي تُعرَض مساء يوم السبت في السينما أو في دور العرض المحلية الوضيعة، هي العرض الأساسي في الأسبوع بالنسبة للأطفال على جانبي الأطلسي. إن الرمز الثقافي الذي كانت تقدمه هذه النوعية من أفلام الغرب الأمريكي تجاوز الشعوب ليصبح معروفا في أرجاء

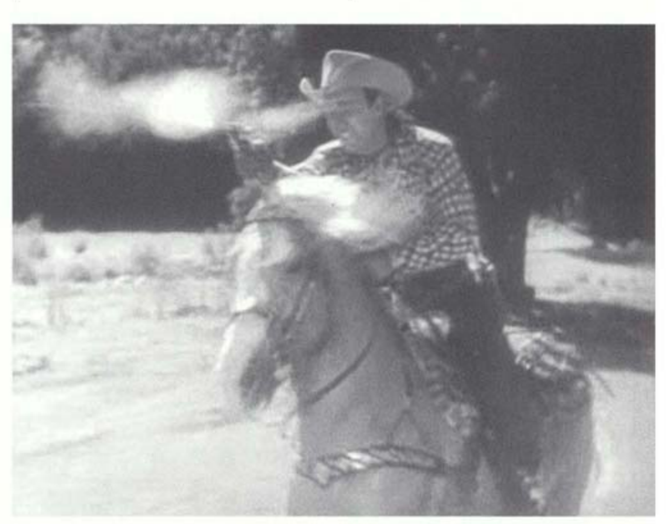


حصادة ودراسة تجر من قبل عد كبير من أزواج الأحصنة في أوريغون، حوالي ١٩٠٣.

العالم. أما ربط الأبيض بالخير والأسود بالشر فهو تقليد قوي، لدواع عملية محضة تتعلق بالفيلم الأبيض والأسود، فتخصيص البطل بحصانٍ أبيض ليطابق قلبه النقي، والشرير بحصان أسود ليعكس أعماقه الشريرة؛ يسهل تميزهم على الخلفية أحادية اللون. ومع ظهور رعاة البقر على أحصنتهم وهي تعدو عبر الشاشة الفضية منذ الأيام الأولى للفيلم الصامت، غدت المغامرة والشجاعة أكثر قربا الآن من أي وقت مضى. أدخل عامل الخطر الحقيقي ليصبح جزءا من هذه العروض، وقد تم استعمال حبل يدعى «رانينغ-دبليو» لسحب الأحصنة من أقدامها لتنفيذ سقطات الاصطدام، مما قاد إلى جدال طويل حول استعمال الأحصنة في الأفلام. كانت الاتهامات بسوء المعاملة والمخاوف حول خير ورفاه الأحصنة شائعة، وذلك في تضارب حاد مع الرسالة الموجهة لسذاجة المشاهد العادي، طفلاً أو بالغاً، بأن الرجلَ الشريف على صهوة حصان معتبر بوسعه إنقاذ الموقف دائما.

بدأت الأحصنة كجزء من الطاقم المساند، واضعة القصة والشخصيات في سياقها المناسب، لكن هذا تغير مع استقطابها للمعجبين، مكتسبة لبعض الخصائص التي نراها في الأحصنة الحكيمة أو التي يمكن الاعتماد عليها في الخرافات. توم ميكس كان في عشرينيات القرن العشرين أول نجم من ممثلي

رعاة الأبقار يقوم بالإعلان عن حصانه توني، وتبعه في ذلك جين أوتري، وحصانه، تشامبيون، والذي كان الحصان البديل لتوني قبل أن يستقل في مسيرته الفينة. وفي نماذج عدة عندما يبنى فيلم أو مسلسل تلفزيوني حول الشراكة بين الحصان والإنسان، يصبح الحصان بشهرة رفيقه البشري أو حتى أوسع شهرة. أخذ توني دور البطولة في فلمين له وحده، فقط توني (١٩٢٢)، و آه يا توني (١٩٢٤)، بينما امتدت الحياة المهنية لتشامبيون على مدى ٢٠ عاما ظهر خلالها في أفلام سينمائية، ومسلسلات تلفزيونية، ومجلات القصص المصورة. ومع ذلك، الأبطال لا يكبرون، لذا غالبا ما يقوم أكثر من حصان بلعب دور واحد بحيث يتجاوز الدور الشاشة وينتقل إلى الحياة الواقعية. فهنالك حصانان قاما بلعب دور توني وثلاثة لعبت دور تشامبيون، ولكل منها عدد من البدلاء، أما رايدر، حصان دورانغو كيد، فقد أدى دوره ٣٣ حصانا مختلفا. ومع ذلك، فإن حصان كين ماينارد، طرزان، كان واحدا فقط وغالبا ما نال نقدا أفضل من شريكه البشري في النجومية. فقد كان يرقص، ويقفز المنحدرات وينقذ خيَّاله من خطر محدق باستمرار منذ عام



تريغير الصديق المطلق ذو القوائم الأربعة، مع روي روجيرس.

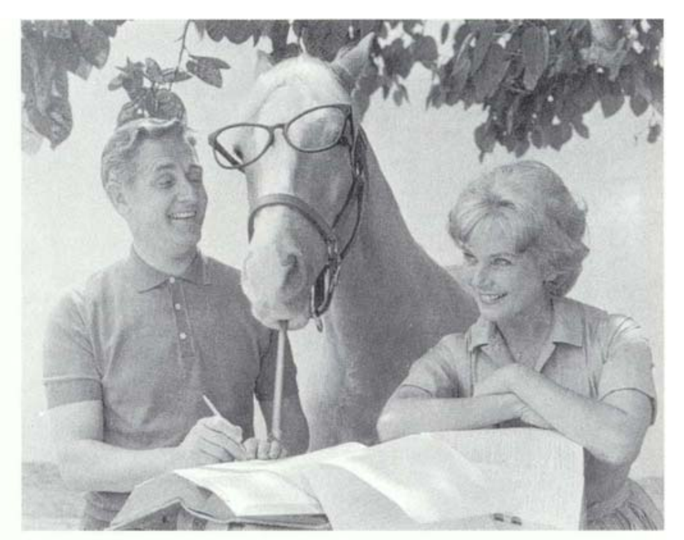
١٩٢٣ وحتى مماته عام ١٩٤٠، مع بعض المعاناة في سنواته الأخيرة ليحافظ على لياقته المعتادة وذلك نظرا لكبرهما في السن هو وماينارد.

تريغر ذو لون البالومينو(١) كان واحدا من أشهر أحصنة الأفلام، فقد ظهر مع روي روجرز ، «راعي البقر المغني»، والذي بنيت مسيرته الفنية حول علاقته «بصديقه ذي القوائم الأربعة». أظهر تريغير جميع صفات الرفيق المثالي للبشر مقترنة بالقبول غير المتطلب والقدرة الجسدية للحيوان. كونه «شريفا ومخلصا حتى النهاية» يعني بلا شك أنه لن يخذل روجرز قط. لقد أدى أيضا بعض الخدع، كتغطية خيّاله بدثار، والرقص، والعد ، كما برع في مشاهد المطاردة، وكانت السرعة والخطى الواثقة من بين مواهبه الطبيعية. وكتريغر كان تشامبيون، «الحصان الأعجوبة»، نجم مسلسله ذي ٢٦ حلقة بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٦ يتصرف كالإنسان في كل شيء، ويجلب المساعدة، ويحارب الجريمة، ويكون في مقام الوصي على البطل الشاب، ريكي نورث. لكنه يجمح أيضا، وكل من عرفه وذيله يرفرفان في الرياح الصافرة، وحتى عندما يترك ريكي ليمتطيه، فإنه يحافظ على روح الحصان خاصته مستوعبا أثناء ذلك خصالا بشرية مفيدة.

على الرغم من ذلك، فإن مستر إيد كان أكثر الأحصنة تضاربا من الناحية النفسية، والذي لمع نجمه في مسلسله التلفزيوني الخاص وذلك في الفترة بين عامي ١٩٦١-١٩٦٦. مستر إيد، الحصان الناطق، كان يرغب في القيام بأي شيء يستطيع الإنسان القيام به. فكان يلعب الشطرنج، وانضم إلى فيلق السلام، واحتاج إلى نظارات، واستعمل الهاتف، وطمح لأن يكون فناناً. وعلى الرغم من محاولات صديقه البشري ويلبر لإقناعه بأن يكون مجرد حصان، ينتهي المسلسل ومستر إيد يخطط لدراسة الطب. بالتعمق في هذه الكوميديا، نجد بأن فكرة الحصان الذي يريد أن يكون إنسانا والإنسان الذي يريده أن يبقى حصاناً، تقدم شرحا معقداً للعلاقة القديمة بين الحصان والإنسان. مع أن الحصان القادر على القيام بمحادثة، والذهاب

---

(١) ذهبي قرمزي



السيد إد مع ويلبر وزوجته الصبورة كارول، تمثيل ألان يونغ و كوني هاينس.

لطلب المساعدة، والعمل كمرسال سيبدو انه يقدم كل ما يمكن أن يطمح إليه الإنسان، ولكننا لن نكون مسرورين بما فيه الكفاية، ما لم يتضمن ذلك أيضا عودته إلى الميدان ومن دون أية مطالب إضافية لعودته. كان تشامبيون يعود دائما إلى البرية حالما تمر الأزمة ولكن مستر إيد تماثل مع محيطه لدرجة أن المرأب-الإسطبل لم يعد بكل بساطة كافيا له.

مع تغير الوقت، ظهر دور الفتيات المغامرات من خلال المسلسل الألماني فيرين في ليبيتسا والذي يعود للعام ١٩٦٥، وقد تم إصدار موسيقا تصويرية له باللغة الإنكليزية في عام ١٩٦٨ بعنوان الأحصنة البيضاء. العلاقة بين جوليا، ذات الخمسةَ عشرَ ربيعا، وبوريس، حصان من سلالة ليبيتسانير، شكلت خلفية لمسلسل من اثنتي عشرة قصة مدة كل منها ساعة من الزمن، والتي أعيد بثها مرارا خلال سبعينيات القرن العشرين. النجاح الهائل لهذا المسلسل في بريطانيا ساهم في غرسه ضمن الهوية الثقافية لذلك الجيل. أغنية الشارة المشهورة، «على الأحصنة البيضاء»، التي أدتها جاكي لي، قد أعيد تأديتها من قبل عدد من المغنين وفي عام ٢٠٠٣ اختيرت في تصويت

كأعظم أغنية شارة في تاريخ التلفزيون. أحدث إعادة إحياء لها كانت في إعلان تلفزيوني لبيع أحذية أطفال من العام ٢٠٠٦، يظهر فتاة صغيرة تلعب على حصان خيالي. ولما كانت هذه الفتاة الصغيرة أو أي طفل يشاهد أصغر بثلاثين سنة على الأقل كي يتذكر هذه الأغنية، إلا أنه بالنسبة للأبوين أو الجدين اللذين يشتريان لها الحذاء، فإن هذه الأغنية تزيل أثر تلك السنين بكفاءة.

في سبعينيات القرن العشرين طُرحت مواضيع أكثر جرأة، كما في مسلسل فوليفوت، المبني على كتب لمونيكا ديكنز، والذي وازى بين الاحتفاظ بالأحصنة واستقلالية المراهق ومشاكل سن المراهقة. أغنية شارة أخرى مشهورة، «شجرة البرق»، وتأسيس ملجأ للأحصنة يعززان من مواضيع استرداد العافية والتجدد. أحداث القصة تغطي القسوة، والمظهر الخارجي، وضغط الأنداد، أما الشخصية الرئيسية، دورا، فهي دور نموذجي للأنثى العصرية في معطف وحذاء واقيين من المطر، رافضة لامتيازاتها رغم أن تنشئتها لم تعرف عاطفة قريبة. تظهر الأحصنة المنبوذة في مزرعة فوليفوت وغير الملائمة كشخصيات، ألوانها الحقيقية على الرغم من إساءة فهمها. مع ذلك هي لا تتصرف بطريقة بشرية، مثل الأحصنة-النجوم السابقة، بل تقدم إضافة مكملة للتجربة البشرية.

إنَّ الحصان يحتفظ في مخيلة الكاتب، وصانع الأفلام، وجمهورهم بكاملٍ قدرته على التكيف الذي مكنه من البقاء في العالم الواقعي المتغير.

إنَّ أولئك الذين يتمتعون ببعد نظر فيما يتعلق بالعالم المتغير يرون أنه لا يزال هنالك دور مهم للحصان كي يلعبه في تشكيل أجيال المستقبل التي تفهم معنى المسؤولية ولديها مهارات التوازن، وتناسق الحركات، والتركيز، بالإضافة إلى تقدير صحي للنشاط الخارجي. لذلك أسس في إنكلترا في العام ١٩٢٨ نادي البوني لحث الأطفال على تعلم ركوب الخيل. نما بعد ذلك ليصبح أكبر جمعية للخيالة في العالم، وليشمل ٢٠ دولة وبعدد أعضاء يفوق ١١٠ آلاف عضو. وتوجد اليوم نواد لركوب الخيل وجمعيات لأي



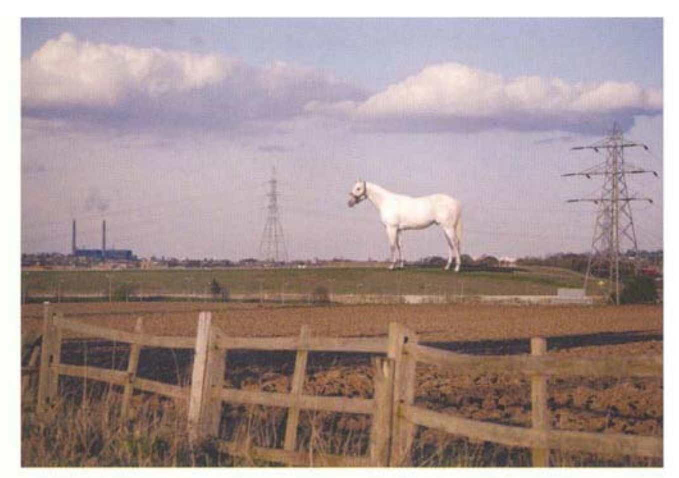
الأحصنة الغنية
بالألوان للفنان
التعبيري الألماني
فرانتس مارك
(١٨٨٠-١٩١٦).

نشاط يتعلق بالفروسية يمكن تخيله كما أن الرياضات التي تدخل فيها الأحصنة متنوعة بشكل واسع، فمن سباق الخيل مرورا بسباقات التحمل وقيادة العربات، وانتهاءً بالجيمخانا ومسابقات الفروسية. القائمة لا نهائية وفي اتساع مع كون أغلب الرياضات ذات انتشار عالمي. مع تغير طبيعة عمل الإنسان وما رافق ذلك من زيادة في أوقات الفراغ ودخل متاح، أصبحَ ركوب الخيل، كنشاط استجمامي محض، متاحا لمجموعة أكبر من الناس من أي وقت مضى، وفي عام ٢٠٠٤ قدر بأن أكثر من مليون حصان في بريطانيا وحدها ذات ملكية خاصة بدلا من تجارية.

رياضة الفروسية لها قابلية كبيرة على التنقل لذا فنمط ركوب الخيل الإنكليزي الرسمي شائع في أمريكا بينما ركوب الخيل على طريقة الغرب الأمريكي الأكثر استرخاء، وبوضعية ساقين أطول وبسرج يألفه غير الخيالة من مشاهدة أفلام الغرب الأمريكي، فلها أتباع كثر في ألمانيا كما أنها آخذة بالانتشار في فرنسا والمملكة المتحدة. ورياضة لو تريك الفرنسية، التي تتضمن مهارات التسابق الموجه، وركوب الخيل على الدروب الطبيعية، وتمارين الدريساج الأساسية، تركت موطنها الأصلي أيضا، لتتطور دوليا.

إن فرصة الاستمتاع بالأحصنة متوفرة على أبسط وأعقد مستوى وبحصان لا يتجاوز سعره بضع مئات من الجنيهات إلى ذلك الذي يكلف مئات الألوف من الجنيهات. أصبح ركوب الخيل أيضا رياضة ذات شعبية جماهيرية كبيرة سواء بالمتابعة المباشرة أو من خلال التلفاز، حيث تظهر مسابقات الفروسية في برامج رياضية وتخصص لها قنوات ومعلقون رياضيون. يمكننا اليوم الاستمتاع بمهارات وجمال الحصان من دون أن نغادر مقاعدنا أمام التلفاز، لكن إذا كان هذا تطوراً إيجابياً فالأمر يبقى موضع نقاش.

لطالما قدم الحصان في الفنون الجميلة وسائل لاستعراض الثروة والمنزلة. تماثيل ولوحات الملوك والشخصيات الأخرى البارزة وهي على الأحصنة،



انطباع الفنان لعرض مارك والينجرس لمعلم لأعلى تلة بالقرب من إيبسفليت في كينت.

احتفظت بقوتها في عيون العامة لفترة طويلة بعد رحيلها. ابتداءً من الحجم الهائل، الذي يفوق الحجم الطبيعي، للحصان الذي يحمل ماركوس أوريليوس، مروراً بالبنية العضلية القوية لأحصنة بيتر بول روبينز، وانتهاءً برقي أحصنة الثوروبريد لجورج ستابس. أظهرت الأحصنة خياليها ومالكيها أكثر من أي شيء آخر كان يمكن أن يقوموا به لإظهار أنفسهم. مع تغير الإدراك الحسي في القرن العشرين، أراد الفنان الألماني فرانتس مارك، والذي قُتل في فيردان عام ١٩١٦، أن يفهم العالم من منظور الحصان، ملاحظا النقص والفقر في الأعراف التي أعطت الأولوية لطريقة الإنسان في رؤية العالم. ظهرت الأحصنة بشكل دائم في أعماله، وتضمّنتْ أعماله كلها الأحصنة الزرقاء الكبيرة، الأحصنة الزرقاء الصغيرة، الأحصنة الحمراء (١٩١١)، الأحصنة الصفراء الصغيرة (١٩١٢) ألونا أساسية وأشكالا دائرية وجودة مميزة استطاعت أنْ تأسر طبيعة الحصان.

استوحى النحات الإيطالي مارينو ماريني هيئة منحوتاته المعاصرة التي تصور الحصان والخيّال من التراث القديم للفن الإتروسكاني، بينما عرض يانيس كونيليس في عام ١٩٦٩ اثني عشر حصانا حيا في مرآب ضخم تحت

الأرض في روما في معرض نظم من قبل غاليريا لاتيكو مبيِّناً الطبيعة المهيمنة للصورة المرئية التقليدية، من خلال مسعاه لتفسير وعرض الموضوع بطرق متأثرة بالمنظور الاجتماعي.

إنَّ ابتعاد الحصان عن العالم في زمن ما بعد الثورة الصناعية لم يجعله أقل أسرا لألباب الفنان، وظهور الثقافة الشعبية كان يعني أنَّه حتى من ليس لديه أدنى اهتمام بالأحصنة يبقى محاطاً بها. ويمس تواصُل البشر مع الحرية والبرية الآمنة في الصميم، لذا أي إعلان أو فيلم أو قصة تتضمن حصاناً يقدر لها النجاح مسبقا. فالأحصنة السوداء شائعة في مجال الإعلان، فهي لم تعد مرتبطة بالشر بل أضحتْ تظهر على سبيل المثال في إعلان بنك لويد في المملكة المتحدة وتمثّل حصان فيراري الأسود المنتصب على ساقيه الخلفيتين، والأناقة المصقولة، والكفاءة، والقوة المادية والميكانيكية. الأمهار الكثيفة الشعر والجذابة، والمصورة في أفلام الرسوم المتحركة لنورمان ثيلويل، تقدم روابط بقصص الطفولة الرومانسية، في حين أنَّ نجاح المدرب والخبير بسلوك الأحصنة الأمريكي مونتي روبرتس وطرقه المبتكرة للتواصل مع الحيوانات باستخدام لغة الجسد وعرضها على التلفاز في أوقات الذروة، بدلا من جعلها تقتصر فقط على المولعين بالأحصنة؛ كل ذلك يوحي برغبتنا في المحافظة على تواصلنا مع الحصان وإبقائه حياً.

يبقى دور الأحصنة مركزيا في السينما والتلفزيون، منذ محاولات فترة ما بعد الحرب لإعادة إرساء جوِ حقبة السبعينيات الحميمي والطبيعي ومواضيعها الحيوية، وكان تركُ آثار حوافرها في الفضاء خلال حقبة الثمانينيات بمثابة الخطوة المنطقية التالية.

كان ثيرتي/ثيرتي «الإكوسترويد» حامل الأسلحة الغاضب نوعا ما، رفيقا أساسيا للمارشال بريفستار على كوكب مستقبلي يدعى نيوتيكساس، في فيلم رسوم متحركة للأطفال يعود إلى العام ١٩٨٦وهو على نمط أفلام الغرب الأمريكي لكن تجري أحداثه في الفضاء. أما جان-لوك بيكارد، فقد كشف مع آخر الحدود المتبقية المعروفة ليقطعها، بأنه دائما ما كان يحمل

سرجا على متن انتربرايز، متأهباً لحصان عابر للمجرات يعرف عن نفسه. أما بوني حصاني الصغير وهي لعبة مشهورة منذ عام ١٩٨١، فقد استمرت بتطوير وتوسيع نطاقها إلى مجال ألعاب الحاسوب، والمجلات الإلكترونية، كي تأخذ الأحصنة إلى فضاء يقتصر على الفتيات. ومثل تشامبيون، الحصان المعجزة وتريغير، قدم كل من فيلم «بوني حصاني الصغير» و «ثيرتي/ثيرتي» فكرة الأحصنة بعد أن منحا خصائص بشرية. وبينما كانت هذه الخصائص بالنسبة إلى «بوني حصاني الصغير» عبارة عن أزهار، وأشرطة شعر، وأهداب متموجة، كانت بالنسبة إلى «ثيرتي/ثيرتي» تتمثل في قدرته على الكلام، وإطلاق النار، والتحول عن الحيوان ذي الأربعة قوائم متخذاً هيئة آدمية. وبقيت الأحصنة موضع اختبار حتى في عصر استكشاف الفضاء وصفحات الويب، لكن التماهي مع البشر ألغى الخصائص المادية للحيوان الكبير برائحته المميزة المنتشرة من كسائه، وعَرَقه الغزير كجزء من نظام تبريد جسمه وإنتاجه لكميات هائلة من الروث. وعلى العكس، عندما تقابل أخيرا كل من جان-لوك بيكارد وجايمس تي. كيرك في ستارتريك: الأجيال (١٩٩٤)، كانت صهوة الحصان هي المكان الذي أجرى فيه القائدان نقاشهما والذي دفع كريك للقيام بالتضحية القصوى. لكنها لم تكن حياته التي قدمها في عدة مناسبات سابقة، وإنما هو حُلمه بتقاعد هادئ في مزرعة للأحصنة. فبعودته بالماضي إلى جذوره على الأرض غدا الاشتياق مطلقا حتى بالنسبة إلى مستكشف فضاء.

يبدو أنَّ السائد بين صناع الأفلام هو توقّعهم ألاّ يُميِّز المشاهدون حصانا عن آخر، لذا ليس مستغربا تغيير معدات ركوب أو لون أو حتى سلالة الحصان بين لقطة وأخرى. وتميل الأحصنة أيضا إلى أن تكون ثرثارة في الأفلام، وتُطلق لنفسها العنان من صهيل وحمحمة وقبع وأكثر من أي وقت مقارنةً بحياتها الواقعية. لكن الجدير بالاهتمام، أنه عندما تصور الأحصنة في أفلام عن الحرب، فإنها تميل إلى الصمت، مع أن سجلات تلك الفترة تشير بشكل واسع إلى أن الأحصنة كانت خلال الحرب تصرخ من الألم





صورتا الحصان باهير قبل وبعد، والذي تم إنقاذه ومعالجته من قبل الرابطة الدولية لحماية الأحصنة، والتي بدأت نشاطها منذ العام ١٩٢٨.



بيطار من الرابطة الدولية لحماية الأحصنة يعمل ضمن مشروع دولي للرفق بالحيوان.

والخوف. ولكن على الشاشة، كما هي الحال في الفن غالبا، نادرا ما يطلب من الأحصنة أن تظهر طبيعة الأحصنة. فدورها يكمن في إظهار طبيعة البطل، مما قد يفسر لماذا لا تظهر في الأفلام قط قابلية الحصان الرئيسة لتطبل البطن ونفث الغاز. هذا الأمر الثانوي، هذا الشعور بأن على الأحصنة والبشر أن يرتبطوا جسدياً، وروحياً، وفطرياً إذا ما أصبحنا متحدين ، يظهر باستمرار. لعلّ هذه الدمى والأفلام هي التي تقلل من مادية الحصان كاشفةً القدر الأكبر من رغبتنا البشرية في التواصل بطريقة يمكننا فهمها رغم بعدنا عنها.

إن حضور الحصان في الأفلام والتلفاز والإعلان يستعيد دوره التقليدي والاحتفالي المستمر. فقد استعملت الأحصنة لتمجيد الملك أو النخبة عبر التاريخ، والمشتقة بأبسط مستوياتها من تعالي الخيال على الراجل. الحصان بثمنه وتكلفة الاحتفاظ به العاليتين يمثل منصة طبيعية لعرض المهارة

والقدرة والثروة. ولا يزال من الشائع النظر إلى ركوب الخيل على أنه نشاط للنخبة، على الرغم من انتماء المالكين الجدد إلى خلفيات متعددة. على الرغم من ذلك، ارتقت الأحصنة بمستوى الاحتفال بالأعراس الملكية، والعروض العسكرية، والأحداث التقليدية حول العالم. والرابط بين الملكية البريطانية والحصان له تاريخ عريق. إن حب الملكة إليزابيث الثانية للأحصنة لا يخفى على أحد، أما الأمير فيليب والأميرة آن وابنتها، زارا فيليبس، فقد ساهموا في الحفاظ على دور بارز للملكية البريطانية في منافسات الفروسية منذ ستينيات القرن العشرين. أما في سباقات التحمل فإن أعضاء العائلات الملكية في البحرين وماليزيا هم من بين من ميزوا أنفسهم في أنحاء العالم وتصرفوا كمضيفين للأحداث العالمية الرئيسة. ومن المفارقات الغريبة، أن الوسائل التي تأسست بها النخبوية في يوم ما، عبر القدرة على امتلاك وامتطاء أحصنة صافية، أصبحت المركبة ذات الطابع البشري التي ربطت الملك بالشعب.

إن دوره التقليدي البارز بالإضافة إلى دوره الجديد في الأفلام ووسائل الإعلام جعل من الحصان حيوانا محبوبا للغاية وذا شعبية. كذلك يمكن أن يجعل منه هدفا متعمدا للعنف ومركزا للخلافات. في الفترة بين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٣ وقعت سلسلة من الهجمات على الأحصنة وبشكل رئيس في جنوب إنكلترا، وظهر للعديد منها طابع جنسي نتج عنه موت مهر غير مولود وحصان بالغ. ولما كانت محنة مالكي الأحصنة التي تعرضت للاعتداء ومخاوف عموم مجتمع مالكي الأحصنة مفهومة، فإن الاستياء العارم بين أواسط وسائل الإعلام، وقوات الشرطة وعامة الناس يدل على أن إحساسا بالمسؤولية العامة قد تمت إهانته. ومع ذلك فإن مراكز الرفق بالحيوان تعج بالأحصنة، ومن المسلم به على نطاق واسع بأن معارض الأحصنة هي أماكن تتم معاملة الأحصنة فيها بقسوة، كما أن لعدد كبير من رياضات الفروسية مظاهر جانبية مسببة للخلاف. إن مستقبل الأحصنة البرية في أستراليا وأمريكا يقع في قلب جدال ضَارٍ. فالأحصنة تستخدم في التجارب





يسار مسابقة حرث في شمال ويلز، ٢٠٠٦.
يمين حصان الأردينايس اللطيف هذا شريك يمكن الاعتماد عليه في أعمال نقل الحطب وبأقل تأثير ممكن على البيئة المحيطة.

المخبرية وفي صناعة الأدوية وتعاني من التصدير الحي إلى أسواق اللحم. وقد أصبحت هذه المسائل أكثر وضوحا مع إمكانية الوصول إلى المواد عن طريق شبكة الإنترنت، حيث المواد الإباحية التي تتضمن الأحصنة ليس مجهولة حتماً.

التوتر بين الحصان كضحية وكمُلكية يشكل أساسا لمعظم تلك المسائل. لا يهم كم نقدر فكرة أن الحصان بري وحر، لأنها تبقى اليوم مجرد فكرة. فالحصان حيوان مستأنس، مما جعلنا مسؤولين عنه من كافة النواحي. فعلاقتنا معه معقدة للغاية، نتيجة النظرة التقليدية القائلة بتمركز النوع البشري والتي تزدهر على الرغم من رفض العديد من الروايات المهيبة في الماضي. غيفورد بينتشوت، من رواد المحافظة على الموارد الأوائل، قال: «إنَّ المحافظة على الموارد يعني الاستخدام الحكيم للأرض ومواردها من أجل خير الإنسان الدائم»(٣). هذا مثال على القيام بفعل صائب نتيجة سبب خاطئ متعلق برؤية قائلة بأن تفوق الإنسان هو المشكل للعالم.

على الرغم من ذلك ليست هذه بالرؤية الوحيدة المتوفرة أو حتى التي لها قبول واسع كما قد تبدو للوهلة الأولى. الفكرة القائلة إنَّ الحيوانات «مختلفة عن البشر» بدلا من أنها «ليست بشرا» لها تاريخ طويل عند العديد من السكان الأصليين. وفي التقاليد الروحانية لكل شيء روح وقيمة مساوية في الكون. في المقابل تأثرت التقاليد الغربية بتعليمات الكتاب المقدس التي تمنح الإنسان، وبشكل خاص الرجل، سيادة على الأرض. والتفسير

الصحيح لهذه المسؤولية خضع لنقاش لا نهائي بلا طائل، ولا زال النقاش دائرا. وعلى الرغم من ذلك في القرن السابع عشر ادعى الفيلسوف رينيه ديكارت بأن الحيوانات محكومة بالغريزة وليس بالتفكير المنطقي مما يجعلها أحسن من الآلات بقليل. وفقط الكائنات العاقلة، وبالتالي الإنسان، من الممكن أن يكون لها روح خالدة، هذا يعني بأن البشر «في حل من أي اشتباه بجريمة في أي وقت يقتلون أو يأكلون الحيوانات»(٤). ولما كانت هذه الرؤية مجرد جزء من نقاش طويل حول طبيعة الحيوانات والغاية منها ولم يتم الاعتراض عليها قط، فإنها على الرغم من ذلك تتّسم ببعد نظر. ومعظم المعاملة السيئة للحيوانات تعود جذورها إلى المنطق الديكارتي، الذي لا يزال يتوارى وراء حجة أن ألم الحيوان أقل من ألم الإنسان، بغض النظر عن أية وجهة نظر حديثة خاصة حول ذلك. إذا كانت الحيوانات أدنى بشكل أساسي من البشر، فإن عبئا كبيرا سيزاح عن ضمير البشر. ولكنَّ اندفاع الإنسان للاستيطان امتد إلى رغبة للتشكيل والتطويق والترويض، لذا حتى القلق من المعاناة يمكن أن يطغى عليه شعور بأن الملكية الخاصة أو العامة قد تم التعدي عليها. ومع خضوع أخلاقيات هذا النهج المبني على تمركز



أحصنة برزيفالسكي الصديقة للبيئة في كلوكاينوغ فوريست، شمال ويلز، يساعد في تنظيف موقع مستوطنة قديمة.



السفر المضني في النيبال بواسطة أحصنة البوني.

النوع البشري لفحص دقيق أكثر من أي وقت مضى، فإن علاقتنا بالحصان، بسبب مركزيتها الشّديدة، بقيت في قلب أحد أهم التحديات المباشرة لتقاليدنا الثقافية.

بينما بلغت معاملة الأحصنة نقطة الذروة عندما كانت تموت في شوارع لندن في أواخر القرن التاسع عشر، فإن احتفاءها الكلي تقريبا من أماكن العمل بعد ٥٠ عاما كان بمثابة إخلال مماثل بالتوازن. هنالك من يؤمن بأنّ من غير الأخلاقي ركوب الخيل على الإطلاق، ناهيك عن استخدامها في العمل، ولكنّ إعادتها إلى البرية من الصعب أن يكون هو الخيار، فوقوف حصان سمين وقد أصابه الضجر في حقل من المستبعد أن يكون مرضيا أكثر من شخص لديه عمل معين. واليوم ، تقطف الجمعيات والأفراد الذين يعملون لضمان بقاء سلالات العمل والتي أصبحت في خطر، ثمار تعبهم. ولما كانت الأحصنة غير قادرة على منافسة المكننة الكثيفة، إلا أن باستطاعتها العمل بأساليب أكثر اتقانا والتي يمكن أن تكون مكملة. أصبح الحصاد وقطع الأشجار ونقلها بأساليب صديقة للبيئة ممكناً باستخدام الأحصنة، والتي

المحافظة على تقليد قديم في بريتاني في ٢٠٠٧: قافلة الرحالة...



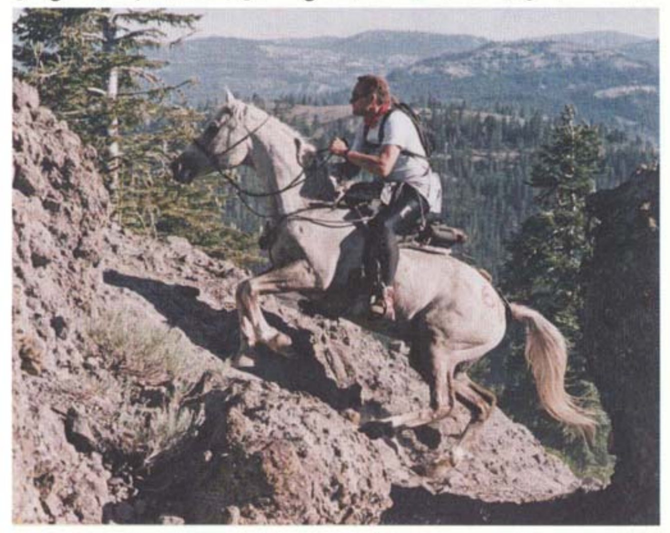
بإمكانها أن تعمل بين الأشجار وتسبب أضرارا أقل لأرض الغابة. كذلك بإمكانها تجنب الخطر الكامن في القدرة الهائلة للآلات المعقدة على إحداث أضرار سريعة غير قابلة للإصلاح. وإعادة إدخال حصان برزيفالسكي إلى موطنه الأصلي ليست إلا بداية لإدراك قيمة الحصان الذي يقوم بالرعي في مجال إعداد الأراضي. ومنذ تسعينيات القرن العشرين تم إدخال حصان

... وحصانهم.



برزيفالسكي إلى بريطانيا، وألمانيا، والنمسا، والمجر، وفرنسا، أوكرانيا، والصين، ومنغوليا، وأوزبكستان، وكازاخستان، وإلى المحميات أو شبه المحميات، بمستويات مختلفة من المراقبة والدعم. ولعبت السلالات المستأنسة أدوارا متشابهة، فعلى سبيل المثال في ويلز في جزيرة إنغلسي، حيث البوني من نوع شيتلاند يرعى في الأراضي البور وعلى سفوح جبل كادير إدريس، ينعم بوني الجبل الويلزي بشجيرات الصفاف. وفي كلا الحالتين تم إدخال أحصنة البوني بشكل مقصود إلى برامج بيئية لكي تطغى عادات رعيها الطبيعية النباتات النشيطة التي تغمر بعض الأنواع النادرة كبروق وأوركيد السبخات.

تستطيع الأحصنة أيضا أن تقل الناس إلى أماكن بعيدة، تاركة آثاراً قليلة على رحلتها. وقد فتحتْ مشاريع السياحة البيئية المجالَ أمام عالم واسع من إمكانيات ركوب الخيل ، فمن الممكن اليوم ركوب الخيل عبرً مناظر طبيعية متنوعة كسهوب منغوليا وموزامبيق، ووسط الإثارة البركانية لأيسلندا ضمن رحلات مصممة بشكل خاص بحيث يكون لها أقل أثر



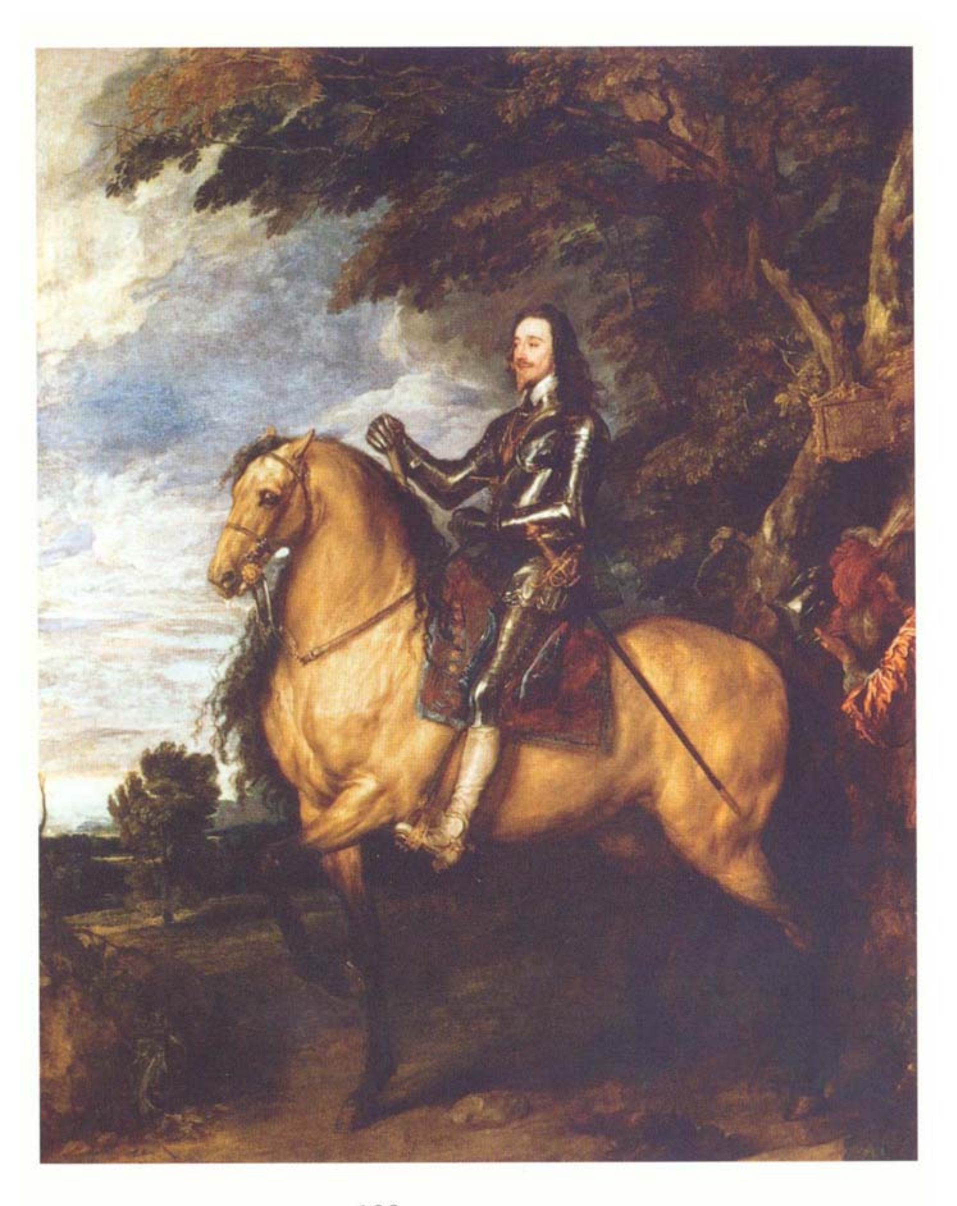
جي آر و وين ديلبيك يحاولان التغلب على كوغار روك سيئ السمعة خلال سباق كأس تيفيس للتحمل. لاحظ رأس الحصان الخالي من أية وقاية والتركيز المشترك، كمثال رائع على الشراكة بين الخيال والحصان.

في عام ١٥٦٠، كان يمكن للسير توماس بلونديفيل أنْ يقول إنَّ الحصان في سلسلة الصور هذه يتدحرج لأنه ولد تحت برج الأسد.



ممكن على البيئة. بكل بساطة التواجد مع الأحصنة يعتبر على نطاق واسع تجربة ثمينة، وبناء على ذلك فقد ظهرت في بلدان عديدة مشاريع تُدرِج الأحصنة ضمن مخططات علاج الأطفال والبالغين الذين يعانون من صدمات أو أمراض. أصبح للحصان في هذا العالم الجديد المهتم بحقوق الآخرين ومشاعرهم دورٌ أكثر ملاءمة لطبيعته الخاصة من أي دور آخر كان يمكن أن يمثله امتطاؤه في الحرب.

عبر القرون، استخدم كل من شهد ركوب خيل رائع وكل من درب الآخرين بشكل متواصل تعبير وحدة العقل والجسد بين الخيال والحصان ليعبر عن الحالة المثالية. هذا الحنين إلى القنطور ينعكس اليوم من خلال الرغبة في العمل من منظور الحصان، وربما دراسة عقلية الحصان هي نتيجة طبيعية للاهتمام المعاصر بعلم النفس. ومنتدى سلوك الخيل في جامعة غلاسكو هو مثال على التقاء الأكاديميين والمهتمين من الملاك لتطوير الجانب النظري عبر الواقع العملي. فمن خلال تشارك المشاهدات والخبرات يتم على الدوام تطوير مناهج جديدة للتعامل مع الحصان، مع التركيز على أهمية



بيئة القطيع على الصحة العقلية وتنمية الاهتمام بأهمية ترك الأحصنة بلا حدوات ما أمكن. ويسعى التدريب الذي يعتمد على عدم المقاومة إلى التعامل مع الحصان من موقع العالم بسيكولوجيته الطبيعية وهي حركة أخذت في النمو والانتشار. إن مفهوم الهمس للحصان موجود في هذه الطريقة ومع أنه تصورٌ رومانسيٌ رائع أن نعتقد أنه بوسعنا تهدئة الحصان المضطرب بالهمس إليه، إلا أن الطريقة في الواقع ليست بهذا اللبس أو الغموض. على الأرجح إن القوة في صورة الهمس إلى الحصان تكمن في أنها هادئة ومراعية للمشاعر، بشكل يتعارض مع فكرة أن شكيمة بغيضة وعصا غليظة يمكنهما حل مشكلة حصان يظهر أنه صعب المراس قليلا. ولكن صورة الأحصنة الناطقة والبشر الذين يفهمونها ظهرت في الخرافات والقصص الخيالية بشكل متكرر لتبدو هذه الرغبة بالتواصل ذات أهمية استثنائية. عندما «تستسلم ديناميكية هرمية أو من جانب واحد، للتبادلية بيننا وبين الأنواع الأخرى»،[٥] يمكن أن تظهر فرص جديدة لكلا الطرفين.

خيال هادئ، حصان هادئ: السلطة الرزينة للملك تنعكس على فحله ذي اللون البني الرمادي في لوحة تشارلز الأول على صهوة الحصان لأنثوني فان ديك، حوالي ١٦٣٧-١٦٣٨.

عندما ننظر إلى الحصان، فإن ما نراه يعتمد كليا على فهمنا الخاص للعالم، والمتغير باستمرار. وفي النهاية، يعكس الحصان ذلك الفهم، من خلال الطريقة التي نتعامل فيها معه والطريقة التي يرد فيها على ذلك. الكائن الشجاع المندفع المستعد ليقفز خارج إطار اللوحة في صور النبلاء الفنية العائدة إلى عصر النهضة، تعكس فهماً للذات كشيءٍ خطر وبرّي، يجب أن يبقى تحت السيطرة ملجوماً، ومروضاً، ومسرَّجاً: جميعها مصطلحات مشتقة من التعامل مع الأحصنة. ولكنها تصور أيضا الطريقة التي يرد فيها الحصان على هذا المنهج في التعامل. فمن الشائع أن نسمع أن للخيّال «مقعدا كهربائياً»، ويعني ذلك أن أي حصان يمتطيه سيثور ويصبح مضطربا. فهنالك خطب ما في أسلوب التعامل اللاإرادي المادي والعقلي لهذا الخيال وينتقل على الفور إلى الأحاسيس الثاقبة للحصان. إنّ أيَّ خيَّال مؤهل يعلم أن امتلاك ذهن صاف، وغالبا الشجاعة أيضا، للنظر في الجانب الآخر من شيء يخيف الحصان الذي يمتطيه سيمنحه فرصة كبيرة لأن يقرر حصانه

رغم ذلك أن الأمرَ ليس مخيفا إلى هذه الدرجة. إن خيالا مطمئنا وهادئا يمكنه أن يساعد حصانا هائجا على السكون أكثر من أي تمرين ممكن.

وقد تلقَّت الأحصنة التي تظهر في عدد من اللوحات الفنية المشهورة التي تصور تشارلز الأول عددا من الانتقادات لتميزها بشكل واضح بضبط النفس. فهي تظهر «ليس كالحصان تماما» وقد يكون فعلا قد «تم إدخالها إلى قاعة الاستقبال من دون أن تسبب أي إزعاج»(٦)، وذلك لأنها تعكس رزانة الملك وسلوكه التأملي، وهذه حقيقة غالبا ما يعتبرها نقاد الفن صفة مجازية بالكامل من صفات العمل. إن المجازية المبطنة تؤثر بلا شك على قراءتنا للوحات، ولكن دقتها كمرصد لطبيعة الحصان لم تقدر حق تقدير. إنها في الواقع كالحصان تماما وهي تكشف عن تشارلز الأول أكثر من ما يمكن أن تكشفه أية استعارة مجازية. وفي السينما، تدرَّب الأحصنة لتقوم بأداء دورها بطريقة تعكس طبيعة البطل، ولكن رد فعلها الطبيعي على الممثل الذي يلعب الدور قد تكون مختلفة تماما، مما يفسر سبب شهرة ثنائيات حصان-خيال المبنية على العلاقات من الحياة الواقعية. ما نراه هو ما نحصل عليه في الغالبية العظمى وقد بقي هذا صحيحا اليوم كما كان من قبل. والطريقة التي نكتسب فيها انعكاساً لأنفسنا من خلال الحصان الذي يسعدنا ويكشفنا ويعرينا ويظهرنا على حقيقتنا.

اليوم نقول إنَّ ذلك من أجل إبقاء كسائه صحيا. هذا الأبالوسا هو الحصان اليافع ذو الترقيط الصارخ في مونتاج صور مهر العائلة من الصفحة ١١، تظهر كيف أن نماذج الكساء المميزة للسلالة قد تتغير عبر السنين.

لقد أثر الحصان بشكل جوهري في تاريخ الإنسان بحيث أن محاولة تحديد الجوانب الأساسية لدوره أصبحت بمثابة تمرين على الحذف بدلا من الإضافة. من دون الحصان ما كان البشر ليكونوا مختلفين، ومقابل كل مثال اخترته لتوضيح هذه الحقيقة يوجد أمثلة أخرى عديدة. هنالك خرافات، وسلالات، وثقافات، وحروب، وأدوار قديمة وحديثة تكفي لملء أعداد كبيرة من الكتب. ولكن لا يهم كم من دليل سيؤخذ بعين الاعتبار أو كم من

مادة ستغربل، النتيجة ستبقى هي ذاتها: مهما كان نقاشنا اللانهائي حول طبيعته، إلا أن الحصان مهم لنا.

وبينما نقوم بنقاشنا هذا، فإن الحصان «يحك مؤخرته البريئة بالشجرة»،[٧] وهذا ربما يكون طلبه الأخير. خلال كل الاستكشافات، ومغامرات ونزاعات الحياة البشرية، بقي الحصان حصاناً، يتكيف على نحو باهر، معلما إيانا أن نكون قادة جيدين، ويحذرنا من مغبة اعتبار كل شيء أمرا مفروغا منه. يمكننا أن نضفي عليه طابعا رومانسيا بكل سهولة نظرا لارتباطه بالحرية والضراوة أو ننزل به كل خيبتنا لأن ذلك يروق لبعض الجوانب المظلمة من ذواتنا والتي من المستبعد أن نقرّ بها. ولكن يبدو أننا بطريقة أو بأخرى لا نرغب، أو حتى لا نستطيع، أن نستغني عنه وعندما نتعامل معه بناء على هذه المعرفة، فإننا نبدأ تماما بإدراك القدرة الكامنة في تاريخنا الطويل المشترك.

هوامش

١ ديـــموند موريس Desmond Morris, Illustrated Horsewatching (لندن، ١٩٩٧)، صفحة ٧.

٢ جورج إيوارت إيفانس George Ewart Evans, Horse Power and Magic (لندن، ١٩٧٩)، صفحة ٣.

٣ كلايد إيه. ميلنر الثاني وآخرون Clyde A. Milner II, مُعبط, The West: An Illustrated History (نيويورك و أكسفورد، ١٩٩٤)، صفحة ٣٢٧.

٤ رينيه ديكارت René Descartes, Meditation and Other Metaphysical Writings ترجمة ديـــموند إم. كلارك Desmond M. Clarke (لندن، ٢٠٠٣)، صفحة ١٧٥.

٥ أديل فون روست مككورميك Adele von Rüst McCormick و مارلينا ديبورا مككورميك Marlena Deborah McCormick,Horse Sense and the Human Heart (فلوريدا، ١٩٩٧)، صفحة ١٧.

٦ مقتبس في روي سترونغ Roy Strong, Van Dyck: Charles I on Horseback (نيويورك، ١٩٧٢)، صفحة ٣٨.

٧ من دبليو. إتش. أودين W.H. Auden, 'Musee de Beaux Arts' ، في The Oxford Library of English Poetry، المجلد الثالث، تحرير جون واين John Wain (لندن، ١٩٨٨)، الصفحتان ٤٠١-٤٠٢.

الجدول الزمني للحصان

٢٠-١ مليون ق.م.

الإيكوس كابالوس تطور من عملية طويلة وبطيئة للاصطفاء الطبيعي الذي شكل فروعا متعددة من الخيليات.

حوالي ٤٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م.

كانت الجياد تصطاد ويحتفظ بها كسلالات مستأنسة في جنوب أوكرانيا، وشمال كازاخستان، وغرب سيبيريا.

حوالي ٣٥٠ ق.م.

قائد فرسان الإغريق إكسينوفون كتب بحثا حول تدريب الحصان.

حوالي ١٠٠ ق.م.

حصان أفينغتون الأبيض يحفر في التلال الطباشيرية لبيركشاير داونس.





١٧١٤

ولد فلاينغ تشيلديرس؛ سيسجل اسمه في تاريخ السباقات كأسرع حصان ولد يوما.

١٧٦٩-١٧٧٠

إكليبس، حفيد حفيد حفيد دارلي ارابيان، ربح 18 سباقا و لم يهزم قط على الحلبة.

١٨٠٦

لويس وكلارك لاحظا خصائص خيول الأبالوسا المستولدة من قبل شعب نيز-بيرس.

١٨٢١

استعمال مصطلح «الثوروبريد الإنكليزي» لأول مرة.

١٩١٤-١٩١٨

خسر الجيش البريطاني 500 ألف حصان في الحرب العالمية الأولى.

١٩٢٨

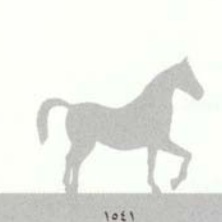
تأسيس نادي البوني في إنكلترا.

١٩٤٣

حلت الجياد محل الجرارات في بريطانيا لتوفير الوقود خلال الحرب العالمية الثانية.







حوالي ٥٠٠-٩٠٠م.

مستوطنة سيلتية في شمال بريطانيا كانت تربي أحصنة متنوعة للركوب و الجر و الزراعة.

١٤٤٨

في معركة كارافاجيو قتل 10 آلاف حصان.



١٥٣٢

فيدريغو غريزونيه افتتح مدرسته لتعليم ركوب الخيل في نابولي.



١٥٤١

المحتل الإسباني وصل على ظهر حصانه إلى سهوب كانساس الحالية.

١٨٢٢

ريتشارد مارتين النائب في البرلمان عن غالوي في أيرلندا قدم أول تشريع تم إقراره لحماية الحيوانات.

١٨٣٠

أقيم سباق في الولايات المتحدة الأمريكية بين عربتي سكة حديدية الأولى يجرها حصان والثانية محرك بخاري.

١٨٨٧

عرض بافالو بيل للغرب الأمريكي المتوحش يؤدى أمام الملكة فيكتوريا في لندن.

١٩١٤

70 ألف بوني مناجم تعمل في المناجم البريطانية.



١٩٦١-١٩٦٦

مستر إيد الحصان الناطق التلفازي، يفكر في أفضل طريقة ليصبح أكثر شبها بالإنسان.



١٩٩٨

عدد جياد برزيفالسكي التي أعيد إدخالها إلى مواطنها الأصلية بلغ ٦٠ حصانا.

٢٠٠٤

أكثر من مليون حصان تقدر بأنها ملكية خاصة وليس تجارية في بريطانيا وحدها.

المراجع

إدواردس، إلوين هلرتلي Edwards, Elwyn Hartley. The Encyclopedia of the Horse (لندن، ١٩٩٤)

إدواردس، بيتر Edwards, Peter. The Horse Trade of Tudor and Stuart England (كامبريدج، ٢٠٠٤)

إروين، كريس Irwin, Chris. Horses don't Lie (لندن، ٢٠٠١)

أسبلي، فيولا Aspley, Viola.Bridleways Through History (لندن، ١٩٣٦)

ألكياتو، أندريا Alciato, Andrea. Emblematum liber (١٥٣١)، Alciato Projec htttp://mun.ca/alciato/desc.html تم التحقق من الرابط في ٢٣يونيو/حزيران ٢٠٠٨.

إليوت، توماس Elyot, Thomas. The Boke called the Governour (لندن، لا يوجد تاريخ)

أمير صدقي، حسين Amirsadeghi, Hossein وبيتر أبتون Peter Upton. The Arabian Horse: History, Mystery and magic (لندن، ١٩٩٨)

أنغر-هاميلتون، كلايف Unger-Hamilton, Clive. The Entertainers: A Biographical History of the Stage (لندن، ١٩٨٠)

إيفانس، جورج إيوارت Evans, George Ewart. Horse Power and Magic (لندن، ١٩٧٩)

إيورز، جيه. سي. Ewers, J.C.. The Horse in Blackfoot Indian Culture

(واشنطن، ١٩٨٠)

باريلي، بات Parelli, Pat. Natural Horse-Man-Ship (كولورادو، ١٩٩٣)

براون، دي Brown, Dee. Bury my Heart at Wounded Knee: An Indian History of the American West (لندن، ١٩٧٢)

بريد، إزابيلا Bird, Isabella. A Lady's Life in the Rocky Mountains (لندن، ١٩٨٢)

بلانديفيل، توماس Blundeville, Thomas. A Newe Booke containing the Arte of Ryding and breaking great Horse (لندن، ١٥٦٠)

بلوفينل، أنطوان دو Pluvinel, Antoine de. The Maneige Royal، ترجمة هيلدا نيلسون Hilda Nelson (لندن، ١٩٨٩)

بوديانسكي، ستيفن Budiansky, Stephen. The Nature of Horses: Their Evolution, Intelligence and Behaviour (لندن، ٢٠٠٤)

بورت، جوناثان Burt, Jonathan. Animals in Film (لندن، ٢٠٠٢)

بيرسون، ميليسا هولبروك Pierson, Melissa Holbrook. Dark Horses, and Black Beauties (نيويورك و لندن، ٢٠٠١)

بيرغر، جون Berger, John. About Looking (نيويورك، ١٩٨٠)

بيغوت، ستيوارت Piggot, Stuart. Wagon, Chariot and Carriage: Symbol and Status in the History of Transport (لندن، ١٩٩٢)

تايلور، غوردون آر. Taylor, Gordon R.. The Great Evolution Mystery (لندن، ١٩٨٣)

تشاستين، جون تشارلز Chasteen, John Charles. Herose on Horseback: The Life and Times of the Last Gaucho Caudillios (ألباكركي، نيومكسيكو، ١٩٩٥)

تولكن، جيه. آر. آر. Tolkien, J.R.R.. The Two Towers (لندن، ١٩٦٩)

توليه-ستوت، آر. إس. Toole-Stott, R. S.. Circus and Allied Arts: A World Bibliography ١٥٠٠-١٩٥٩ (ديربي، ١٩٦٠)

توماس، كيث Thomas, Keith. Man and the Natural World: Changing Attitudes in England، ١٥٠٠-١٨٠٠ (لندن، ١٩٨٣)

ثريسك، جون Thirsk, Joan. Horses in Early Modern England: for Service, for Pleasure, for power (ريدينغ، ١٩٧٨)

ثورو، هنري دافيد Thoreau, Henry David. Walden: or, Life in the Woods (نيويورك، ٢٠٠٢)

جاكسون، جامية Jackson, Jaime. Horse Owners Guide to Natural Hoof Care (هاريسون، أركانسس، ٢٠٠٠)

جوزيفي الأصغر، ألفين إم. Josephy Jr, Alvin M.. 500 Nationas: An Illustrated History of North American Indians (لندن و نيويورك، ١٩٩٥)

جونس، كاثرين Johns, Catherine. Horses: History, Myth, Art (لندن، ٢٠٠٦)

جيمس، جيريمي James, Jeremy. Vagabond (لندن، ١٩٩١)

داروين، تشارلز، أصل الأنواع (لندن، ١٨٧٢)

نفس المؤلف، أصل الأنواع، تحرير جيه. دبليو. بورو J.W. Burrow (لندن، ١٩٨٥)

ديفيس، سايند Davies, Sioned و نيريس آن جونس Nerys Ann Jones، طبعة The Horse in Celtic Culture: Medieval Welsh Perspectives (كارديف، ١٩٩٧)

ديكارت، رينيه Descartes, René. Meditations and Other Metaphysical Writings، ترجمة ديسموند إم. كلارك Desmond M. Clarke (لندن، ٢٠٠٣)

دينت، أنثوني Dent, Anthony. The Horse Through Fifty Centuries of Civilisation (لندن، ١٩٧٤)

ديوزين، كيرا فان Deusen, Kira Van. Singing Story, Healing Drum: Shamans and Storytellers of Turkic Siberia (مونتريال، ٢٠٠٥)

رايدن، هوب Ryden, Hope. America's Last Wild Horses (غيلفرد، كونيتيكت، ٢٠٠٥)

رشيد، مارك Rashid, Mark. Considering the Horse (كولورادو، ١٩٩٣)

روبيرتس، مونتي Roberts, Monty. The Man who Listens to Horse (لندن، ١٩٩٧)

ريتشاردسون، بيل و دونا Richardson, Bill and Dona. The Appaloosa (كاليفورنيا، ١٩٦٩)

ريز، لوسي Rees, Lucy. The Horse's Mind (لندن، ١٩٩١)

ريغان، توم Regan, Tom وأندريو لينزي Andrew Linzey، طبعة Song of Crea- tion: An Anthology of Poems in Praise of Animals (باسينغستوك، ١٩٨٨)

ريمينغتون، فريديريك Remington, Frederic. Frederic Remington's own West، تحرير هارولد مككراكين Harold McCracken(لندن، ١٩٦٠)

سايدنل، فيليب Sidnell, Philip. Warhorse: Cavalry in Ancient Warfare (لندن و نيويورك، ٢٠٠٦)

سترونغ، روي Strong, Roy. Van Dyck: Charles I on Horseback(نيويورك، ١٩٧٢)

سوليسل، جاكي دو Solleysel, Jacques de. Le Parfait Mareschal or Complete Farrier، ترجمة وليام هوب William Hope، وتتضمن The Compleat Horseman: A Compendious Treatise of the Art of Riding, collected from the best Modern Writers on the Subject (إدنبرا، ١٦٩٦)

سويفت، جوناثان Swift, Jonathan. Gulliver's Travels، تحرير ألبيرت جيه. ريفيرو (نيويورك و لندن، ٢٠٠٢)

سيسا، ألدو Sessa, Aldo. Gauchos (كولونيا، ٢٠٠١)

سيويل، آنا Sewell, Anna. Black Beauty (لندن، ١٩٨٨)

شفارتز، هوارد Schwartz, Howard. Miriam's Tambourine: Jewish Folk- tales from Around the World (أكسفورد، ١٩٨٨)

شو، جورج بيرناد، الأسلحة و الإنسان (إدنبرا، ١٩٠١)

غري، زاين Grey, Zane. Wildfire (لندن، لا يوجد تاريخ)

غوردن، دبليو. جيه. Gordon, W.J.. The Horse World of London (لندن، ١٨٩٣)

غورينير، فرانسواز روبينكون دو لا Guérinière , Francois Robichon de la. School of Horsemanship، ترجمة ترايسي بوشير Tracey Boucher (لندن، ١٩٩٤)

فليتشير، إيان Fletcher, Ian. Galloping at Everything: The British Cavalry in the Peninsular War and at Water 100 1808-15 (ستايلهورست، ١٩٩٩)

فيليس، جيمس Fillis, James. Breaking and Riding with Military Commentaries، ترجمة إم. إتش. هايس M.H. Hayes (كينغستون، لا يوجد تاريخ)

كافنديش، وليم Cavendish, William. La Methode Nouvelle et Invention extraordinaire de dresser les Chevaux (أنتويرب، ١٦٥٨)

نفس المؤلف، A New Method, and Extraordinary Invention, to Dress Horses (لندن، ١٦٦٧)

نفس المؤلف، A General System of Horsemanship: Volume 1 (لندن، ١٧٤٣)

كسينوفون Xenophon. The Art of Horsemanship، ترجمة إم. إتش. مورغان M.H. Morgan (لندن، ١٩٩٣)

كلاتون-بروك، جوليت Clutton-Brock, Juliet. A Natural History of Domesticated Animals (كامبريدج، ١٩٩٩)

كوليدج، دين Coolidge, Dane و ماري روبيرتس Mary Roberts. The Navajo Indians (بوسطن، ماساتشوستس، ١٩٣٠)

كيلينغ، روديارد Kipling, Rudyard. The Just So Stories (لندن، ١٩٨٩)

كين، هيلدا Kean, Hilda. Animal Rights: Political and Social Change in Britain since 1800 (لندن، ١٩٩٨)

كينغستون، دبليو. إتش. جي. Kingston, W.H.G.. Stories of the Sagacity of Animals (لندن، ١٨٧٩)

لورينس، دي. إتش. Lawrence, D.H.. Apocalypse (لندن، ١٩٣١)

لويس، جون إي. Lewis, Jon E.. The West: The Making of the American West (بريستول، ١٩٩٦)

لويس، سي. جاك Lewis, C. Jack. White Horse, Black Hat: A Quarter Century on Hollywood's Poverty Row (أكسفورد، ٢٠٠٢)

ليدتكيه، والتر إيه. Liedtke, Walter A.. The Royal Horse and Rider: Painting, Sculpture and Horsemanship ١٥٠٠-١٨٠٠ (نيويورك، ١٩٨٩)

ليون، راسل Lyon, Russell. The Quest for the Original Horse Whisperers (إدنبرا، ٢٠٠٣)

مانينغ، أوبري Manning, Aubrey و جيمس سيربل James Serpell، طبعة، Animal & Human Society: Changing Perspectives (لندن و نيويورك، ١٩٩٤)

مايلنر الثاني، كلايد إيه.. Milner II, Clyde A.. كارول إيه. أوكونور Carol A. O'Connor و مارثا إيه. ساندفايس Martha A. Sandweiss، طبعة، The West: an Illustrated History (نيويورك و أكسفورد، ١٩٩٤)

مككورميك، أديل فون روست و مارلينا ديبورا McCormick, Adele von Rüst Mar-lena Deborah. Horse Sense and the Human Heart (ديرفيلد بيتش، فلوريدا، ١٩٩٧)

موريس، ديسموند Morris, Desmond. Illustrated Horsewatching (لندن، ١٩٩٧)

مونتاين، ميشيل دو Montaigne, Michel de. The Complete Essays. تحرير إم. إيه. سكريتش M. A. Screech (لندن، ١٩٩١)

نفس المؤلف، The Byerley Turk (لادلو، ٢٠٠٥)

هاوي، إم. أولدفيلد Howey, M. Oldfield. The Horse In Magic and Myth (نيويورك، ٢٠٠٢)

هايلاند، آن Hyland, Ann. The Medieval Warhorse from Byzantium to the Crusades (ستروود، ١٩٩٤)

نفس المؤلف، The Warhorse، ١٢٥٠-١٦٠٠ (ستروود، ١٩٩٨)

هولت، وليام Holt, William. Ride a White Horse: A 9000 Mile Eques-trian Odyssey (لندن، ٢٠٠١)

هولمز، ريتشارد Holmes, Richard. Riding the Retreat, Mons to Marne: 1914 Revisited (لندن، ٢٠٠٧)

هيثيرتن، غريغ Hetherton, Greg. Britain and the Great War: A Study in Depth (لندن، ١٩٩٨)

وارنر، ماكولم Warner, Malcolm و بين بلايك Robin Blake. Stubbs and the Horse (نيوهيفن، كونيتيكت، و لندن، ٢٠٠٥)

والكر، إلاين Walker, Elaine. 'The Duke of Newcastle and the Spanish Horse', Andalusian: Dedicated to the Spanish and Portuguese Horse (بريمينغهام، آلاباما ٢٠٠٣)، الصفحات ٢١-٢٥

نفس المؤلف، ‹To Amaze the People with Pleasure and Delight: An Analysis of the Horsemanship Manuals of William Cvendish, First Duke of Newcastle (١٥٩٣-١٦٧٦)›، أطروحة الدكتوراه، جامعة بريمينغهام، ٢٠٠٥

واليس، دافيد راينس Wallace, David Rains. Beasts of Eden (نيوهيفن، كونيتيكت، ٢٠٠٥)

وانغفورد، هانك Wangford, Hank. Lost Cowboys (لندن، ١٩٩٥)

وايت، رايموند إي White, Raymond E. 'B-Western Horse', Western Horseman (كولورادو، ٢٠٠١)

ياتيس، روجر Yates، Roger و بيرس بيرن Piers Beirne. 'Horse Maiming in the English Countryside: Moral Panic, Human Deviance and the Social Construction of Victimhood', Society & Animals Journal of Human-Animal Studies, IX/١ (٢٠٠١)، متوفر على الموقع /www.psyeta.org/sa/sa9.1/yates.shtml (تم التحقق من الربط في ٢٧ مارس/آذار ٢٠٠٨)

الجمعيات و المواقع الإلكترونية

بروك

THE BROOKE

www.thebrooke.org

منظمة دولية من منظمات الرفق بالحيوانات تعنى بجميع أنواع الأحصنة والأناس الذين يعتمدون عليها.

المدرسة الوطنية للفروسية/الكادر الأسود لسومور

ECOLE NATIONAL D›EQUITATION/LE CADRE NOIR DE SAUMUR

www.cadrenoi.fr

منشأة مهيبة على تخوم بلدية سومور في وادي لوار في فرنسا.

منتدى سلوك الحصان

EQUINE BEHAVIOUR FORUM

www.gla.ac.uk/external/EBF

مجموعة دولية مفتوحة لمالكي الأحصنة، والأكاديميين، ومحترفي صناعة-الخيل ولكل المهتمين بسلوك الحصان.

مؤسسة حفظ وحماية حصان برزيفالسكي

FOUNDATION FOR THE PRESERVATION AND PROTECTION OF THE PRZEWALSKI HORSE

www.Treemail.nl/takh

معلومات شاملة عن الماضي المتوحش موجودة على الرابط السابق.

H-ANIMAL

www.h-net.org/~animal

مجموعة نقاش إلكترونية متعددة الاختصاصات للطلاب الذين يدرسون الحيوانات في الثقافة البشرية.

الحصان: مرآة الإنسان: مقاربات في العلاج البدائي عند الإنسان والحصان

THE HORSE: A MIRROR OF MAN: PARALLELS IN EARLY HUMAN AND HORSE MEDICINE

www.nlm.nih.gov/exhibition/horse/gallery.html

موقع مكتبة الطب الوطنية، والذي يتضمن صورا من نصوص قديمة ونادرة.

الرابطة الدولية لحماية الأحصنة

INTERNATIONAL LEAGUE FOR THE PROTECTION OF HORSES

www.ilph.org

تقدم معلومات عن تاريخ المؤسسات الخيرية، والحملات الحالية، ومراكز الرفق بالحيوان، و إجراءات التبني.

المدرسة الوطنية للطب البيطري في ليون-الأعمال القديمة

ECOLE NATIONALE VÉTÉRINARE DE LYON-OUVRAGES ANCIEN

www.vet-lyon.fr/22224257/o/fichepagelibre/&

RH=1164811905831

مكتبة افتراضية للنصوص الأولى عن الفروسية والطب البيطري، والتي يعثر عليها عادة في مجموعات مكتبية خاصة فقط ومن النادر أن تكون مجتمعة معا.

مأوى بوني المناجم، بونتبريد، ويلز

PIT PONY SANCTURARY, PONTYPRIDD, WALES

www.pitponies.co.uk

مؤسسة خيرية مسجلة ومزرعة صغيرة تأوي أحصنة بوني مناجم سابقة. مفتوحة للزوار.

نادي البوني

PONY CLUB

www.pcuk.org

أكبر جمعية خيالة في العالم. موقعها الإعلامي على شبكة الإنترنت يقدم مدخلا لجميع نواحي نشاطاتها الدولية.

مدرسة ركوب الخيل الإسباني في فيينا

SPANISH RIDING SCHOOL OF VIENNA

www.srs.at/index.php?id=353

شكر

أود أن اشكر زوجي، براين والكر، لتشجيعه ودعمه الدائم وابني، كريستيان لقراءته نسخاً عِدّة أولية من هذا الكتاب. أريد أن أشكر أيضا أصدقائي، أفريل دو كامبري و ليندا تيودور، لصبرهما خلال سماعهما لتاريخ ، وطرف، و أحيانا بعض الوقائع المؤلمة التي وقعت عليها خلال بحثي. كما أود أن اشكر أيضا عدداً كبيرا من الأشخاص، الذين لم أقابلهم معظمهم قط، والذين كانوا لطفاء بمشاركتهم لي صورهم، و قصصهم، وخبرتهم .وأشكر بشكل خاص مال هيوز من جي أند إم فوتوغرافي لخبرته التقنية؛ وداني لدا ميدا، روث ويلبور، وملجأ بيت بوني، وماغنوليا هوتيلز ليمتد، تورفسورفير ليمتيد، مايفرويدت فوتوغرافي، ميرافات اندالوسيانس، الرابطة الدولية لحماية الأحصنة ونادي لنتريسانت الفلكلوري لسماحهم باستخدام صورهم؛ زوي سكولدينغ و تريفور فولدز للوقت الذي خصّصاه؛ وإيولو لويد، ضابط اتصال غابة كولكاينوغ، لمرافقته لي لزيارة أحصنة برزيفالسكي، وميك راشدين ، من سولفا إيسلانديك هورسيز و واين ديلبيكن من لا يزي إيد كانابيانز، اللذان دعياني إلى جنوب ويلز و كولومبيا البريطانية لامتطاء احصنتهم. أخيرا، أود ذكر جميع الأحصنة التي شكلت طريقة تفكيري خلال السنين ، وخاصة جيه بي، داريوس، توباز، والأخير ، كودلي جيم الرائع، وكذلك كادبوري و زبيدي ، اللذان ليسا حصانين، ولكنهما عضوان نشيطان و بأذنين طويلتين في القطيع على الرغم من ذلك.

كلمة شكر لمصادر الصور والرسوم التوضيحية

يود كل من المؤلفة والناشر التعبير عن جزيل الشكر للمصادر الآتية التي وفرت الصور والرسوم التوضيحية و/أو سمحت بإعادة نشرها:

Academy of Sciences, Leningrad: p. 70; Bayerische Staatsgemäldesammlungen, Munich: p. 178; collection of the author: pp.17, 31, 67, 75, 78, 98, 101, 114, 132, 134, 137, 140, 144, 153,

(top), 154, 155, 160, 171, 187, 189, 191, Cyngor Sir Ceredigion Country County Council (Ceredigion Archives): p. 138; The British Museum, London (photo The Trustees of the British Museum): p. 113; photo © Dave Collier: p. 48; © Daniéle Da Meda: pp. 19, 111, 166 (all images from her exhibition 'Gauchos'); Foundation for the Preservation and Protection of the Przewalski's Horse: p. 32; photo © Karen Givens / 2008 iStock International Inc.: p. 71; Gulistan Library, Teheran: p. 92; photo Hughes Photography: p. 190; Image*After: pp. 120, 188; photo The international League for the Protection of Horses: p. 184; Islamisches Museum, Berlin: p. 12; Istanbul University Library: p. 60; photo © Randy Harris / Big-StockPhoto: p. 15; J & M Photography: pp. 11, 186; photo Wiliam Henry Jackson / Library of Congress, Washington, DC (Prints and Photographs Division, World's Transportation Commission photograph collection): p. 57; Japan Folk Art Museum, Tokyo: p.30; Leeds City Art Galleries: p. 122; Library of Congress, Washington, DC (Prints and Photographs Division): pp.13-80, 104, 108, 116 (British Cartoon Prints Collection), 124, 129, 136 (Cabinet of American Illustration), 141 (Civil War drawing collection), 156, (George Grantham Bain Collection), 157, 161, 163, 170, 172, 173; photo © Llantrisant Folk Club: p. 52; by permission of Llyfrgel Genedlaethol Cymru / The National Library of Wales and Gwasg Gregyong: p. 51; photo © Geir-Olav Lyngfjell / 2008 iStock International Inc.:p.25; Magnolia Hotels: p. 46; Manchester Archive and Local Studies, Central Library: p. 162; photo Steve Meyfroidt (www.meyfroidt.com): p. 169; Miraval Andalusians: p. 119; Museum für Ostasiatische Kunst, Berlin: p. 91; National Museums on Merseyside: p. 130; photos © The Natural History Museum, Lon-

don: pp. 22, 23, 61, 62; photo Natural Selection Anita Weiner / Design Pics Inc. / Rex Features: p. 6; photo The Pit Pony Sanctuary, Pontypridd, Glamorgan: p. 158; Plains India Museum, Buffalo Bill Historical Center, Cody, Wyoming: p. 82; private collections: pp. 29, 65, 68, 74, 150; photo © Ray Roper / 2008 iStock Internationl Inc.: p. 85; Santa Maria del Popolo, Rome: p. 44; photo © Richard Shaw: p. 94; photo © Ragnar Th. Sigurdsson, Arctic images: p.83; photo Erwin E. Smith / Library of Congress, Washington, DC (Prints and Photographs Division): p. 105; Statens Historiska Museet, Stockholm: p. 49; from the Stirling Maxwell Collection, by permission of Glasgow University Library, Department of Special Collections: pp. 45, 50; cartoon © 1962 Norman Thelwell, reproduced by permission of Momentum Licensing from A Leg at Each Corner (Methuen): p. 10; © Mark Wallinger, 2008 / Rex Features: p. 180; Werner Forman Archive: pp. 29, 30, 36, 49, 82, 92, 123; photo Ruth Wilbur: p. 8; photo © winhorse / 2008 iStock International Inc.: p.77, cover, Yang-tzu-Shan, Szechuan: p. 123.

«سلسلة جريئة ومذهلة»

ذا إنديبندنت

«تعدنا هذه السلسلة الجديدة بإدمان جديد...»

ديزموند موريس

تتناول «إلين ووكر» في كتابها «الحصان» التاريخ الطويل والمتنوع لهذا الكائن الجميل و المفيد. وتطوف بنا حول العالم من السهوب البرية لمنغوليا إلي سهول أمريكا، موثقة التاريخ الغني والمعقد لهذا الحيوان، ابتداء من الأحصنةالبرية المتوحشة وانتهاء بالأنواع المستأنسة التي لعبت ذات يوم دوراً مركزيا في الحياة اليومية بين وسيلة للنقل، و أداة للحرب، ومصدر للقوة العاملة.

تلقي ووكر الضوء علي طبيعةالترابط القائم منذ زمن بعيد بين البشر والأحصنة ومدي انعكاسه علي الثقافات المختلفة حول العالم،إضافة إلي تداعيات مثل هذا التفاعل الوثيق على كل من الإنسان و الحصان. كما قامت بتعقب الدور المحوري للحصان في مجالات الفن،والأدب،والترفيه المختلفه. متنقلة في عرضها من مسابقات الأحصنة إلى منافسات الفروسية و أعمال تلفزيونية كلاسيكية مثل «فوليفو». أخيراً، تهمس لنا ووكر بأن دور الحصان في العالم العصري يكشف حجم التغيير المؤثر في المجتمع البشري.

إلين ووكر محاضرة في الأدب الإنكليزي والكتابة الإبداعية في جامعة ويلز و كلية الفنون المفتوحة.

يتضمن هذا الكتاب ١٣٣ رسماً توضيحياً،منها ٩٤ رسماً ملوناً.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة، التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة





